

أول كتاب في الحساب

١٤١

الحساب

مصنوع للمصريين

تأليف

د. حسين فوزي النجار

سلسلة الاعلام

أحمد عرابي

مصر للمصريين

تأليف

د. حسين فوزي النجار



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

الإخراج الفنى : عمر حماد على

الأهداء

الى حفيدة البطل أحمد عرابي

السيدة الأستاذة

سميرة عرابي

فهي صاحبة الفضل الأول في اقامي على كتابة سيرته
لتكون ختاماً لسلسلة كتبي عن تاريخ مصر في سير
أعلامه •

المؤلف

الدكتور حسين فوزي النجار

مقدمة

بن بدأت تدوين تاريخ مصر ، بسيرة اعلامه ، وبدأتها
أحمد لطفى السيد - أستاذ الجيل ، على غير ما يمضى
هج التاريخى من التسلسل فى سياق الأحداث ، فلأن لذلك
لعله الصلة الاسرية التى تربط بين العصبية الريفية فى
احد ، أو لعله ، وهو الأقرب الى العاملين العقلى والنفسى
ان رسالتى للدكتوراه كانت عن « الجريدة وحزب الأمة »
ة هى الصحيفة التى رأس تحريرها أحمد لطفى السيد ، حتى
يت فى تناول اعلام مصر الآخرين ، تناولتها وفق ترتيبها
ن ، فبدأت برفاعة الطهطاوى ، ثم على مبارك ، فسعد زغلول
الدكتور هيكل ، وبعده الرئيس محمد نجيب ، وذهلت كل منها
الكبير الذى خلده على مدى التاريخ ، فرفاعة الطهطاوى
ن وامام نهضة ، وعلى مبارك أبو التعليم - وسعد زغلول
والزعيم ، والدكتور هيكل وتاريخ جيل - اذ أنه صورة بارزة
جيله ، الادبية والفكرية والتاريخية والسياسية ، فاذا جئت
يس محمد نجيب ، كان العنوان الذى اختاره الناشر «صفحة
خ مصر المعاصر » - على غير ما اخترت - البطل والبطولة .

ولم أفكر فى الكتابة عن - أحمد عرابى - رغم ما كان من صلته الوثيقة بجدى ، ولعل ذلك لكثرة ماكتب عنه ، واخترت له عنوان « الزعيم أحمد عرابى » الا أذنى اكتشفت أن المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى قد سبقنى إليه ، واخترت له عنوانا « أحمد عرابى : مصر للمصريين » فقد كانت دعوته وكان جهاده أن تكون مصر لأبنائها دون الترك والجركس الفالبيين ، واخترت له هذا العنوان صورة لكفاحه الغالب فى سبيل مصر ، والوجود المصرى .

والزعيم أحمد عرابى ، فى الواقع ، ثمرة لما قام به الوالى محمد سعيد باشا من متغيرات على الادارة المصرية لعل ابرزها اصداره - (اللائحة السعيدية فى ٥ أغسطس سنة ١٥٥٨ م ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٤) ، وهى من أعظم اصلاحاته كما يقول الرافعى (لأنها أساس التشريع الخاص بملكية الأتليان فى القطر المصرى ، وهى من أثاره الخالدة التى تذكر له بالخير ، لأن الملكية هى من الدعائم الأساسية للهيئة الاجتماعية ، وكان الفلاح محروما من حق التملك فى عهد محمد على) (١) وهو مايشير اليه - عرابى - بقوله :

(تولى المرحوم سعد باشا ولاية مصر فى ١٤ شوال سنة ١٢٧٠ هجرية ، حيث أصدر أمره بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى سلك العسكرية حيث كان طلبى والهاقى بالعسكرية فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١ هـ) .

(فى التاريخ المذكور آنفا دخلت العسكرية وكان ذلك فى عهد محمد سعيد باشا الذى كان محبا لتقدم المصريين ، فترقيت بالامتحانات امام رجال العسكرية الى رتبة ملازم ثانى فى ١٥ ربيع

(١) عبد الرحمن الرافعى بك : عصر اسماعيل الجزء الأول ص ٢٥

الثانى سنة ١٢٧٥ ، والى رتبة ملازم أول فى ١٧ جماد الثانى سنة ١٢٧٥ هـ والى رتبة يوزياشى فى ١٣ شعبان من السنة المذكورة ، والى رتبة صاغتول أغاسى فى ٢٢ ربيع آخر سنة ١٢٧٦ ، والى رتبة بكباشى فى ١٥ شعبان من السنة المذكورة ، والى رتبة قائم مقام بك فى ٢٤ صفر سنة ١٢٧٧ ، وهى المرتبة التى لم يصل اليها أحد قبلى من العنصر المصرى ، ثم ترقيت بعد ذلك فى عهد محمد توفيق باشا الى رتبة أميرالاي فى رجب سنة ١٢٩٦ والى رتبة اللواء فى ربيع آخر سنة ١٢٩٩) .

ولم يلق محمد سعيد باشا من حفاوة التاريخ ما لقيه غيره من ولاية مصر وخديويها ، ولم يكن لذلك من سبب - كما نرى - الا لأنه لم يمض على سنة غيره من الولاة والخديوين ، ممن نهجو نهج محمد على ، فى حكمه مصر ، فان لم تعد ولاية عثمانية فقد أصبحت ولاية علوية ، وهو ما احتذاه الخديو اسماعيل فيما بعد فنال من حظوة المؤرخين ما لم ينله الوالى محمد سعيد ، وكانت ولاية اسماعيل ، ومن بعده توفيق القشة التى قصمت ظهر البعير ، وكان انفجار الثورة العرابية لتكون - مصر - للمصريين - وكانت مصداقا لما يؤكد الدكتور هيكل فى « مذكرات فى السياسة المصرية » بقوله :

« كثيرا ما نسى المؤرخون نصيب الشعب المصرى فى توجيه الحوادث التى مرت به ، واكتفوا بذكر الوقائع الحربية التى شهدتها موانئ مصر وأراضيها ، ولو أنهم ذكروا مواقف الشعب من هذه الحوادث ، لحكموا بأنه كان صاحب الأثر الحاسم فى النتائج التى انتهت اليها ، فدخل الفرنسيين - مصر بامرة بوناپرت ، وجلاؤهم عنها ، ومحاولة الانجليز دخول مصر ، وقيام محمد على الكبير ، وتبسوؤه عرش مصر - كل ذلك كان

للمصريين فى توجيهه ونهايته الأثر الحاسم ، لكننا لانجد فى المؤلفات القديمة ، خلا يوميات ابن اياس ويوميات الجبرتى ، ما نستشف من خلاله هذا الأثر ، ولهذا يظن بعضهم أن الشعب المصرى عاش بعيدا عما كان يجرى حوله من الأحداث ، مسلما أمره ، للغالب ، مكتفيا بفلاحة الأرض لينال الغالب من ثمرات كسده مايشاء ، وليدع منها لهذا الشعب المستسلم الكفاف .

ونسيان ما كان للشعب المصرى من أثر فى توجيه الحوادث ، هو الذى أدى فى تاريخ مصر الحديث الى مأس دونت صور بعضها فى هذه المذكرات ، على اننى لا أزعم أننى فصلت كل ماحدث خلال الحقبة التى تناولتها فمن الحوادث ماوقفت عنده لما اذ لم اشارك العاملين فيه بنصيب يذكر ، ومنها ما أغفلته اذ لم يكن لى فيه اثر ولم أقف على الحقيقة من أمره » (٢) .

ومصادق ما يقرره الدكتور هيكل ، ما كان من الثورة العرابية وزعامة أحمد عرابى ، فقد كانت نبض ما جاشت به مصر من انفعال، وكان أن تحولت من حركة عسكرية تدور حول موقف الضباط المصريين من سياسة التسلط العسكرى التى قادها عثمان رفقى ، الى حركة وطنية شعارها (مصر للمصريين) .

« فالثورة العرابية كانت دفاعا عن الحق ودفاعا عن الحياة . . ولا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى كان فى مقدمة الأسباب المباشرة للثورة ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم

(٢) الجزء الأول : دار المعارف ص ٩ .

جهارا على ولاية الأمور ، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة ، ولو لم يظهر عرابي ، ولم تكن له تلك الشخصية التي اجتذبت اليه صفوف الضباط وبثت فيهم روح التضامن والاقدام ، لكان محتملا أن لا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت في زمن آخر ، وفي ظروف وملابسات أخرى غير التي ظهرت فيها « (٣) » .

وكان عرابي البطل المنشود للتعبير عن ارادة مصر .

دكتور حسين فوزي النجار

الزمالك في ٢٩ رمضان ١٤١١

الموافق ١٤ ابريل ١٩٩١

(٣) عبد الرحمن الرافعي بك : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي ص

١/١ - من عهد الى عهد

قامت الثورة العرابية لتؤكد حق المصريين من ضباط الجيش في المساواة بأنذادهم من الترك والجركس ، ثم اتسع مداها لتؤكد حق المصريين في المساواة المطلقة بالترك وتنكر استئثار الخديو وبيطاتنه ورجال دولته من الترك والاجانب بالسلطة دون اصحابها من المصريين .

الا اننا يجب أن نعود الى سنوات خلت قبل ذلك حتى نتبين أصالة الروح المصرية وصدقها في التعبير عن ذاتها وسط هذا الخضم من السيطرة التركية ، ان لم يجدوا أنفسهم أكفاء لتولى الحكم في بلادهم ، وقد واقتهم الفرصة حين تصدوا لمقاومة الحملة الفرنسية بعد أن استخذى المماليك دونها ، وعجزت الدولة العثمانية عن مقاومة الاحتلال الفرنسي وقهره ، ففي هذا المنضال الذي خاضه المصريون ضد الفرنسيين ظهرت زعامات شعبية كانت جديرة بأن تتولى حكم البلاد ، على رأسها عمر مكرم ، ولكنها تنحت عنه وأسلمته الى محمد علي متحدية في ذلك ارادة السلطان العثماني ، مما ينفي عن المصريين عاطفة الولاء السياسي للدولة العثمانية ، والا لرضوا بمن اختاره السسلطان واليا أيا كان شأنه ، ولم يرض الخليفة

الا كارها بولاية محمد على على حين وقف الشعب يسنده ويؤازره،
ووقفت الزعامة المصرية تتمسك بولايته وتتحدى فى ايثاره بالولاية
ارادة خليفة المسلمين .

ولعلمهم كانوا يدركون أن تحدى ارادة الخليفة لايمنى الثورة
عليه ، وأن اختيارهم للولاية مصريا هو ثورة على نظام الدولة الذى
جرت عليه وأخذت به منذ قيامها ، وهو ما يتناقى مع الولاء الذى
يكتونه لدولة الاسلام وخليفة المسلمين ، فاذا كان عليهم أن يختاروا
فان اختيارهم يجب ألا يخرج على نظام الدولة فى اختيارها للولاة ،
وقد جرت الدولة على اختيار المولاة من الأتراك فى مصر وفى غير
مصر من البلاد التى تتبعها ، ومن ثم فأن اختيارهم هو اختيار لوالى
تركى من بين أتراك آخرين ، وقد رأوا ان اختيار شخص معين من
بين من ترشحهم أرومتهم التركية للولاية هو حق من حقوقهم الأصيلة
تفرضه الشريعة السمحاء التى تدين بها الدولة فى حكمها لأمة
المسلمين ، فاذا كان الخليفة يرى قيام تركى بالولاية فان هذا لا يخالف
الشريعة التى سوت بين المسلمين ، وقد ظن المصريون أن محمد على
راع صالح ، وأنه أحق من الآخرين بالولاية ، فكان اختيارهم لسه
وتحديهم للدولة فى هذا الاختيار قائما على هذا الأساس .

فلم يكن عزوف الزعامة المصرية عن تولي الحكم بنفسها بعد
أن اضطلعت دون غيرها بعبء المكفاح القومى ايماننا منها بعدم
القدرة عليه أو انها ليست كفتا له ، بل لأنها ترى أن حقها هو دون
الولاية وان عداه الى الاختيار ، وظل هذا الرأى قابعا فى اذهان
المصريين حتى الثورة العرابية ، فحين فكر عرابى فى خلع الخديو
توفيق ، لم يعلن هذا الرأى أو يجهر به الا بعد أن ثبت استعداد
الخديو توفيق للجانب على الثورة .

وفى اجتماع قادة الثورة العرابية بأعضاء مجلس النواب فى دار محمد سلطان باشا مساء ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، رفض النواب موافقة عرابى على خلع الخديو ، وبالرغم من حملة عرابى على توفيق وأسرته ، فانه حين احتكم الى الناس فى ذلك كانت العرائض التى استكتبهم اياها تنص على استبدال الخديو توفيق بالأمير حليم باشا ، ولم يشر الى ضرورة التخلص من الأسرة الخديوية ، ولعله لم يشأ أن يخالف النواب رأيهم ، ولعل النواب أنفسهم كانوا ينفسون على عرابى أن يخلف الخديو على العرش ، أو يرأس الجمهورية اذا ما أريد للبلاد أن تكون جمهورية .

ولعل محمد على قد أدرك بمكره وبصيرته النفاذة أن الخطر الذى يمكن أن يتهده ويتهدد أسرته لن يأتيا الا من ناحية الشعب . فأنكر على المصريين - كما يقول الجبرتى - كل حق فى تولى وظائف الدولة العليا ، أو ذات الخطر ، فقصرها على بنى أرومته ، وعلى بعض الاجانب . وكان يختار مستشاريه ورجال دولته من هاتين الطائفتين .

ويبرر مؤرخوه ومن انساقوا فى تملق أسرته واللواذ بها ، انصرافه عن تجنيد المصريين فى البداية بخشيته على الزراعة أن تبور ، اذا انصرف المصريون عنها الى الجندية - ولكن مما يهدم هذا التبرير انه حين اضطر الى تجنيد المصريين ، وحقق على أيديهم أعظم انتصاراته ، حال بينهم وبين المترقى الى الرتب العليا .

وكان هذا ما وقر فى عقول رجال الأسرة العلوية ، فنرى الأمير عمر طوسون يقول فى ذلك : « ولكن المصريين من هؤلاء الجنود الذين أظهرت الحرب علو كعبهم ، واستحقاقهم لكل مديح يفقدون هذه الصفات الباهرة عندما يرتقون الى مراتب القيادة

العليا ، فهم عندئذ لا يحسنون القيام بواجبهم ، ولا يعتزون بكرامة مراكزهم ، بل يبقون على ما ألفوه من عوائدهم القديمة ، فهم من هذه الوجهة يخالفون العثمانيين والمماليك الذين يفوقونهم جدارة واستثالا لمراكز القيادة العليا «(١)» .

ولا نملك أن نحكم على عواطف محمد على تجاه المصريين الا بما بدر منه نحوهم فقد اعتز عليهم بأخذانه من الترك والجركس والاناؤود وميز عليهم الأجانب فارتفع عددهم من - ١٥٠ر١٦ - فى سنة ١٨٤٠ الى خمسين ألفا سنة ١٨٢٦ وأصبحوا مائة وخمسين ألفا سنة ١٨٧٠ على عهد الخديو اسماعيل .

وكانت الضريبة التى يفرضها على التجار المصريين عشرة فى المائة ، والضريبة التى يفرضها على أقرانهم من الأجانب اثنين ونصف فى المائة ، وفى هؤلاء الأجانب يقول الجبرتى :

(انهم ترأسوا وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات ، وأخذوا بيوت الأعيان التى بمصر القديمة وعمروها ، وزخرفوها ، وعملوا فيها بساتين وجناين ، وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينة ، ويركب - الكلب - منهم وحوليه وأمامه عدة من الخدم والقواسة يطردون الناس من أمامه وخلفه) .

وقصر وظائف السلطنة على أبنائه وعشيرته من الترك والجركس فكان منهم حكام الأقاليم وكبار الضباط فى الجيش

(١) الأمير عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على - الجيش المصرى البرى والبحرى - ص ٤٥ .

والشرطة وجباة الضرائب، أما وظائف الخدمة العامة التي لا جأه لها ولا سلطان كوظائف التعليم والهندسة والطب فقد كان للمصريين والأجانب نصيب فيها ، فلم يكن ممن أصطفاهم من يصلح لها . أو يقدر عليها ، وليس فيها ما يخشاه أو يخشى منه على عرشه ، مادام يسيطر بمواليه على عناصر القوة في الدولة ، وحين انقضت حاجته منها في أواخر أيامه وفي أيام حلفائه أغلقها .

وكان أخطر ما قام به محمد على ، انه قضى على العصبية والاسر المصرية القوية ، وهو ما أشار اليه الشيخ محمد عبده ، بقوله :

(حتى اذا سحقنا الأحزاب القوية ، وجه همه الى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع فيها رأسا يستقر فيه ضمير - أنا -) (٢) .

وباعدت تلك المظالم بين الشعب وبين الأسرة الحاكمة ، وكانت سببا قويا في قيام الثورة العرابية ، والتفاف الناس حولها ، وتأييدهم لها ، وظل أثرها قائما لا يبرح أذهان المصريين بعد فشل الثورة العرابية يبعد بينهم وبين الأسرة الحاكمة ، بعدا يصوره الدكتور هيكل في مذكراته السياسية تصويرا دقيقا ، فيقول (٣) :

وقد بقيت في أذهاننا نحن أبناء الريف المصرى صورة قاتمة من حكم الترك ومن حكم الخديويين أنفسهم

(٢) من مقال للشيخ محمد عبده حمل فيه على محمد على بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته سنة ١٩٠٥ - تاريخ الأستاذ الأمام ج٢ ص ٢٨٢ - محمد رشيد رضا . ثلاثة أجزاء مطبعة المنار .

(٣) الجزء الأول : ص ٢١ . دار المعارف رقم الايداع ٣٦٧١ بتاريخ

١٩٧٧ .

حين كان لهم وللمترك السلطان المطلق الذى ا
ثورة عرابى ، فكثيرا ماحدثنا اباؤنا واجد
وحدثتنا امهاتنا وجداتنا عن حكم اولئك النذ
كانوا يزدرون المصريين ويحقرونهم أشد الا
ويضربونهم بالسياط لسبب وبغير سبب . . و
ما يعبر عنه المثل العامى - آخر خدمة الغز
والغز هم الغزاة الأتراك والجراكسة ومن اليه
الخديو ممثلى هذا الماضى الذى زال بتولى
السلطة ، والغائبهم السخرة والكرباج فقد كان
من اهل الريف ، وكان ابناؤهم من أمثالنا يفتز
قيل لهم أن السلطان سيعود كما كان لصاحب
الشرعية ، وأن الغز سيتولون الأمر من جديد

ولم يكن الوفاق بين أبناء الأسرة العلوية على خير
مصدره هو الآخر التنافس على السلطة ، أو الظفر بالملاية
اغتيال عباس الأول صورة لما كان بينهم من تنافس ، يا
التناحر ، ويورى بالأحن ، وقد نرى صورة أخرى لهذا الذ
فى العصر الحديث ، وفى بواكير ثورة ١٩١٩ ، وقد ساء
الطبقة التركية منذ البداية الى تزعم الحركة الوطنية ، وقب
فكان سعى الأمير عمر طوسون ، لتكوين وفد يسعى لدى
الصلح مطالباً بحقوق مصر ، وبدأ خطوته الأولى فى هذا ا
وكان سعد ممن اتصل بهم الأمير وحدثه فى هذا الأمر وكتب
عنها فى - مفكرته - وقد قيل عنها فيما بعد أنها (مذكر
أنها فكرة جميلة قامت فى بعض الرءوس من قبل .

ولعل عمر طوسون فى سعيه ، لم يكن يفكر فى الاعتم
سواد الشعب وتأييدهم ، وكان ينظر الى المسألة من جانبها ا
فحسب ، فإن عمر طوسون مع ما كان منه من اهتمام بمج

مصر ، وما عرف عنه من اهتمام بالفلاحين في املاكه الواسعة ، كان تركيا صميما في قلبه وقالبه ، وكان من أمره ما سبقت الإشارة اليه في رأيه عن تجنيد المصريين - ولم تكن نظرتة الى المصريين لتختلف عن نظرة جده الكبير مؤسس الاسرة الحاكمة ، ولم يكن سعيه الا كسعى رشدى وعدلى وثروت والسلطان فؤاد نفسه لاستكمال ما يروونه حقا للاسرة المالكة في الحكم والاعتبار ، فنرى السلطان فؤاد يوافق على سفر رشدى وعدلى لمفاوضة الحكومة البريطانية في وضع مصر بعد الحرب ، ويأخذ ممثلو بريطانيا في القاهرة عليه موافقته مسبقا على سفر وزيريه قبل ان يتشاور في هذا مع دار المندوب السامي .

وكان سعى الأمير عمر طوسون لتغيير الوضع الذى فرضته الحماية البريطانية على البلاد من هذا القبيل ، وكانت محاولته لتأليف وفد من زعماء المصريين وسعيه الى سعد زغلول في داره - للمذاكرة في حالة مصر ، وما يجب ان يقدم اليها من الخدمة الآن - كسعى رشدى وعدلى اليه بتلك الفكرة ، ينشدان من غير الرسميين التأييد بعد ان واجهتها الحكومة البريطانية برفض سفرهما لهذه المطالب ، فهو سعى يتفقون فيه جميعا على الهدف والغاية ، بل ان السلطان حسين قبيل وفاته كان قد أمر رشدى باشا بكتابة مذكرة الى الحكومة البريطانية يطلب فيها حل القضية المصرية على وجه كفيل بالاستقرار ، والرضى من الأمة ، ثم مرض السلطان حسين وأدركته الوفاة قبل تبليغ هذه المذكرة ، فالذى يغلب على الظن ان السلطان فؤاد قد أرجأها الى الوقت المناسب ، واختار تحريكها قبل الهدنة ، فأوعز الى عدلى ورشدى باتباع الخطة التى تلائم الحوادث الأخيرة (٤) .

(٤) العقاد - عباس محمود : سعد زغلول : سيرة وتحية : ص ١٩٣ -

وحين رأى السلطان فؤاد سعى الأمير عمر طوسون ، لم يرض عنه ، فلا يريد أن يشاركه فيه آخر . وكان عمر طوسون قد اتخذ خطوة ايجابية فى هذا الصدد بالعمل على استقطاب سعد زغلول الى جانبه ، وجاءه معترضا على انفرادهم بهذا العمل وطلب اليهم - (أن يقام اجتماع عام يشترك فيه جميع ذوى الراى ، وهم الذين يقررون تأليف الوفد الذى يريدونه ، وخير الأمور أن تدعو الناس الى اجتماع يعقد بمنزلى بجزيرة بدران يوم ١٦ نوفمبر ، وان أقوم أنا بعمل الدعوة لهذا الغرض) .

وكان سعد - كما يقول العقاد(٥) - (يميل الى تقديمه فى هذا العمل ، لما له من المنزلة الرفيعة ، وما يحتاج اليه العمل من المال الكثير الا أن المعارضة فى رئاسة الأمير للوفد المطلوب كانت تقوى وتشدد فى جهات كثيرة ومنها القصر الملكى والوزارة ومنها أصحاب سعد جميعا بغير استثناء وكان أصحاب سعد يريدونها - كما قالوا - حركة شعب لا امارة وحركة استقلال لاخلافة) .

ولا نرى الا أن سعدا قد اخذ الأمير على هواه - وهو على ما عرف عنه من فطنة وذكاء ، حتى يتبين التيارات العديدة التى تنوش الموقف ، ومالبث أن تبينه حتى سار فى تكوين الوفد المصرى ، كما يجب أن يكون ، وما قوى اليه تفكير ، منذ البداية ، وحسم السلطان فؤاد الموقف بأن طلب الى الأمير عمر طوسون أن يلزم داره فأطاع ، ولم يعد له دور ما فى الحركة الوطنية ، وما كان السلطان فؤاد ليرضى أن يشاركه من أمراء البيت العلوى مايعلو عليه أو يحجب سيادته للأسرة بين المصريين وبين أمراء البيت المالك نفسه . وان خلف لنا من الكتب والمخطوطات ماينم عن نزعته فى امتهان المصريين كما كان جده الأعلى من قبل .

(٥) المصدر السابق ص ١٩٣ .

١/٢ - البداية

حين تولى المرحوم سعيد باشا ولاية مصر فى ١٤ شوال سنة ١٤٧٠ هجرية أصدر أمره بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى سلك العسكرية حيث كان طلبى والحاقي بالعسكرية فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١ هـ .

كانت تلك هى البداية ، ولعلها ضربة من ضربات القدر ، فلا اعتقد أنه فكر فى اقتحام هذا الميدان ، وما كان فى نشأته مايوحى باختياره هذا السبيل ، فقد بدأ تعليمه - ككل أبناء جيله ومن هم فى طبقته ، (فى المكتب الذى أنشأه والده ، وفى الجامع الأزهر ...) وقد تعلم فى ذلك المكتب كثير من أبناء بلدتنا حتى بلغ عدد المتعلمين فيها نحو نصفها (١) .

ومضى عرابى فى مذكراته هذه يعدد أسماء المتعلمين الذين بدأوا تعليمهم فى هذا المكتب ، ونالوا شهرة واسعة فى الحياة وبرزوا فى أعمالهم التى اختاروها ومنهم ، كما يقول :

(١) مذكرات عرابى : الجزء الأول كتاب الهلال ص ١١ .

« العالم الأزهرى واللغوى الشهير الشيخ محمد حسين الراوى والطبيب الغطاسى عبد الرحمن بك الهراوى ، والكيمياوى الشهير عبد العزيز باشا الهراوى ، وكان والدى قد أمر بترتيب درس فقه فى المسجد الذى جده للعامة ، بعد عصر كل يوم ، وبعد صلاة العشاء فتفقه عامة أهل البلد فى دينهم وصحت عبادتهم وحسن حالهم بفضل قيام المرحوم والدى على تعليم قومه وأهل بلده » (٢) .

ولم تكن مصر حينذاك ، ولا حتى قبيل ذلك ، قفرا من النابهين ممن ولجوا العديد من آفاق الفكر والأدب بل والتطلع الى مستقبل مرموق فى ميدان ميسر لخدمة المجتمع الذى نشأوا فى رحابه ، أو الدولة التى تدير أمور بلدهم الكبير ، وإن كان العمل فى الدولة أو بمعنى أدق فى الحكومة التى تديرها قد يكون أيسر سبيلا اذا مارس العون ، أو لقى التشجيع ممن يحكمون ومن بأيديهم الأمور ، كما كان على مبارك حين يتولى أمرا فيسوقه الى مايرى من منفعة وطنه ومواطنيه ، أو رفاعة الطهطاوى حين ينهض بأمر معين فيصوغه الصياغة التى تجدى فى ميدان يحيط بأطرافه ، كما كان شأنه فى مدرسة الألسن وفى ميدان الترجمة والتأليف .

ولا ننسى فى هذا المضمار ، عبد الله النديم (٣) ، فهو نمط متميز فى جيله وفى عصره - (فاذا كان يستحق الاعجاب من نبغ - والظروف له مواتية - من أسرة عريقة فى المجد أو الغنى أو الجاه ، ونحو ذلك مما ييسر للأبناء أن يتعلموا ، ثم يشقوا لهم طريق الحياة وطريق المجد ، فأولى بالاعجاب من ينبغ والظروف له معاكسة لا حسب ولا نسب ولا غنى ولا جاه ، بل ولا القوت الضرورى الذى يمكن الغنى من أن يجد له وقت فراغ يتقف فيه نفسه .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث : عبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٣ هـ = ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م) .

صر اذن قفرا من النابهين ، ولكنها فى الواقع كانت الصالح الذى يزن مصالح الشعب ، كما يزن مراميه ت تلك آفة مصر منذ وليت أمورها الأسرة العلوية نغنى بخيرها وتحرمه أبناءها ، وكان هذا ما أدركه أبى ، وكان وراء برمه بها ، وأن تعود مصر لأبنائها .
كم محمد سعيد باشا ، وحكم اسماعيل ، وقد ظفر - مابين حكم سعيد وحكم اسماعيل : فى رعاية مصر اكان من محمد على فى نظرتة لمصر والمصريين .
سماعيل من بعد ، بل كان حكم اسماعيل اشد مرارة حكم محمد على ، بل واكثر فسادا .

صور هذا الفساد الذى استشرى خلال حكم روى عن اسماعيل باشا صديق (المفتش) أيام كان ،يو اسماعيل وصاحب النفوذ الأكبر فى دولته ، انه ة سعرا يؤديه من يرغب فيها ، فكان على من يرغب ين أن يؤدى الى جيبه الخاص من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ ائف نظار الأقسام فكان رشوتها من ٥٠٠ الى ٧٥٠ بدنها الثروة من المصريين ما داموا يؤدون الجعل - من الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة - فرصة تلك الوظائف التى كانت حرما عليهم حتى كان بين هل القراءة والكتابة(٥) .

ما يعلل ازدياد نسبة المصريين فى وظائف المديرين ، سنة ١٨٦٩ ، وقت أن كان اسماعيل صديق فى أوج

أمين باشا سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا .
الجزء الثالث ص ١٤٥٢ .

سلطانه ، عنها فى أية سنة أخرى ، وخاصة بعد سنة ١٨٧٦ ، حين لقي مصرعه ، فقد كان اسماعيل صديق فى الأصل مصرياً وفلاحاً .
فأثر بنى جلدنه - كما قيل - بالمناصب وإن اقتضاهم الثمن ، فليس فى قرارة نفسه ما يحمله على جفوة أبناء جلدته أو التغصب للترك ، أو حتى لصاحب السلطان ، وكان عاملاً قوياً فى نمو تلك الطبقة من المصريين الذين برزوا فى عصر اسماعيل .

ولعل هذا - كما نعتقد - مما حمل الخديو اسماعيل على الغدر به بعد ذلك ، وما يروى فى هذا الصدد :

(أنه بعد انصراف كبار الموظفين من تشريفة عيد من الأعياد قال سمو الخديو : انى مسرور لمشاهدتى معظم المديرين من ذوى اللون الأسمر المصرى البحت) .

ومما يؤيد ذلك أن تلك الظاهرة قد اختفت فى السنوات الأخيرة من حكم اسماعيل ، وما كان اسماعيل صديق (المفتش) ليصل الى ما وصل اليه من جاه ونفوذ ، وهو الفلاح المصرى ، لولا صلة الطفولة التى ربطت بينه وبين الخديو اسماعيل ، فقد كان أخاً له فى الرضاع . ونشأ فى حاشيته ، وما كان الخديو ليفطن أنه سيخرج على الكيان الذى نشأ فى أحضانه ، وغاب عن الخديو أنه فى جشعه وفساده لم يخرج على ما كان عليه الخديو اسماعيل نفسه ، وحمل اسماعيل المفتش من آثام خديويه ، ما حمل ، فلم يرحمه المؤرخون ، وإن مضوا فى القسوة به ما مضوا فى اعلاء ذكر اسماعيل والتنويه بمآثره من مؤرخى الأسرة العلوية ، خشية منها أو تقرباً اليها .

وفى هذا الصدد ما كتبه أمين باشا سامى فى اسماعيل صديق ما نصه :

« وبذلك صار اسماعيل صديق باشا المعين فى الحقيقة
بكل مدير ووكيل مديرية ومحافظ ووكيل محافظة ومأمور
وناظر قسم ، وبذلك صار الكل محاسبيه يفعمون جيوبه
بالمال الذى يعصرونه من جسم الفلاح ليستبقوا لأنفسهم
رضاه عنهم » .

ويمضى أمين باشا سامى فى تعداد ما كان من ثروة اسماعيل
باشا المفتش - أو اسماعيل صديق - كما عرف ، بما يفوق الخيال ،
ويفوق (ما كان منها لدى أى أمير مصرى . . .) ولقد نفذ صبر الجميع
من استمرار ابتسام الدنيا كل ذلك الابتسام لمن كان ابن فلاح وصعلوك
الأصل (. .)

فإذا جاء الى ذكر جواريه يقول :

« وأما الجوارى فكن يزدن على سبعمئة جارية شركسية
بيضاء ذات ثمن يفوق كل تقدير ، وخمرية مسكرة ،
وسمراء غاتجة ، وحبشية شقراطية ذات أعين بقرية ،
وبرنزية موشومة ذات نهود سفرجلية وسودانية فحاء
متقدة الدم الهائج » .

وقد لا نرى فى هذا الوصف الا صورة للتخريف التاريخى ،
فلا أرى منه الا أكذوبة كبرى ، حتى ليعن لى أحيانا أن أدعوه -
أكذوبة عصره ، أو أكذوبة كل العصور ، فلا تحكم على الحدث
التاريخى الا بنتائجه وما يترتب عليه ، فإذا عدا ذلك أصبح مسألة
أو ملهاة تفتقد جهر الارتقاء والتقدم فى تاريخ الحضارة والتطور
الانسانى .

ولم يكن الغدر باسماعيل باشا صديق ، أو اسماعيل المفتش
- كما كان يدعى لما نسب اليه من سفه وتبذير - كما يدعى - أمين

باشا سامى ، فقد كان الخديو اسماعيل أكثر منه سفها وتبذيرا ، ولكنه خرج على سياسة اسماعيل الخديو حين نبذ سياسة سعيد ، وعاد الى سياسة جده الأعلى محمد على فى ايثاره الترك والجركس على المصريين ، واذا كان قد استعان ببعض المصريين فى المناصب الادارية - كما كان شأن محمد على ، فانه قد حال دون ترقياتهم فى السلك العسكرى بما لايدع لهم ثمة سلطان عليه ، كما حال بينهم وبين ملكية الاراضى وكانت أكثر (انعاميات) الاراضى للعناصر التركية فى الحاشية الخديوية وفى صفوف الجيش ، وكان هو نفسه شرها الى الارض فعمل على زيادة أملاكه منها حتى بلغت بعد سبعة عشر عاما من حكمه ٩٥٠ ألف فدان مقسمة الى ٥١ دائرة ، ولم يكن يملك فى بداية حكمه غير ١٥ ألف فدان شأنه فى ذلك شأن بقية الأمراء الآخرين وأباح حق التملك للأجانب ولم يكن للمصريين قبل بمنافسة الأجانب على حيازة الارض وتملكها ، لولا أن الأجانب كانوا أميل الى استثمار أموالهم فى غير الزراعة ، وحين سمح بحق التملك الكامل لبعض أنواع الاراضى كالعشور والأواسى - جمع وسية - كان ذلك تحت ضغط الحاجة الى المال ، فأصدر قانون المقايمة عام ١٨٧١ ، ويقضى بتحصيل ضرائب الأتبان لمدة ست سنوات مقدما وحتى يشجع الأهالى على الأداء أباح لهم الملكية الكاملة لهذه الأنواع من الاراضى .

ولعل سعيدا كان يصدر عن نية طيبة - كما يرى عرابى - عندما سمح بترقية الضباط والجنود من المصريين الى مراكز القيادة فى الجيش ، ففي ست سنوات (ما بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٦٠ ، تدرج عرابى فى السلك العسكرى من نقر مجند الى رتبة القائمقام (عقيد) ومثله فى هذا بطلا الثورة العرابية ، ورفيقاه فيها ، على باشا فهمى الديب ، وعبد العال باشا حلمى فقد تدرجا بدورهما من تحت السلاح الى أرقى المناصب العسكرية .

ولم يشجع اسماعيل هذه السنة التي استنها سعيد بترقية المصريين في السلك العسكرى ، فبقى أحمد عرابى فى رتبة القائم مقام (عقيد) تسعة عشر عاما ، ولم يرق الى الرتبة التالية الا فى عهد توفيق ، وكان شسفيعه فى هذه الترقية ، أن زوجه كانت أختا فى الرضاع للأميرة أمينة الهامى زوجة توفيق وبقيت عناصر الجركس هى الغالبة فى القيادات العليا مما كان سببا فى تحرك المصريين ضد التفرقة بينهم وبين زملائهم من الجركس والأرناؤود ، وكانت شرارة الثورة العسكرية التى تحولت الى ثورة قومية شعارها (مصر للمصريين) بزعامة أحمد عرابى الفلاح المصرى ، وكان حرص قادة الثورة من الضباط على الحاق صفة مصرى بأسمائهم للدلالة على هذا الاتجاه وتأكيده .

فإذا كان سعيد قد شذ عن تلك السياسة المقررة فى أسرة محمد على ، فقد اتهمه أفراد الأسرة بالغفلة والبله وما كان فيهم من يحبه أو يؤثره بمحمدة كالتى آثره عرابى بها .

ولم يكن غدر الخديو اسماعيل بأخيه فى الرضاع وصففيه وموضع تقديره وثقته اسماعيل باشا المفتش الا لأنه رآه قد حشد المناصب الهامة فى الدولة بمن يدفع الثمن من المصريين ، وتختفى تلك الظاهرة باختفائه فى مأساة أشبه بالملاحم المروعة ، فلا نرى بين المديرين عام ١٨٧٩ مصريا واحدا ، أو من يلى منصبا أثيرا الا من لاذ بكنف الحاكم . .

(ولأمراء فى أن اسماعيل - كما يقول الرافعى (٦) - كان يميز الضباط والرؤساء الشراكسة والترک على الوطنيين فى المعاملة

(٦) عبد الرحمن الرافعى بك : الزعيم أحمد عرابى - كتاب الهلال العدد ١٠ مارس ١٩٥٢ - جماد آخر ١٣٧١ ص ١٦ ويلاحظ أن كتابه هذا قد صدر فى أواخر عهد الملكية ، وقبل قيام الجيش بحركته فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

برغم ما بدا منهم من العجز والجهل وعدم الكفاية ، مما ظهر اثره جليا فى الهزائم التى حاقت بالجيش سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ فى حرب الحبشة ، وعلى ما كان لهذه الهزائم من أسوأ الأثر ، فان اسماعيل لم يحاسب أولئك القواد والضباط على ما وقع منهم من الاهمال والتقصير ، وقيل انه اعتزم محاكمة راقب باشا قائد هذه الحملة ، ولكنه مالبث أن رجع عن ذلك . . فكريه اليه وجعله من خاصية بطانته . . وهذا يدل على شديد ميله الى تلك الفئة ، فكانت لها الحظوة لديه ، ثم لدى الخديو توفيق ، ولو ظلت روح المساواة التى بثها سعيد فى الجيش سائدة فى عهد اسماعيل وتوفيق ، لما قامت الثورة العرابية ، لأن عرابى وصحبه لم يثوروا الا حين طفق الكيل من محاباة ، أمثال عثمان باشا رفقى للترك والشراركة ، واضطهادهم للضباط الوطنيين . فعرابى وصحبه كانوا على حق فى المرحلة الأولى من الثورة ، لأن الطبيعة البشرية مقطورة على كراهية الظلم والاضطهاد ، ومن صفات النفس الانسانية الثورة على المظالم ، ولم تكن المظالم التى يشكو منها الضباط الوطنيون مقصورة على حرمانهم حقوقهم فى الترقى ، بل كانوا كذلك هدفا لأشد ضروب العنف والارهاق ، ان كان يكفى أن تلصق بأحد منهم تهمة ما ، ولولم تكن صحيحة ، ليكون جزاؤه أن تنزع منه درجته أو يقصى عن منصبه ، أو ينفى الى أقاصى السودان وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهى الأسباب .

(فالثورة العرابية كانت ثورة دفاع عن الحق ، ودفاع عن الحياة ، وليس من ينكر ما كان عليه معظم الرؤساء الشراركة والترك والأرناؤود من الغلظة والغلطية ، والزهو والخيلاء والزراية بالوطنيين ، فان هذه النزعات كانت فاشية فيهم لا فى مصر وحدها بل فى سائر بلاد السلطنة العثمانية القديمة ، ان كان العرب يعانون سوء معاملة الترك لهم واضطهادهم أياهم ، وكانت هذه المعاملة من

أسباب قيام الفتن والثورات فى السلطنة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (٠٠

(ومادمننا فى صدد الأسباب المباشرة للثورة فلا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى ، كان فى مقدمة هاتيك الأسباب ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاية الأمور ، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة ، فهذه الجراءة كان لها اثر كبير فى ظهور الثورة ، ولو لم يظهر عرابى ، ولو لم تكن له تلك الشخصية التى اجتذبت اليه صفوف الضباط ، وبثت فيهم روح التضامن والاقدام ، لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر ، وفى ظروف وملابسات أخرى غير التى ظهرت فيها) .

وكانت الساحة فى مصر وفى غيرها من بلدان الدولة العثمانية قد أخذت تموج بشتى التيارات لعل أولاها بالتقوية والاعتبار ما كان من جولة جمال الدين الأفغانى ، وما حفل به العالم الاسلامى حينذاك من دعوات الاصلاح والتجديد كحركة محمد بن عبد الوهاب فى نجد ، والشوكانى فى اليمن ، والسنوسية ، وقد اختار السيد محمد بن على السنوسى برقة لتكون مقرا لدعوته وامارته ، وأقام زواياها بحيث يسهل الدفاع عنها .

وكانت حركة الاحياء الدينى فى القرن الثامن عشر خير تمهيد لليقظة الاسلامية فى القرن التاسع عشر ، وتمثلت اليقظة الاسلامية فى ناحيتين نهضة دينية ونهضة دنيوية ، وقد تمثل الناحيتين حكيم الاسلام وفيلسوفه الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، وحين نزع

(٧) عبد الرحمن الرافعى بك : عصر اسماعيل الحزء الثانى ص ١٦١
يعنوان : جمال الدين والثورة العرابية .

الى مصر واتخذها مقرا له عوته كان نبتة فيها أزلى نبت في بلد من بلاد الاسلام وكان من مريدبه وتلاميذه محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان ، واللقائي وابراهيم الهلباوى ، وكان لهؤلاء جميعا أثر مبارك في النهضة المصرية الحديثة الدينية والدنيوية .

وبقدر ما كان من حقارة توفيق بالأفغانى قبل أن يلى الحكم خلفا لاسماعيل ، بقدر ما كان من غدره به ، وابعاده عن مصر فى أسوأ صورة - أو على حد قول الرافعى (٧) : (كان نفيه غاية فى القسوة والغدر . اذ قبض عليه ليلة الأحد سادس رمضان سنة ١٢٩٦ - ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ - وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه - أبو تراب - وحجز فى الضبطية ، ولم يمكن حتى من أخذ ثيابه ، وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة الى محطة السكة الحديدية، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، وأنزل منها الى باخرة ، فى صبيحة الثلاثاء ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ - ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، أقلته الى الهند ، وسارت به الى بمباى ، ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمى من ادارة المطبوعات بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ ، ذكرت فيه نفي السيد بعبارات جارحة ، ملؤها الكذب والافتراء ، مما لا يجدر بحكومة تشعر بشيء من الكرامة والحياء أن تسف اليه ، فهى قد نسبت اليه السعى فى الأرض بالفساد ، ويعلم الله أنه لم يكن يسعى الا الى يقظة الأمة وتحريرها من ربة الذل والعبودية ، وذكرت عنه أنه - رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا - وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية ، ومن المؤلم حقاً أن يتقرر النفى ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا ، وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد ، ومن وزرائها محمود باشا سامى البارودى،

(٧) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ١٦١
بعنوان : جمال الدين والثورة العرابية .

ناظر الأوقاف وقتئذ ، وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره ، فتأمل كيف يتنكر الأنصار والأصدقاء لاستاذهم ، والى أى حد يضيع الوفاء بين الناس !! ولاندرى كيف أصاغ البارودى نفي السيد جمال الدين الأفغانى واشترك فى احتمال تبعته ، وإذا لم يكن موافقا على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة ، احتجاجا واستنكارا ؟ لاشك أن موقف البارودى فى هذه الحادثة لا يمكن تسويغه أو الدفاع عنه بأى حال . . . وأقام بحيدر آباد الدكن وهناك كتب رسالته فى الرد على الدهريين ، والزمته الحكومة البريطانية بالبقاء فى الهند حتى انقضى أمر الثورة العرابية) .

وقد يكون فى هذا الحكم الذى ساقه الرافعى بعض القسوة ، ولعل من التفاصيل ما غاب عنه ، فلا يعسر فى مثل هذا الحكومات المطلقة أن تخفى ما تلجأ اليه عن بعض المشاركين فيها ، فلا نرى أية إشارة لهذا منه أو ممن تناولوا سيرته ويبدو أن الأمر صدر من الخديو توفيق مباشرة دون موافقة مجلس الوزراء ، وحتى دون علمه ، وغالبا ما يعزف المسئولون عن قراءة ما تنشره الجرائد الرسمية ، وكان محمود سامى البارودى أول الضالعين فى ثورة عرابى ، أما فى ذلك التاريخ الذى نفى فيه جمال الدين الأفغانى وأبعد عن مصر لم تكن الحركة العرابية قد بدأت ، ولم يكن ثمة تجمع للضباط يوحى بالتمرد أو الخروج على سياسة الحكم وإن كان البرم به يوحى بما يمكن أن يحدث . . . وقد حدث فى وزارة نوبار (١٨ فبراير سنة ١٨٧٩) وفى أول يوم من ولايتها أنه قام (نحو ستمائة ضابط برئاسة البكباشى لطيف بك (باشا) أحد كبار أساتذة المدرسة الحربية - وصفه الرافعى -) بأنه ضابط اشتهر بالشجاعة والكفاءة واستقلال الفكر . . . فلما اقترب المتظاهرون من وزارة الخارجية لحوا نوبار باشا خارجا منها راكبا عربته ، فلم يكادوا يبصرونه حتى أحاطوا بالعربة من كل صوب . . . وهجموا على نوبار

وأمسكوا بتلابيبه وطرحوه أرضا واعتدوا عليه بالضرب ٠٠ واقتحم الضباط أبواب الوزارة واحتلوا غرفها وقاعاتها وحبسوا نوبار . ورياض والسير ريفري ويلسون فى إحدى غرف الدور الأعلى ، وصار الموظفون الأجانب الذين بالوزارة تحت رحمة الثوار) ٠

(فلما اشتدت الحال وتراعى نبأ ما حدث الى قناصل الدول ذهب قنصل انجلترا العام توا الى السراى حيث قابل الخديو وأنهى اليه نبأ الهيجان وطلب اليه التدخل ، فابتهج اسماعيل فى سريرة نفسه من هذا الطلب ، لأن فيه معنى الالتجاء الى سلطته ، لأنقاذ الوزارة وإعادة الأمن الى نصابه ٠٠ بإمر اسماعيل ٠٠ وذهب الى موطن الهياج ، فلما شاهده المتأظرون استشعروا الهيئة التى له فى النفوس ، فهتفوا له وأفسحوا له الطريق ٠٠ وسكنت ثائرة معظم الضباط ٠٠ وأطلق سراح الوزراء المحبوسين ، وأمر الخديو بحراستهم الى منازلهم ، وانتهت المظاهرة بسلام وعاد الخديو الى سراى عابدين) ٠

ويناقش الرافعى ماشاع من أن هذه المظاهرة من تدبير الخديو اسماعيل ، وينفيها رغم أن من قاموا بها لم يكن لهم أثر من بعد فى أحداث الثورة العسرابية ٠٠ ولعله فى تعاطفه مع القائم بها - البكباشى لطيف بك سليم ما يحمله على إبعاد أية شبهة عن تواطنه مع الخديو اسماعيل ، فهو - كما يقول - (من أكبر نصراء المرحوم مصطفى كامل باشا فى الحركة الوطنية الحديثة ، وهو والد صديقنا الوطنى الكبير فؤاد بك سليم) (٨) ٠

ويرى عرابى (٩) : (أن المظاهرة كانت من تدبير اسماعيل

(٨) الرافعى : عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ٢٠٣ وهامش نفس الصفحة ٠

(٩) مذكرات : الجزء الأول ص ٤٠ ٠

وصنعه ليتخلص من الوزارة النوبارية ٠٠ فأوعز الى جاهين باشا كنج - صنيعته المشهور - بخلق تلك الحركة الصببانية ، وهذا حمل صهر لطيف بك سليم الضابط بالمدرسة الحربية على أخذ التلاميذ والذهاب الى المالية بمن ينضم اليهم من الغوغاء ، فيصيحوا متظاهرين بالتظلم من عدم صرف مرتباتهم المتأخرة من عشرة أشهر ، وينسبوا ذلك التأخير الى الوزارة المذكورة ، ويطالبوا بسقوطها ٠٠

ولعل اسماعيل كان يدرك تماما ويعلم مسلك عرابى وصحبه منهم لما نالهم من جيف على يديه ، فابتدراها سانحة للبطش بهم ٠٠ وكان أن (طلبنا رئيس التشريعات عبد القادر باشا ، وأخبرنا بأن الخديو علم بأننا هيجنا التلاميذ والضباط وأغويناهم على الأحاطة بالمالية ، وأنه سيجرى تحقيق ذلك) .

ويبدو أن ادعاء اسماعيل قد وجد أننا صاغية ، لاسيما ، وأن تدبيرها كان باتفاق مباشر بين صنيعته جاهين باشا كنج ، وصهره لطيف بك سليم ، ولم يكن عرابى فى تلك الآونة بالقاهرة ، وقدم اليها اليوم السابق على وقوعها - (فكيف يتصور منصف - كما يقول عرابى - اننا نستطيع اهاجة تلاميذ الحربية ، وغيرهم على ذلك العمل الخارج عن حدود الحكمة والروية فى ليلة واحدة) .

ويقول عرابى : (لما تخلص الخديو اسماعيل من ضغط الوزارة المختلطة خشى تعصب أوربا عليه ، وانتقامها منه ، فأسند تلك الألعية الصببانية الى والى محمد بك النادى ، وعلى بك الروبى من أمراء الجيش ، وقد طلبنا رئيس التشريعات عبد القادر باشا حلمى وأخبرنا بأن الخديو علم بأننا هيجنا التلاميذ والضباط وأغويناهم على الاحاطة بالمالية وانه سيجرى تحقيق ذلك ، فان ثبتت ادانتنا عوقبنا

بالعقاب الواجب ، وكذلك طلبنا مأمور الضبطية محمود سامي باشا
البارودي ، وأخبرنا بما أخبرنا به عبد القادر باشا حلمي ، فأجبناه
بمثل ما أجبنا به من قبل ، وانصرفنا ، وقد آتست فيه تأففا من الظلم
الاستبداد وميلا مع العدل والدستور) •

ولعلها كانت المبادرة الأولى لاتجاه البارودي الى مناصرة
الثورة العراقية والوقوف الى جانبها ، فان الحركة العراقية لم تكن
قد أسفرت بعد عن اتجاهها القومي ، وان (مصر للمصريين) الا بعد
أن لمست تأييد الشعب ومناصرته ، مما سيأتي تفصيله فيما بعد •

١/٣ - عيود على بدء

« أيها الاخوان • انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى، من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض ، فقد توالى عليه دول ظالمة كثيرة كالهكسوس والأشوريين والفرس ، حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين ، والعباسيين والفاطميين من العرب والترك والأكراد ، والشركس ، وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بوناپرت ، وحيث أنى اعتبر نفسى مصريا ، فوجب على أن أربى هذا الشعب ، وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صالحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر الى العمل (١) »

(١) الجزء الأول ص ١٥ - كتاب الهلال المعداد ٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٢ - فبراير ١٩٥٣ •

كانت تلك هى الخطبة التى ألقاها محمد سعيد باشا - كما يقول عرابى فى مذكراته - فى مأدبة أدبها بقصر النيل للعلماء والرؤساء الروحانيين وأعضاء العائلة الحاكمة ، وأعظم رجال الحكومة ملكيين وعسكريين بعد تناول الطعام فى سرادق كبير .

(فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا ، وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام - مصر للمصريين -) .

ومحمد سعيد هو ابن محمد على الكبير ، الذى ولد فى مصر ، وكان مولده فى الاسكندرية عام ١٨٢٢ م - ١٢٣٧ هـ ، ولعل تفرد به بذلك من بين أبناء محمد على ما حبيبها اليه ، وكان موضع رعاية وحرص على تنشئته عقلا وبدنا فكان يرعى مأكله وملبسه وتعليمه وزيارته ، وكتب اليه مرة يقول ، وكان قد بلغ الرابعة عشر من سنه ، يقول : (قد وصل الى علمى نبا عدم التفاتك الى دروسك وميلك للراحة والرقاد ، وميلك لمصاحبة القبودانات القديمة الذين لا يدرون شيئا من الآداب ، وترك مجالسة من يكتسب منهم مسلك الانسانية ، وقد سبق ونبهنا عليك بدوام الانتباه للمدرس ، والسير بالمشى والحركة لعدم حصول السمن^(٢)) ، والواجب عليك الأتتلاف بمن لهم معرفة بالأصول الجديدة العارفين بالحاكم ، والوقت ، والاهتمام فى تعلم الأصول منهم حتى لا يقال أن ابن محمد على سىء الخلق ، وإن هذا السير ليس سير الآدائيين ، فلا تغير نشأتك الأصلية كما سبق النصيح لك ، وتعظم كبرائك والتزام التواضع مصداقا للحكم والأحسان ، وتسعى فيما يكون له علو شأنك ويمنه تعالى ،

(٢) السمن أى البدانة .

سأحضر الى الاسكندرية لامتحانك أمام أحد المدرسين ، فإذا ظهر
عدم الالتفات للمدرس ، وعدم ازالتك ثقل جسمك وعدم الاجتماع
على عادمي الأدب ، والاقتداء بفارس أفندي المدرس بالتطبع بأخلاقه
لاتصافه بحسنها ، وعدم تناول الطعام بالنسبة لاستنكافه ،
استعمال الشوكة والسكين لأنه صوفى ، فيلزم الاصغاء لهذه وترك
ما أنت عليه ، والميل والرغبة الى التواضع لتكون مقبولا عند والدك
وعند الناس فضلا عن علو شأنك) .

ولد محمد سعيد فى مصر ونشأ فيها ، وكانت الاسكندرية ملاذ
ورحابه وقيل أنه كان يالف الأطعمة الدسمة التى حرّمها عليه أبوه ،
وكان يجدها فى بيت صديقه - مانيمودى دى لسبس نائب القنصل
الفرنسى ، وأصبح دى لسبس من بعد صديق عمره فى الاسكندرية
وبباريس ، وكان لذلك أثره فى منحه امتياز شق قناة السويس ،
واستهل حكمه بتلك المأثرة التاريخية لا فى مصر وحدها بل فى العالم
أجمع حين أجاز وصل البحرين الأبيض والأحمر ، وكان فيه لمصر
ميزة كبرى أضاعها الخديو اسماعيل بسفاهه وتبذيره وفرض السخرة
على المصريين فى حفرها وان كان سعيد قد أهدى البشرية قناة
السويس الا أن ذلك كان على حساب مصر والشعب المصرى البائس ،
حين قام اسماعيل من بعد ببيع أسهم القناة الى انجلترا فى صفقة
خاسرة .

ولعل أمجد ما قام به سعيد اصدار « اللائحة السعيدية » فى
٥ أغسطس ١٨٥٨ التى أباحث الملكية الخاصة للأطيان وحصرية
التصرف فيها بالبيع والرهن ، وأعفت الفلاحين من المتأخرات التى
كانت عليهم وقدرت حينذاك بثمانمائة ألف من الجنيهات . فاقبل
المصريون على حيازة الأرض واقتنائها ، وبدأت تكون طبقة من كبار
الملاك ، وسرعان ما أخذت تنافس طبقة الذوات التركية ثراءها

وان قصرت عن أن تافسها الجاه والسلطان ، ولم تكن اللائحة السعيدية ، وما قررتة من حق الملكية الخاصة للفلاح هي وحدها العامل الأول في نشأة طبقة الأعيان المصريين فان الفلاح ظل في شك من نوايا الحكومة قبله فلم يقبل على حيازة الأرض اقبالا يوحى بنشأة طبقة مالكة من الفلاحين ، وصرح في العام التالي لاصدار اللائحة السعيدية لمن يرغب منهم في ترك أطيان من أطيانه للميرى وظل هذا التصريح ساريا حتى ألغى عام ١٨٦٥ ، فقد وقر في ذهن الفلاحين لكثرة ما نالهم من عنذ الحكم وعسفه وأحابيله التي يبتدعها لابتزاز الاموال ، أنه لا يصدر في أمر الا لمصلحته وحدها دون مصلحتهم ، ولكن الخطوات الأخرى التي خطاها سعيد لمصلحة المصريين ، وضعت بذرة قوية لنشأة تلك الطبقة الصميمة من الأعيان المصريين ، فقد عمل على أن يشرك المصريين في المناصب الادارية بنسبة الثلث منهم ، والثلثين من الأتراك ، وذلك في وظائف حكام الاخطاط ، ونظار الأقسام بعد أن كانت تلك المناصب كغيرها من المناصب الادارية الاخرى ووقفا على الاتراك وحدهم ، وبدأ بتنفيذ ذلك في مديرية الدقهلية ثم في باقى المديريات (٣) .

وجاء اسماعيل فهدم كل ما كان رأسا على عقب مما أدى الى الثورة العرابية في النهاية ، فلم يشجع المصريين على ملكية الأرض وكانت أكثر (انعاميات) الأراضي للعناصر التركية في الحاشية الخديوية وفي صفوف الجيش ، وكان هو نفسه شرها الى امتلاك الأرض فعمل على زيادة املاكه منها حتى بلغت بعد سبعة عشر عاما من حكمه ٩٥٠ ألف فدان مقسمة الى ٥١ دائرة ولم يكن يمتلك في بداية حكمه غير ١٥ ألف فدان ٠٠ وهي التي عرفت باسم

(٣) أمين سامى باشا : تقويم النيل ، المجلد الأول من الجزء الثالث
ص ١٨٩ .

(الدائرة السننية) ولم يجن اسماعيل فى النهاية غير قبض الربح فكانت النهاية ، حين استجاب الباب العالى للضغط الأوربى (انجلترا وفرنسا) وكانت برقيته الى اسماعيل فى السادس والعشرين من شهر يونيو تعلقه فيه بخلعه وتولية ابنه محمد توفيق باشا(٤) .

وكان نص البرقية ، كما يلى :

(ان الصعوبات الداخلية والخارجية التى وقعت أخيرا فى مصر قد بلغت من خطورة الشأن حدا يؤدى استمراره الى ايجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطة العثمانية ، ولما كان الباب العالى يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضى به الفرمان الذى خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم فى الحكم يزيد المصاعب الحالية فقد أصدر جلالة السلطان ارادته بناء على قرار مجلس الوزراء ، باسناد منصب الخديوية فى مصر الى صاحب السمو توفيق باشا ، وأرسلت الادارة السننية تلغراف آخر الى سموه بتنصيبه خديويا لمصر ، وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة الى التخلّى عن حكم مصر احتراما للفرمان السلطانى) .

(وفى يوم الاثنين ٣٠ يونيو غادر اسماعيل باشا أرض مصر على ظهر الباخرة المحروسة - وهى الباخرة التى غادر مصر على ظهرها الملك فاروق آخر ملوك أسرة محمد على فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ - (٥) . وتحتوى كتب التاريخ الكثير من التفاصيل عن هذه

(٤) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر : الفصل التاسع عشر - عهد الخديو اسماعيل . . أو عهد المتناقضات ص ١٠٥٠ .
(٥) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠٥٠ .

الأيام الأخيرة لحكم اسماعيل ، والأموال والمجوهرات التي اصطحبها معه عند سفره ، وكيفية وداعه لابنه ووصاياہ له) .

ويعلق طيب الذكر والأثر الأستاذ أحمد حسين على ما كان بقوله :

(وقد كنا نحب أن نقول كلمة عطف أو انصاف للخديو اسماعيل ، كما فعلنا مع سعيد باشا ، كنا نحب أن نقف أمام مشروعاته لزيادة أراضى مصر الزراعية كل هذه الزيادة وإنشائه المصانع وقفة اكبار ، ولكن يحسب بيننا وبين ذلك أن اسماعيل كجده محمد على باشا من قبل قد فعل كل ذلك باعتباره يعمل فى مزرعته الخاصة ولم ينظر الى الشعب المصرى ، الا باعتباره قطيعا يعمل لخدمة أغراضه . . . وعندما كان اسماعيل يغادر البلاد لم تكن وصيته لابنه توفيق - اذا صح ما نقل لنا عنها - وصية حاكم لحاكم يخلفه فى الحكم فيطلب منه البر بالشعب والأمة ، بل وصية رجل يترك ضيعة لابنه ويطلب منه البر بأخوته وأفراد أسرته حيث قال :

لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديو مصر ، فأوصيك بأخوتك وسائر الآل برا ، وأعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك بعض الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى نوى شورك وكن أسعد من أبيك) .

(وحتى لو فرضنا - كما يقول الأستاذ أحمد حسين فى تعليقه - أن هذه الوصية ليست صحيحة بهذا الوجه ، يبقى اسراف

اسماعيل على شهواته وملذاته وقصوره وحفلاته وبيعه لهم قناة السويس ، واغراقه مصر في الديون ليلقى ظلا كثيبا على انجازاته الأخرى . . . الا أننا لا نستطيع أن نقول كلمة عطف على اسماعيل كتلك التي قلناها عن سعيد باشا الذي أحب مصر وأحب الشعب المصرى وبذل كل جهده لاسعاد الفلاح المصرى والارتقاء به) .

ويعرض عرابى بدوره لخلع اسماعيل ورحيله عن مصر (حيث أقلته الباخرة المحروسة الى - نابولى بايطاليا - ويضيف - وكانت معه أوراق مالية - بون - بمبلغ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات ، كما صرح بذلك ابنه الخديو توفيق بحضورى وحضور خيرى باشا رئيس الديوان الخديو ، والشيخ عبد الرحمن الأبيارى أمام المعية فى أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ . اذ قال :

- ياليتته ترك للحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها -

(ولما وصل الخديو اسماعيل المعزول الى محطة مصر ، وقف توفيق مودعا والده وعيناه مغرورقتان ، فعانقه والده ثم قال له : (ويكرر ماجاء من قبل مما دونه الأستاذ أحمد حسين) ويضيف : (ثم سار القطار الخصوصى حتى وصل الى الاسكندرية ، ثم ركب الزورق المعد له وتبعته زوارق المشيعين الى أن صعد فوق السفينة المحروسة ، وهنا نظر الى الثغر نظرة المودع الأسف فغلبه الدمع فبكى وأبكى كل من كان معه من أنجاله وآل بيته) .

ومما يجب أن أقوله فى صدد رحيل الملك فاروق حين عزله - بحكم صلاتى بالثورة ، أو حركة الجيش - كما أحب أن أدعوها - حينذاك ، أن الملك رغب أن يصحب معه تابعه - بوللى - فلم يسمح له . وكان بوللى هو الذى يقوم بتهريب أمواله الى بنوك سويسرا ،

ويودعها باسمه في حساب سرى - فلما نزل الى ايطاليا ، كما نزل
جده من قبل ، لم يكن يملك ما يكفل له حياة طيبة . فكان الملك سعود
ابن عبد العزيز عاهل السعودية حينذاك يمدّه بما يكفيه ، حتى انقطع
هذا المورد بوفاته ، ولما توفي الملك فاروق لم يجد أبناؤه وأحفاده
ما يقيم أودهم غير العمل ، وكانوا يعيشون حينذاك في فرنسا .

ويلي توفيق الحكم ، ولم يعد كما عرف قبل أن يلي الحكم ،
وقادته سياسته الخرفاء الى الثورة عليه ، والغضب منه شعبية قبل
أن تكون عسكرية حتى أخذ عرابي بزمام الموقف ، والتف الشعب
حوله فضلا عن الجيش وكانت الثورة العرابية .

— ببللة وبلبال —

تمر مصر بمثل تلك الحيرة التي نشأت على يد توفيق ،
نفسه مثالا للتناقض بين ما كان منه من قبل ، وما انحدر
منه ، ولعله لم يكن يأمل أو يجول بخاطره أن يخلف اسماعيل
مصر ، ولعل اسماعيل نفسه لم يكن مما يدور في خاطره
توفيق ، فقد كان توفيق أبنا لجارية ، لم تنل من اسماعيل
قصيرة ولم تكن له زوجا . كما يقول الدكتور هيكل في
(١) (ولم يكن اسماعيل يومئذ وارثا لعرش سعيد ، إذ
أكبر الأسرة ما يزال حيا . لذلك لم يلفت مولد توفيق نظر
الملك من زراية أميرات العائلة الماكة لأمه ، فلما حصل
على فرمان وراثة العرش للمولد الأكبر ، انقلبت الزراية
على الابن ، وشارك اسماعيل أهله في عدم عطفهم
عليه ، وثبت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته إياه في
الآن أن يكون عرشه لحسين من بعده ، وكان يستطيع ذلك

دكتور محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية - الخديو توفيق
٧٦ وقد ولد الخديو توفيق في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ ، وكانت
عيل سنة ١٨٦٣ ، بعد مولد توفيق بسنوات .

اعتمادا على أمومة توفيق ، أو بالتخلص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر في تركيا ، لكنه لم يكن يتعجل النظر في أمر لم يكن في حسبانهِ وقوعه قبل زمن طويل ، وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه في قصر له مقتصر على إدارة أراضيه) .

ولعل توفيق ، حتى بعد عزل أبيه اسماعيل ، لم يدر في خاطره أن يخلفه ، وكان يعلن أنه (مقيد اليد في العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه) (٢) ، وحين فوجئ بالخبر وفزع له - كما يقول الدكتور هيكل في ترجمته له - (حتى لقد قابل موظف قصره الذي أبلغه اليه أسوأ مقابلة بأن صفعه ، فانه شعر منذ ذلك الحين بأن التركية التي آلت اليه أعباؤها تركة مبهظة مخوفة ، ترى ماذا عساه يصنع بأزاء أبيه ، وبأزاء تركيا ، وبأزاء الدول وتدخلها في شئون مصر ، وبأزاء الأمة المصرية المتوثبة للحركة بل للثورة ؟) .

لقد أراد أن يبرز ولاءه لأبيه ، وكان يدرك جفوته له ، فتنازل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية كي تبلغ مرتبات أبيه خمسين ألف جنيه ، وحين رفعت اليه مرتبات البيت الخديو أمر بإلغاء الراتب المعين لوالدته وزوجه وقدرها خمسة وخمسون ألف جنيه ، تقريبا منه للأمة وأنه يشاركها متاعبها المالية .

ولعل اسماعيل ، وقد رأى الأمر يخرج على ارادته ، وأن توفيق قد أصبح خديو على غير ما يرغب ، قد رأى أن يستقطبه الى جانبه والولاء لأسرته وأبدى له من العطف ما لم يحظ به من قبل . (وفي الأيام التي انقضت ما بين تبوء توفيق عرش أبيه وسفر اسماعيل - كما يقول الدكتور هيكل (٣) - من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف

(٢) من حديث له مع مكاتب التيمس .

(٣) تراجم مصرية وغربية : الخديو توفيق باشا ص ٧١ .

وة والبنوة بينهما كخير ما يمكن أن تكون في مثل هذا الظرف
صيب () .

ولعل هذا ما يفسر موقف توفيق قبل أن يلي منصب الخديوية ،
بقفه بعد أن وليه ، فمن قبل نراه ضالعا مع الأفغانى فى محافل
سياسية ، وقد عمل على الدعوة له بين أصحابه وأتباعه من
سوريين . حتى أنه ذهب ومعه سليم نقاش - كمترجم - الى
صل الفرنسى ، وأعلن له تأييده لسياسة بلاده الرامية الى خلع
إسماعيل ، وطالبه بالتدخل من أجل تحقيق هذا الهدف ، وتولية
يحيى ، ونشرت جريدة - مصر - الموضوع على صفحاتها الأولى فى
يونيو ١٨٧٩ بعد تنازل الخديو لابنه بالفعل ، وهنأت ما سمته
الحزب الوطنى الحر وأبناء مصر الفتاة - بالخديو الجديد .
ست هذه التسمية الا مجازا يجمع بين حلقتين تحرك فيهما
نغانى (٤) .

« وقد وصل الأمر بجمال الدين الأفغانى الى حد التحريض على
ح اسماعيل باشا واغتياله ، فيقول لنا الشيخ محمد عبده :
ن الشيخ جمال الدين الأفغانى موافقا على الخلع واقترح على أنا
أقتل اسماعيل باشا ، وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر
بر النيل ، ولكن كل هذا كان كلاما كنا نتهامسه فيما بيننا ، وكنت
موافق كل الموافقة على قتل اسماعيل ، ولكن كان ينقصنا من
يدنا فى هذه الحركة ، ولو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت ، فربما

(٤) د . على شلش : مصر الفتاة : جمعية سياسية ووثيقة الصلاحية
١٨ ص ٢٣ .

كان فى امكاننا أن ننظم الحركة معه لأن قتل اسماعيل حينذاك كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله ، وكان يمنع تدخل أوربا» (٥) .

وكان ما كان من توفيق حين آل اليه الحكم ومنصب الخديوية وانقلابه على من كانوا أصدقاء الأمس ، وما كان من نفي جمال الدين الأفغانى بتلك الصورة المهينة وحماسة توفيق ، الا أن الصورة العامة التى غدت عليها مصر مما أدى الى قيام الثورة العرابية كانت أبعد من ذلك أثرا ، حين ناشئها الأحداث بين متناقضات عديدة أدت الى تلك النهاية الأليمة التى انتهت بالاحتلال البريطانى لمصر . وبداية حقبة جديدة من تاريخ مصر الحافل . تواكبت فيها الأحداث جميعا . لتنتهى بها الى ثورة ١٩١٩ فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وبداية صفحة جديدة من تاريخ مصر المعاصر فاذا كان الأفغانى قد نفخ فيها من روحه وتعاليمه ، فأن بدايتها تتردد الى أبعد من ذلك حين جاء رفاعة رافع الطهطاوى ، ومن بعده على مبارك ، ومحمد قدرى باشا ، وقاسم أمين وأديب اسحاق ، وسليم نقاش مدير جريدتى مصر والتجارة الى جانب ما كان من تعاليم رفاعة الطهطاوى وجهود على مبارك فى خدمة مصر ، وجأشت مصر فى تلك الفترة التى سبقت الثورة العرابية بكل ما يمهدها ويبعث بالشرارة التى أشعلت أوتارها ، على عهد توفيق .

وشاء القدر - أن يكون قدوم جمال الدين الأفغانى الى مصر ، فى تلك الفترة العسيرة من تاريخها الحافل ، وقد شهد سفاهات اسماعيل ، واستبداده وزيفه وولعه بالمظهرية الكاذبة ، فبقدر ما كان من نزعتة الاستبدادية ، بقدر ما كان من ادعائه للشورى والحكم

(٥) موسوعة تاريخ مصر : الفصل التاسع عشر ص ١٠٤٣ للاستاذ أحمد حسين نقلا عن التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر لألفرد بلنت .

الدستورى ، وكان فى واقعه صورة حافلة بالمتناقضات التى لايتصورها قصاص مولع بالأساطير (وكانت أيام حكمه - كما يقول الدكتور هيكل(٦) - أسطورة لايسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم ، كان اسماعيل ساحرا أعظم السحر ، ذكيا أشد الذكاء ، وسيم الطلعة حاد النظرة ماضى العزيمة جذابا لكل من اتصل به ، وكان مع ذلك قصير النظر شرها فى كل مطامعه وشهواته ، مغامرا فى سبيلها مجازفا مجازفة لايهون منها أى حذر ، وكان فيه من دم محمد على اقدام لايعرف التردد ويطش لاهوادة فيه وقسوة لايتسرب اليها أمل فى رحمة . . ثم أنه كان مولعا أشد ولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية ، وان غاب عنه الجانب المعنوى منها وهو الجانب الذى يحركها ويمدها بكل مافيه من قوة . لذلك سخر ذكاءه واقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الأوربية ، وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر ، ان لم يكن أبهى منه وأزهر ، وليقول عن مصر أنها أصبحت قطعة من أوربا ، وفى سبيل ذلك أنشأ كثيرا وخرب كثيرا وأثقل كاهل مصر بدين ماتزال تنوء الى اليوم به ، وماتزال تحتل بسببه نقصا فى سيادتها وذبولا فى استقلالها وعزتها) .

ولقى جمال الدين الافغانى من حفاوة اسماعيل ما أثار حيرة المؤرخين ، فكيف يتسنى لعاهل مستبد أن يستضيف داعيا من دعاة الحرية ، بل لعله أعظم دعاة الحرية فى عصره ، الا أن يكون بعض ما عرف عن اسماعيل من تناقض فى سلوكه وأفكاره ، يفسره أحمد حسين صاحب موسوعة - تاريخ مصر ، بقوله : (ان المستبدين والطغاة فى كل زمان ومكان قد وجدوا من مقومات الزينة والترف أن يعيش فى ظلهم أعلام الكتاب والمفكرين والمؤلفين دون أن يطوف لهم

(٦) تراجم مصرية وغربية : الخديو الأول اسماعيل باشا ص ٠ ص

خيال أن سيكون لهذه الأقوال الحرة التي تخرج من أفواه هؤلاء الكتاب يمكن أن يكون لها أدنى أثر في تغيير الأوضاع . . يرى بعض المؤرخين أن اسماعيل باشا قد رأى في رعايته للسيد جمال الدين الأفغانى الذى نفته عنها اسطنبول مظهرا لاستقلالهم عن تركيا والاعلان عنه باعتباره أميرا شرقيا متحررا يلجأ اليه المفكرون الأحرار . . كيفما كان الأمر ، فقد استقر جمال الدين الأفغانى برعاية اسماعيل باشا فى مصر ، وبدأت بذلك هذه المدرسة التى فرضت طابعها على أحداث مصر الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية لعشرات من السنين) .

(ويقول عبد الرحمن الرافعى أن جمال الدين هو أب الثورة العرابية ، أما نحن فنضيف الى ذلك أن أثره ظل يؤثر على مجريات الأحداث المصرية حتى قيام ثورة سنة ١٩١٩ ، مادام أن سعد زغلول نفسه زعيم هذه الثورة من ثلامذة الأفغانى (٧) . ويصف الأستاذ أحمد أمين - حال مصر حينذاك ، فيقول (٨) :

(كانت هذه السنون الثمانى من أشق السنين على مصر ، إذ كان حالها حال أسرة يأتيتها رزقا رغدا من كل مكان ، فلم تكثف بدخلها الذى يسد حاجتها ، فاستدانت لرفاهيتها ، حتى اذا بلغت الغاية فى الدين أخذ الدائنون يحجرون عليها ، ويتدخلون فى شئونها ، ويشرفون على مصادرها ومواردها ، ولا يتركون لها شيئا من حرية التصرف ، فإذا الأسرة بأئسة بعد نعيم ، وشقية بعد سعادة ، وإذا هى مغلولة الأيدى والأرجل والأعناق

(٧) ص ١٠٢٥ .

(٨) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث : السيد جمال الدين الافغانى ص ٦٢ .

تحاول الخلاص فلا تجده ، وتتلمس الطريق الى الحرية
فلا تهتدى اليه) *

وأيا كان ترحيب اسماعيل بالأفغانى ، وأنه أجرى عليه معاشا
شهريا قدره ألف قرش فان الأفغانى ، كان نبت ذاته وعقيدته ، فلم
تغره تلك الحفاوة ، ورأى فى اسماعيل حاكما مستبدا ، حتى وصل
به الأمر - كما قلنا - الى التفكير فى خلع اسماعيل ، بل والتفكير
فى اغتياله ، كما جاء على لسان الشيخ محمد عبده ، مما سبقت
الإشارة اليه . وكان البذر الذى أفرز فيما بعد - الثورة العرابية -

ولعل اسماعيل بسياسته العشوائية ومظاهرتة الناقلة للشورى
والحياة الدستورية الصورية . قد وضع البذرة الأولى للثورة
العرابية ، حين بدأت ملامحها فيما نال أعضاء مجلس الشورى
النواب من غضب على سياسة الوزارة .

وقد صدر القانون بإنشاء مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ ،
وسن الخديو اسماعيل نظامه فى لائحتين عرفت الأولى باللائحة
الأساسية ، من ثمانى عشرة مادة تتناول اختصاصاته ، وطريقة
انتخابه ، وتحديد اجتماعاته ، والثانية اللائحة النظامية - نظامنامه -
من احدى وستين مادة ، كلائحة داخلية للمجلس . .

ويتكون المجلس من خمسة وسبعين عضوا يجرى انتخابهم
لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم عمد ومشايخ المديریات ، والأعيان
فى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، ثلاثة نواب عن القاهرة واثنان
عن الاسكندرية وواحد عن دمياط ويتم انتخاب نواب المديریات وفقا
لتعدادها فينتخب واحد أو اثنان عن كل قسم من أقسام المديرية .

ويشترط فى المرشح أن يكون مصريا ، ومن المتصفين - بالمرشد
والكمال - ولا تقل سنه عن خمس وعشرين سنة ، وأن لا يكون ممن

صدرت ضدهم أحكام جنائية - بالليمان أو من المحكوم عليهم بالافلاس أو الطرد من وظائف الحكومة بحكم ، وأن يكون ملما بالقراءة والكتابة ، ولم يكن هذا مما يشترط في الانتخابات السابقة وبدأ تطبيقه في الدورة السابعة أى بعد مضي ثمانى عشرة سنة من قيامه ، وفي الدورة الانتخابية الحادية عشرة ، اشترط في الناخب أن يكون ملما بالقراءة والكتابة - أى بعد ثلاثين سنة على الانتخاب الأول - كما يقول الرافعى (٩) - وعلة ذلك - كما يقول - انها المدة الكافية للامام بالقراءة والكتابة بعد انتشار التعليم .

ويختار الخديو رئيس مجلس الشورى ووكيله ، دون الرجوع الى رأى الأعضاء ومما نصت عليه اللائحة توقيع عقوبة على العضو الذى يتخلف عن حضور الجلسات دون اذن . ويتمتع بنوع من الحصانة النيابية خلال الدورة ، مالم يرتكب جريمة القتل ، وليس للعضو أن يتكلم الا اذا طلب الكلمة وأذن له الرئيس .

ولم يكن المجلس على صورته التى أنشئ عليها أكثر من هيئة استشارية يعوزها القرار النافذ ، وقد تم افتتاحه فى القلعة يوم الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٦٦ (١٧ رجب سنة ١٢٨٣) برئاسة اسماعيل باشا راغب ، وحضر الخديو حفل الافتتاح وبصحبه رجال حكومته وعلى رأسهم شريف باشا ، الوزير المشهور وكان له دوره البارز فى تاريخ مصر خلال الفترة التالية من حكم اسماعيل . وألقى اسماعيل - مقالة الافتتاح - كما كانت تدعى قبل أن نعرف باسم - خطبة العرش - ومما جاء فيها بعد أن أطنب فى مآثر جده المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية من آثار العمار ، ووجد أهلها مسلوبى الأمن والراحة فصرف الهمم العالية لتأمين الأهالى وتمدين البلاد . .

(٩) عصر اسماعيل الجزء الثانى - الفصل الثانى عشر ص ٩٣ .

ومما جاء فيها : (لأنه من القضايا المسلم بها التي لا ينكر نفعها ومزاياها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والرعية ، كما هو مرعى فى أكثر الجهات ، ويكفيها كون الشارع حث عليه بقوله تعالى : - وشاورهم فى الأمر - ويقول له تعالى : - وأمرهم شورى بينهم) .

ويعلق الأستاذ أحمد حسين فى موسوعته التاريخية : (وكان اسماعيل باشا وهو يلقي خطابه نموذجاً كاملاً لنفاق الحكام المستبدين حيث يقولون بألسنتهم ، ما يخالفونه بأفعالهم ، فلم يطف بخيال اسماعيل باشا أن يقيد سلطته ولو قيد شعرة بقيام هذا المجلس (١٠) .

الا أن هذا المجلس الذى أقامه اسماعيل صورة زائفة للديمقراطية كان له دوره - فيما بعد - حين مست الحاجة اليه ، وكان ذلك بوحي من اسماعيل نفسه (فإن الموظفين - كما يقول الدكتور هيكل (١١) - والضباط من الشـركس والأتراك والأرمن وغيرهم - ممن كان بيدهم الأمر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب - شعروا بفشلهم وبعجزهم اذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة . وقد طلب ريفرس ويلسون الى الحكومة أن تعلن أن مصر مفلسة . . . هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبرائها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديو برنامجاً مالياً يخالف برنامج ويلسون محتجين على القول بافلاس مصر ، ولم تكن يد اسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج) .

الا أن يد مصر والمصريين لم تكن - كما نعتقد - بعيدة عن هذا الواقع منذ البداية ، ففي أول اجتماع لمجلس الشورى عام ١٨٦٦ ،

(١٠) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠١٥ .

(١١) تراجم مصرية وغربية : الخديو الأول اسماعيل باشا ص ٦٨ - ٦٩ .

قام - اتربى بك أبو العز - أحد نواب الغربية يقترح تعميم التعليم
الشعبى بإنشاء مدرسة ابتدائية فى كل مديرية ، ولقى الاقتراح تأييد
النواب ، مما حمل اسماعيل - كما يعتقد - الى وقف أطياف تفتيش
الوادى على المدارس ، وأعلن شريف باشا باسم الحكومة هذا الأمر
على النواب (١٢) .

وكان اسماعيل منذ توليته قد أخذ فى إحياء المدارس القديمة
وإنشاء غيرها على غير سياسة مرسومة حتى كان اقتراح اتربى
أبو العز ، فكان بداية فى وضع سياسة مرسومة للتعليم هى التى
قام بها على مبارك ، وهى التى قرنت اسمه بالنهضة التعليمية ،
واستحق من أجلها أن يلقب - بأبى التعليم - .

ولم يفكر اسماعيل حين أنشأ مجلس شورى النواب فى أن
يشرك المصريين فى الحكم ، ولم يكن يرمى الى تطبيق النظام
الدستورى فى مصر ، ولعله (لم يخطر بباله أن مثل هذا العمل قد
يؤدى الى اظهار طبقة ظلت بعيدة عن المشاركة فى شئون البلاد ،
أو يقودها الى التقدم والبروز فى ميدان الحياة العامة كان لها أبعد
الأثر فى اتجاهات الثورة العرابية ، كما لعبت الدور الأول فى
سياسة البلاد بعد ذلك ، وهى التى ظفرت للبلاد بدستور ١٨٧٩
مقرا مبدأ المسئولية الوزارية ، وإقرار الميزانية والقوانين
العامة) (١٣) .

الا أن هذه الطبقة الجديدة التى أفرزها مجلس الشورى لم
يبد لها من أثر حين (أنقضت - سنتا ١٨٧٤ و ١٨٧٥ ، دون أن يدعى

(١٢) المؤلف : على مبارك : أبو التعليم ص ٩٠ - الطبعة الثانية ،
وهى كالطبعة الأولى دون تغيير .

(١٣) المؤلف : أحمد لطفى السيد استاذ الجيل ص ٣٦ - ٣٨ .

مجلس شورى النواب للاجتماع ، أو تجرى انتخابات جديدة بعد انقضاء مدة الهيئة النيابية الثانية) .

ويعلق الرافعى على ذلك بقوله :

(ولا ندرى العلة فى تعطيل الحياة النيابية طول هذه المدة ، ولا نجد لذلك تعليلا - من وجهة نظر الحكومة - الا الارتباك المالى الذى وقعت الحكومة فيه على أن هذا الارتباك كان أذى الى عقد المجلس للتشاور مع النواب فى الوسائل الكفيلة بانقاذ البلاد من هذا الارتباك ، ولكن الحكومة فى تصرفاتها المالية والسياسية كانت تأبى أن تشرك نواب الأمة فى أرائها وقراراتها ، بل تضمن عليهم بالاطلاع على حقائق الحالة المالية) (١٤) .

ويمضى الرافعى فى تعليقه ، قائلا :

ويبدو لنا غريبا أن نواب البلاد وأعيانها وذوى الرأى فيها يسكتون عن تعطيل الحياة النيابية سنتين متواليتين دون أن يتحركوا للمطالبة بعقد المجلس احتراماً لأحكام اللائحة الأساسية وخاصة لما وقع فى هذه المدة من تتابع الأحداث المالية بعد فسخ الدورة النيابية الأخيرة (مارس سنة ١٨٧٣) .

وبينما يسكت النواب عن تعطيل الحياة النيابية ، نراهم فى دور الانعقاد الأول للهيئة النيابية الثالثة (نوفمبر سنة ١٨٧٦ - مايو

(١٤) عصر اسماعيل : الجزء الثانى ص ١٤٤ بعنوان - ايقاف الحياة النيابية سنتين .

(١٨٧٧) يتخذون موقفا مخالفا ، حين يتخذون موقف المعارضة .
مما يحمل - أحمد حسين في موسوته التاريخية ، على القول :

(ولسنا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق هل انتابت
اسماعيل باشا نوبة من يقظة الضمير فأراد أن يتطهر
من أدران الماضي ويعلى سلطان الأمة في وجه الأوربيين
أم انه شأن أي حاكم مستبد رأى في هذه الحركة الوطنية
الجديدة ما يعيد إليه سلطانه المفقود الذي حرمه منه
الأجانب) •

ويعنى في حكمه التاريخي ، قائلا :

(الا أننا لا نستطيع أن نقول كلمة عطف على اسماعيل
كذلك التي قلناها عن سعيد باشا الذي أحب مصر
وأحب الشعب المصري ، وبذل كل جهده لاسعاد الفلاح
المصري والارتقاء به) •

ويبدو أن ما كان من معارضة ندت عن الهيئة النيابية الثالثة
كانت برضاء الخديو اسماعيل ، ولعلها كانت من تدبيره لتكون سندا
له أمام تدخل الدول ، وتأييدا له قبل السلطان العثماني •

ويرى الدكتور هيكل (١٥) (أن الدول قد سئمت هذا الصراع
الطويل مع اسماعيل ، ولعلها كذلك قد خشيت بعد انضمامه للأمة
واظهار العطف كل العطف على مطالبها ، أن تقوى الحركة القومية
المصرية وأن يصبح اسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة
سلطان ، لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش ، لكن

(١٥) تراجم مصرية وغربية : الخديو الأول اسماعيل باشا ص ٧٠ •

اسماعيل لم ينظر الى المسألة هذه النظرة وأراد أن يلجأ الى جلاله سلطان تركيا آملاً أن يكون لما قدمه له من طائل الأموال وعظيم التضحيات بعض الأثر ، وهنا خاب قأله . فقد بعث الباب العالي في ٢٦ يونيو تلغرافاً بعزل اسماعيل عن العرش وبرقع ولده توفيق مكانه . . . وقال ذلك من نفس اسماعيل ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العراقية في مصر ، هنالك حزن الألم في نفسه ، وأنكر انه لم يفكر في مقاومة كالتى قاومها اليوم هؤلاء المصريون الأبطال، ولو أنه قاوم فربما كان له من الاقدار عون يستبقى نجمه عالياً .

٥/١ - اسماعيل والثورة العرابية

لا نغالى اذا قلنا أن اسماعيل خديو مصر الأول هو الذى غرس بذرة الثورة العرابية ، أو الثورة بوجه عام ، فقد جاء عرابى فى الوقت الذى جاشت فيه الأفكار بالضيق والألم والشكوى المريعة من الظلم فكان هو المعبر عنها ، والداعى الى التحرر منها .

وبقدر ما كان سقه اسماعيل واستبداده وتعصبه لأرومته نراه فى سنوات حكمه الأخيرة يكون بالشعب ويستجدى عونه ، ولكن الوقت كان قد فات ، ولم يعرف أحد ممن لاذ بهم من دول الغرب ، أو من الدولة العثمانية فضلا وكان قرار الباب العالى يعزله عن العرش وبرقع ولده توفيق مكانه .

ولعل اسماعيل كان أول من أقحم الجيش فى السياسة حين سير ضباط المدرسة الحربية بقيادة البكباشى لطيف بك سليم للقيام بمظاهراتهم العسكرية مما سبقت الإشارة اليه . وإن نفى الرافعى أن تكون من تديره .

ولم يقز عرابى بأية حظوة فى عهد اسماعيل ، بل لقى من

الغبين والتتكيل ما كاد يودى بمستقبله ، ويأتى الرافعى على ذكره
بقوله (١) :

« فلما توفى سعيد وخلفه اسماعيل فقد عرابى عطف
ولى الأمر ، اذ لم يكن اسماعيل يأخذ بسنة سلقه فى
العطف على الضباط الوطنيين ، وعادت الحظوة فى
الجيش الى الضباط الشراكسة ، فكان ذلك من أسباب
تدمير عرابى واتجاه أفكاره الى المطالبة بحقوق الضباط
المصريين .

ووقع له حادث فى عهد اسماعيل كان له أثر كبير
فى اتجاه أفكاره ونزعاته السياسية ذلك أنه وقعت
خصومة بينه وبين اللواء خسرو باشا الشركسى أدت
الى تقديمه الى مجلس عسكرى ، والحكم عليه بالسجن
واحدا وعشرين يوما ، فاستأنف عرابى هذا الحكم أمام
المجلس العسكرى الأعلى فقضى بإلغاء الحكم الابتدائى
فحدث خلاف بسبب هذا بين وزير الحربية وقتئذ -
اسماعيل سليم باشا - ورئيس المجلس الأعلى - على
باشا سرى - لأن الوزير كان يرغب فى تأييد الحكم
الابتدائى ، فسعى لدى الخديو اسماعيل فى فصله عن
الجيش ، فتم له ما أراد وقد أورثته هذه الحادثة بغضا
شديدا للشراكسة .

ورفع ظلامته من هذا القرار الى الخديو اسماعيل
وظلت بين النظر والاهمال ثلاث سنوات ، وقد توسط

(١) الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى : ص ٧٨ .

له بعد ذلك بعض الخيريين فالتحق بوظيفة فى دائرة
الحلمية وفى أثناء قيامه بهذه الوظيفة تزوج من كريمة
مرضعة الأمير الهامى باشا أخت حرم الخديو توفيق
من الرضاة ، وتوصل بذلك الى استصدار أمر من
الخديو اسماعيل بالعفو عنه واعادته الى الجيش برتبة
العسكرية ، ولكنه حرم مرتبه طول مدة فصله ، فتأصلت
فى نفسه روح الكره لرؤساء الجيش من الشراكسة
والترك الذين كانوا سببا فى تأخير ترقية الضباط
المصريين ومنهم عرابى ذاته ، فقد ظل تسعة عشر عاما
برتبة قائم مقام ، وهى الرتبة التى نالها فى عهد سعيد
باشا ، وكان يشهد محاباة الرؤساء لصغار الضباط من
أصل شركسى ، ممن هم دونه مرتبة حتى فاقوه فى
الرتب العسكرية لا لسبب الا أنهم من ممالك أو أبناء
ممالك العائلة الخديوية - كما يقول عرابى « (٢) »

حتى اذا تولى توفيق منصب الخديو ، رقى عرابى الى رتبة
الأميرالاي بعد تسعة عشر عاما من ولاية اسماعيل لم ينل فيها أية
ترفيه (وعينت - كما يقول - ياورا خديويا من ضمن ياورانه وأميرا
على الآلى البيادة الرابع الكائن مركزه بالعباسية بمدينة القاهرة)

(وأصدر توفيق أمره بذلك (يونية سنة ١٨٧٩) وهو فى (٣)
الاسكندرية فتوجه عرابى الى سراى رأس الثين وقدم للخديو شكره
مقرونا بعبارات الاخلاص والولاء والدعاء ، فشمله الخديو برعايته
وجعله ضمن ياورانه ، وعينه أميرالاي على الآلى المشاة الرابع الذى

(٢) مذكرات عرابى الجزء الاول كتاب الهلال ص ٥٦ .

(٣) الرافعى : المصدر السابق ص ٨٠ .

كان مركزه القاهرة ويعرف بآلای العباسية ، وظل يشغل هذا المنصب حتى نشوب الثورة) .

وكانت بداية طيبة - كما كان توفيق في بداية عهده - وكان من اليسير أن تمضى الأمور على هذا النمط ، إلا أن توفيق ما أن لانت له الأمور حتى ارتد الى أسوأ مما كان عليه أبوه ، وكان أسوأ مامنى به حكمه أن كان - عثمان باشا رفقى وقتئذ ناظرا للجهادية يصفه عرابى بأنه (رجل جاهل متعصب لجنسه غافل عما ينتج عن سياسة التفريق والاستخفاف بالعنصر الوطنى من احراج الصدور فسولت له نفسه أن يمنع ترقى المصريين العاملين فى الآليات تحت السلاح ، ثم شرع فعلا فى سن قانون قحواه الحكم بعدم الترقى من تحت السلاح ، وصدرت أوامره بذلك ليتمكن من النكاية بأبناء الوطن وحرمانهم من الرتب وجعلهم أنفارا تحت تسلط الترك والجركس ويكون لهؤلاء الحظ الأوفر والنصيب الأكمل من الارتقاء الى الدرجات السامية والرتب الشريفة . .

تم أصدر أمرا ثانيا بأحالة عبد العال بك حلمى اميرالاي الآلى السودانى الى ديوان الجهادية ليكون معاونا فيه ، وكان عمره آن ذاك أربعين سنة وعين خورشيد بك نعمان بدلا منه لكونه من جنسه الجركسى ، وكان يبلغ من العمر الخامسة والستين ، وهو ضعيف لا قدرة له على الحركات العسكرية ، وأصدر أمرا آخر برفت أحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى ، وكان فى الأربعين من سنه أيضا ، وأقام فى مكانه ضابطا آخر جركسيا) .

ويبدو حتى ذلك الوقت أن عرابى كان بعيدا عن الأحداث ، أو على غير علم بها إذ يقص ما يدل على ذلك ، فيقول :

(٤) مذكرات : المصدر السابق ص ٥٦ .

(وفى ليلة ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ هـ دعيت الى وليمة بمنزل نجم الدين باشا لمناسبة عودته من أداء فريضة الحج ، فلما وصلت الى منزل الداعى ، وجدته غاصا بأمرأء الجيش وغيرهم ، فجلست بجوار محمد بك نجيب الجريدلى وكان بجانبه اسماعيل باشا كامل الفريق - وهو جركسى الأصل ولكنه كان يتظاهر بحب العدل والانصاف - فأفضى الباشا الى نجيب بك بما صار من طيش ناظر الجهادية ، وأنه نصح له بأن يعرض عن ذلك الأجحاف الظاهر ، فلم يصغ اليه ، فأخبرنى محمد بك نجيب بما سمع همسا فى أذنى ، وكنت أجهل قبل ذلك تلك الأوامر الظالمة ، فقلت لاسماعيل باشا كامل : أحق هذا ؟ فقال : نعم وقد سلمت الأوامر الى الكتاب للأجراء بمقتضاها - فقلت له : ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على مضغها .

وبعد تناول الطعام جاءنى ضباط وأخبرنى بأن كثيرا من الضباط ينتظرونى بمنزلى ، فتوجهت اليهم فى الحال ، فوجدت من ضمنهم الأميرالاي عبد العال بك حلمى حكمدار الألاى السودانى بمركزه فى طره والبكباشى خضر أفندى من الألاى المذكور أيضا ، وعلى بك فهمى أميرالاي الحرس الخديوى بقشلاق عابدين والبكباشى محمد أفندى عبيد من الألاى المذكور كذلك ، والبكباشى ألفى أفندى يوسف من الألاى الرابع البيادة حكمداريتى ، والقائمقام أحمد بك عبد الغفار من الألاى السوارى وغيرهم ، وكانوا جميعا فى هياج عظيم ، ان بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم ، فلما رأونى أفضوا الى بما سمعته من نجيب بك واسماعيل باشا كامل من قبل ، فقلت لهم : قد سمعت هذا من غيركم ، فماذا تريدون ؟ قالوا : وليس الأمر كذلك فقط ، بل أنه قد كثر اجتماع العنصر الجركسى فى منزل خسرو باشا الفريق ، وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان بك رفقى ويلعنون خيرى

بك لتسليمه واذعانه للسلطان سليم ، ويقولون أنه قد حان الوقت لرد بضاعتهم اليهم ، وأنهم لا يغلبون من قلة ، وظنوا انهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبلهم - ثم عقب الضباط بأنهم قد تحققوا صدق تلك الأنباء ممن يوثق بخبره . فقلت : وماذا تريدون إذن ؟ فقالوا انما جئناك لنرى رأيك - فقلت : رأيي أن تترثوا ، وتهذبوا روعكم ، وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا اليهم النظر فى مصالحكم ، وهم يتخذون من بينهم رئيسا لهم يثقون به كل الوثوق ، ويسمعون قوله ، ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم ان أرادت الحكومة به شرا) .

وليس لذلك من دلالة الا أن - عرابى - كان موضع اكبار الضباط المصريين وثقتهم ، وذلك لما كان عليه من سلوك بين واتجاه صادق فى ايمانه بمصر والمصريين ، وان تكون - مصر للمصريين - وكان ذلك شعار الثورة العرابية . كما كان من بعد على يد أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، وسعد زغلول زعيم مصر العظيم وقائد ثورتها عام ١٩١٩ . وكانت مصر هى النعمة السادرة فيما قام به رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك فى بناء النهضة المصرية فكرا وأعمالا وسياسة . .

ونقول أخيرا أن عرابى كان الناطق بلسان عصره فى ذمائه - مصر للمصريين - ولا نرى فيما دونه الرافعى عن - الثورة العرابية - ما يخالف ما ذكره عرابى فى مذكراته :

ولعله بعبارته : « ولو لم يظهر عرابى ولم تكن له تلك الشخصية التى اجتذبت اليه صفوف الضباط ، وبثت فيهم روح التضامن والأقدام لكان محتملا أن لا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر ، وفى ظروف وملايسات أخرى غير التى ظهرت فيها »

فالثورة العرابية - كما يقول : (كانت ثورة دفاع عن الحق ودفاع
عن الحياة) (٥) .

وإذا قلنا أن عرابي كان الناطق بلسان عصره في ندائه - مصر
للمصريين - فانما نعني أنه كان - التعبير الواقعي - لما جاشت به
مصر من انفعالات ، بدت ساقرة في ندوات المفكرين ، وفيما تنشره
الصحف ، بل وفي الجمعيات السرية والعلنية التي انتشرت خلال
تلك الفترة التي سبقت الثورة العرابية بل واستمرت بعدها ، فلم
تكن الثورة العرابية - كما أرى - الا الشرارة الأولى التي أفرزت
- كما قلت - ثورة ١٩١٩ ، وكانت امتدادا لها .

وكان أول ما بدا منها ندوة الأفغانى ، وفي رجاها - كما قلنا -
نشأت تلك الصفوة من المفكرين والساسة الذين قدر لهم أن يقودوا
نهضة مصر السياسية والفكرية التي امتدت آثارها - فشملت العالم
الاسلامى ، وكان أعظم ما نعمت به مصر في تاريخها الحديث، حين
أيقظ في نفوسهم أمجاد ماضيهم ، وأخذ عليهم خنوعهم وصبرهم
على الخسف والظلم ، فيقول :

(توالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى
اليوم وأنتم تحفلون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة
الغزاة الظالمين تسوومكم حكوماتكم الحيف والجور ،
وتنزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون ، بل راضون
.. فلو كان ذى عروقتكم دم فيه كريات حيوية ، وفي
رءوسكم أعضاء تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم
بهذا الذل وهذه المسكنة) .

(٥) الرافعى : المصدر السابق ص ٦٤ .

ثم يستثير نخوتهم ، فيقول :

(انظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وأثار
طيبة ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، فهي شهادة
بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .. هبوا من غفلتكم !
اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقي الأمم أحرارا
سعداء) .

ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية (٦) ، وهو قول
فيه نوع من المبالغة ، فإذا كانت قد أزكت احساس المصريين بتاريخهم
وأنتمائهم فانها لم تعد ماينشده الخديو اسماعيل منها لأثارة احساس
المصريين بكيانهم ، ليكونوا له سنداً في مواجهته السلطان العثماني ،
ولم يكن في أحاديث الأفغانى ما ينأى به عن هذه الغاية التى ينشدها
اسماعيل ، ولم يكن فيها ما يثير المصريين على واليهم ثم أن بذور
الثورة العرابية ، تسبق ذلك بزمان ، ولم تفرز غير احساس ممض
بالفرق بين حاكم وآخر ، أو بعبارة أدق بين حكم الوالى سعيد باشا
والخديو اسماعيل ، وكان عرابى هو حامل لوائها والمعبر عنها .

فإذا لم يكن في أحاديث الأفغانى ما يثير المصريين على واليهم ،
الا أن أحاديثه وندواته قد أثارت فى نفوس المثقفين من أبناء مصر
معان خابية يحسونها ولا يقدرّون على التعبير عنها ، أما لأنها أبهمت
عليهم ، أو خافوا التعبير عنها ، وقد ظل الأفغانى وفياً لاسماعيل
 فلم يعرض له بسوء ، حتى رحيله عن مصر الى المنفى ، بل بقى
على وفائه له فى منفاه ، وكان المنفى قد لحق به هو الآخر فى ولاية
توفيق ، فتكتب - العروة الوثقى - التى أصدرها الأفغانى فى باريس
سنة ١٨٨٤ ، داعية الى عودة اسماعيل ثانية لمصر ، فتقول :

(٦) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : السيد جمال
الدين الأفغانى ص ٧٣ .

(اننا نعلم أن اسماعيل باشا لو رجع الى مصر
لا يكتفى بتخفيض سلطة الانجليز في وادي النيل ، بل
يبدل جهده في محو النفوذ الانجليزى بالمرّة ، وربما
مد يده الى سائر البلاد المشرقية الداخلة في سلطة
الانجليز ليحبط أعمالهم ، ويهدم أركان سلطنتهم عليها
لأنه يعلم - أى اسماعيل - أن الدولة الانجليزية هي
السبب في كل مصاب نزل به .. (٧) .

وحين جاء الأفغانى الى مصر (مارس ١٨٧١) لم ير اسماعيل
في وجوده ما يهدد سلطانه بقدر ما يؤيد كيانه في مواجهة الدولة
العثمانية كحاكم مستنير ، وقد وجد الأفغانى في مصر ومن اسماعيل
كل ترحاب ..

وكان اسماعيل في هذه الفترة - كما يقول الرافعى (٨)
(منافسا لحكومة الأستانة في المكانة والنفوذ السياسى وينظر اليها
بعين الزرابة ، ولا يرضى لمصر أن تكون تابعا لتركيا ، ولا أن يكون
هو تابعا للسلطان العثمانى ، وليس خافيا ما كان يبذله من المساعى
للانفصال عن تركيا في ذلك الحين ، وظهوره بمظهر العامل المستقل
في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وفي اغفاله دعوة السلطان
الى حضور حفلات القناة سنة ١٨٦٩ ، وعزيمه على اعلان استقلال
مصر التام في تلك الحفلات ، لولا العقبات السياسية التى
اعتترضته) .

ويبدو قدوم الأفغانى الى مصر خطة مرسومة، فقد جاء اليها
- كما يقول الرافعى (٩) - لا على نية الاقامة بها ، بل على قصد

(٧) ص ٤٠٩ من مجموعة مقالات العروة الوثقى .

(٨) عصر اسماعيل : الجزء الثانى ص ١٥٦ .

(٩) المصدر السابق : ص ١٥٦ .

مشاهدة مناظرها واستطلاع أحوالها - وأن تكن الحقيقة غير ذلك ، فقد جاء إليها ليقيم ، إذ أن رياض باشا هو الذى دعاه للاقامة وأجرى عليه رزقا غير مقطوع يتناوله فى مطلع كل شهر ٠٠ وما كان لرياض أن يفعل ذلك بدون موافقة اسماعيل .

ويمضى الزمن ليكون سلوك مصطفى رياض باشا ، الشرارة التى أوقدت شعلة الثورة العرابية ، ولا ندري أكان ذلك منه غباء أم سوء قصد ، وكان عزله أحد المطالب التى تقدم بها عرابى ورفاقه الى الخديو توفيق فى بيان ٩ سبتمبر ١٨٨١ ناسبين اليه الاستبداد وعدم الوطنية .

وحتى تكون لدينا فكرة موجزة عن مصطفى رياض هذا نحب أن نتبين فيما يلى بعض الأحكام التى نستخلصها من تاريخه ، والتى تبرز للقارئ موقفه منها ، فليس هناك ما هو أشد أبهاما وغموضا بل وتناقضا من أحداث تلك الفترة التى مرت بتاريخ مصر الحديث منذ أصبح اسماعيل - خديوا - حتى عزله وولاية توفيق بعده ليواجه أحداثا لا يقدر عليها ولا يستطيع مغالبتها (لينتهى به الأمر - كما يقول اليكتور هيكل - الى أن يكون فى تاريخ مصر صورة غير محبوبة ، ولا ممقوتة ، صورة مرت فى هذا التاريخ فكان أثرها فيه سلبيا هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير) (١٠) وكان مصطفى رياض باشا صاحب الدور الأول - فى أحداثها التى قادت الى الثورة العرابية .

ويجمل الياس الأيوبى فى كتابه - تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل (١١) - تاريخ رياض باشا فيقول : (انه ابن ناظر

(١٠) تراجم : الخديو توفيق ص ٧٢ .

(١١) ص ١٩٧ .

الخربخانة المصرية ، وذهب آخرون الى أنه يهودى ازميرى من أسرة معروفة يقال لها أسرة الوزان ، ووفد أبوه الى الاسكندرية حيث اسلم فى ظروف لم يوضحها أحد ، وقد بدأ حياته نساخا فى مجلس العموم بديوان المالية ، حتى التحق بخدمة عباس الأول ، وقبل أن يصل الى سن العشرين كان قد حصل على رتبة الأميرالاي ، وأصبح مهردارا لعباس الأول ثم مديرا للجيزة بالاضافة الى بعض الأعمال الأخرى ، ويرجع بعضهم هذه الخطوة التى نالها عند عباس الأول وهذه السرعة المذهلة فى الترقيات الى تدنيه لأمر يلحق العسار بمرتكبها) ويذكر له - الأيوبى - ما كان من طواعيته للانجليز ، وانه يسلم لهم بكل ما يريدون دون مراجعة ، (لأن رياض باشا كان يثق به ثقة لا يخامرها ريب - قال اللورد كرومر فى كتابه - مصر الحديثة - أنه طلب منه أن يفض خلافا بين الحكومة المصرية والخوارج جرنقوا الذين أنشأوا مرفأ الاسكندرية وكان لابد من أن يوقع رياض باشا شروط الحل التى وضعها لورد كرومر ، فأخذها ومضى بها إليه ، وهو لا يصدق أنه يستطيع أن يوقعها فى ذلك اليوم ، اذ لابد من النظر فيها ، أما رياض باشا ، فقال له : - هل أنت موافق على هذه الشروط ومقتنع بفعاليتها - فقال : نعم ، فأخذها منه ووقعها من غير أن يقرأها لشدة ثقته به) .

ويمضى لورد كرومر فى سرد مآثره - كما يراها - ولا يفوته أن يذكر ما كان من فشله فى مواجهة الثورة العرابية ، فيقول عن هذا الدور من حياته (وفى أواخر تلك المدة عرضت مشكلة لم يقو على حلها ، ولم يكن قد انتبه الى أهميتها ، وهى الثورة العرابية ، فجرفه سيلها الجارف) (١٢) .

(١٢) الأيوبى ، المصدر السابق ص ٢١٠ .

ويرى الأيوبي : (أن خير وصف للرجل هو ما جاد به قلم اللورد ألفريد ملتر ، في كتابه المعنون - انجلترا في مصر - فيقول : (ان رياضا كان ذا كفاءة غريبة في اشارة عداء الناس له حالما يتربع قى دست الحكم) .

ولعل هذه العبارة الأخيرة التى جاءت على لسان لورد ملتر هى أصدق ما يمكن أن يوصف به رياض باشا ، فاذا قلت (ان الواقعة مقدسة والرأى حر) كما جاء فى كتابى - التاريخ والسير (١٣) وان (دراسة التاريخ دون العثور على الفكرة الاساسية للواقعة ، دراسة عارية جوفاء جامدة خالية من الاحساس والتفكير والارادة التى تميز العمل الانسانى) فان الفكرة التى تكمن وراء سلوك رياض باشا ، هى خيانتة لمصر ، وانه لم يكن فى يوم من الأيام وفيا لها . وهو ما يشير اليه الرافعى ، بقوله (١٤) :

(وكانت سياسة رياض باشا من أسباب ظهور الثورة فقد استهدف لحركة مقاومة قوية لما بدا منه من المعارضة فى انشاء مجلس النواب وانحيازه للنفوذ الأوربى ، ولما عرف عنه من الاستخفاف بميول الشعب وعدم اكترائه لأراء الخاصة من الكبراء والأعيان ، واصراره على قمع كل معارضة بالشدة ، واضطهاده للمعارضين) .

(١٣) المكتبة الثقافية : ١٢١ فى ١٥ نوفمبر ١٩٦٤ ، وهو بحث فى فلسفة التاريخ اكملت فصوله فى سلسلة مقالات نشرت تباعا فى مجلة الفكر المعاصر بداية من سنة ١٩٦٥ .

(١٤) عرابى الزعيم الثائر - كتاب الهلال العدد ١٠ مارس ١٩٥٢ : ص ٢١ .

ولا نستطيع أن نتهم رياض باشا بالغباء ، وأبرز ما يمكن أن
يُوصف به الذكاء الماكر أو الخبث الوقح ، (وسواء كان رياض أم
لم يكن من أصل يهودى ، فمسلم وأعرق الأتراك فى تركية خلقه
وتربيته وميوله) (١٥) . وتلك هى - كما أعتقد - صفات العميل
أو الجاسوس الخفى ، فقد كان (مظهره - كما يقول الأيوبى - مظهر
يهودى شرقى تدل ملامحه ولهجته فى كلامه على أنه من أصل تركى
لا من أصل مصرى ، ولو أنه تلقى مبادئ العربية والتركية فى بيت
والده ، ثم فى مدرسة المفروزة ، ولا ينقصه فى لغته العربية شىء
من الفصاحة الشرقية ، المنفوخة الأوداج التى تأخذ بمجامع قلوب
مواطنيه) .

ولم تكن النزعة الصهيونية - كما بدت أخيرا قد ظهرت بعد ،
وكانت بريطانيا العظمى - كما كانت تدعى - هى الكفيل حينذاك
بالحملة على الأسلام والمسلمين ، وفى رعايتها صدر وعد بلفور فيما
بعد - كما هو معروف .

ولعل أبرز ما نشير إليه فى تلك الفترة من بواكير القرن
العشرين ما كان من ابتياع الانجلترا لأسهم قناة السويس ، وقد تمت
الصفقة فى غيبة مجلس العموم ، وباتفاق بين روتشيلد اليهودى
ودزرائيلى ، قام روتشيلد بأداء الثمن ، ولما اجتمع (البرلمان
الانجليزى فى فبراير سنة ١٨٧٦ ، وافق على الاعتماد المطلوب وعقد
الاتفاق - كما يقول الراغى - وأضاع اسماعيل بهذه الصفقة
الخاسرة رأس مال عظيم القيمة فى شركة القناة ، وجعل استقلال
مصر هدفا للخطر) .

(١٥) الأيوبى : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٣ .

وكان اتمام هذه الصفقة الخاسرة على يد حكومة مصطفى رياض ، مما يدل على صدق ما وصفته به من عمالة وجاسوسية خفية في محيط من الأغبياء . وكان قمة هذا الغباء خديو مصر - المعظم أو الغافل - اسماعيل .

وتنشر مجلة العالمين الفرنسية في عددها المؤرخ أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ - كما نقله الراقعي (١٦) - ما يشير الى تلك العمالة - وأن نسبها الى اسماعيل ، بقولها : (ان هذا العمل سياسى محض ، وهنا وجه الخطر فيه ، فاذا لم يكن فى ذاته احتلالا لمصر ، فإنه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال ، والآن وقد أصبح لانجلترا (عميل) يحتاج الى أن تعطيه مائة مليون فرنك لتسوية ديونه فهي لن تتركه وشأنه) .

ولم يكن هذا العميل الخديو اسماعيل بل كان رئيس الوزارة مصطفى رياض ، وكان له دوره البارز فى اثارة الجند بقيادة عرابى على طغيان حكومته فى عهد توفيق ، ولولا نكاء عرابى لتمكن من القضاء على انتفاضة الضباط المصريين بقيادة الزعيم أحمد عرابى . وهو ما نعرض له فى الفصل التالى .

(١٦) عصر اسماعيل : الجزء الثانى ص ٦٥ .

١/٦ مصر للمصريين

كانت مصر غايته وهواه ، ولقى عرابى فى رحاب سعيد باشا ،
ما يزكى لديه هذا الحب العارم لمصر ، ثم كانت الأحداث التى تتالت
عليه تحت حكم اسماعيل مازاده ايمانا بها ، ولولا أن القدر قد ساقه
الى الزواج من كريمة مرضعة الأمير الهامى باشا وهى أخت حرم
الخديو توفيق من الرضاغة ، وتوصل بذلك الى استصدار أمر من
الخديو بالعفو عنه ، واعادته الى الجيش لكانت تلك نهايته ، وما
كان لينسنى له أن يقود ثورته بعيدا عن الجيش ، ففى رحاب الجيش
وان حرم من الترقى طويلا ، كانت زعامته ، وكان دوره الأثير فى
قيادتها ، فضلا عن قدرته فى قيادتها وتوجيهها الى الغاية التى
ينشدها وبقيت كامنة فى أعماقه لتكون - مصر للمصريين - فقد كان
لقدرته على معرفة نوايا خصمه وتبينها ، ما أفسد على خصمه
نواياه ، وكان من غباء عثمان رفقى وخيانة مصطفى رياض وانحيازه
للنفوذ الأوربى ، مامكن عرابى من مواجهتها حين بايعه الضباط
بقيادتها ..

وكانت البادرة الأولى حين أصدر عثمان رفقى تاطر الحربية
أمرا بنقل الأميرالاي عبد العال حلمى ، قائد آلاى طره الى ديوان

الجهادية ، أو وزارة الحربية بلغة العصر ، وأقامه معاونا بها، وفي ذلك تنقيص من درجته ومركزه ، وأمر بتعيين خورشيد نعمان بك الشركسي مكانه ، كما أصدر أمرا آخر بفصل أحمد عبد الغفار بك قائم مقام الأي الفرنسيان . وعين بدله شركسيا ، وأثار عرابي حين علم بذلك ، وقال كلمته المشهورة - ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقي على هضمها - وغدت المعركة بينه وبين النظام القائم معركة - حياة أو موت - وكان حذر عرابي من أية مناورة يتخذها عثمان رفقي للغدر بهم .

وكانت الخطوة الأولى أن كتب عرابي عريضة الى رياض باشا تلاها على رفاقه ووافقوا عليها جميعا ، يطلبون فيها عزل عثمان رفقي عن الوزارة .

وفي غداة ذلك اليوم - ١٧ يناير سنة ١٨٨١ - ذهب الضباط الكبار الثلاثة - أحمد عرابي بك ، وعلى قهسي بك ، وعبد العال حلمي بك ، وأبلغوها الى رياض باشا فطلب اليهم أن يقابلوه ، فلما قابلوه وعدهم بالنظر في الأمر ، ولم يبد عليه ما ينم عن سخط أو غضب ، ولعله - كما نرى - وهو العميل الكبير للنفوذ الأوربي . أراد أن يستهدي بصادته ، فلما قابلوه بعد أسبوع في داره ، أجابهم متوعدا ومهددا وأنذرهم بالهلاك .

ولعله كان يظن في تهديده ما يثنيهم أو يخيفهم ، فعندما أصر عرابي ورفاقه على مطالبهم ، وأنها (حق وعدل) تراجع وأخبرهم أنه - سينظر في الأمر - وانصرفوا على ذلك . ولعله لم يبرم أمرا حتى يعود الى سادته ، واستقر الرأي بهم - في اجتماع مجلس الوزراء على محاكمة الضباط الثلاثة والقبض عليهم ليحاكموا أمام المجلس العسكري ، وأخذ عثمان رفقي تنفيذ القرار ، وكان ذلك

يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨١ فى اجتماع مجلس الوزراء فى سـراى
عابدين برئاسة الخديو توفيق .

ومضى عثمان رفقى فى تنفيذ خطته ، بما عرف عنه من غرور
وغباء ، ولم يكن الضباط قد عرفوا بقرار مجلس الوزراء ، ولم
يخطرهم عثمان رفقى بأمر القبض عليهم ، وكان أن لجأ الى
استدراجهم بعيدا عن قواتهم ، ففى نفس اليوم الذى اتخذ فيه مجلس
الوزراء قراره هذا ، أرسل اليهم يدعوهم للحضور الى ديوان
الوزارة - بقصر النيل - للمداولة فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة
- جميلة هانم - شقيقة الخديو .

وكانت خطة بقدر ما فيها من سذاجة تنم عن غباء بين ، فلم
(تجر العادة - كما يقول الراقى^(١)) بأن يستدعى وزير الحربية
ثلاثة من أمراء الآيات للمذاكرة فى مثل هذا الشأن) هذا فضلا
عن غباء الخديو توفيق هو الآخر . فعندما قرر مجلس الوزراء ،
وكان برئاسة الخديو توفيق وقد حضره - كما يقول عرابى^(٢) - :
(جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدون من الترك والجركس ،
وقرروا فيه ايقافنا نحن امراء الآيات الثلاثة الذين وقعوا على
العريضة الأنفة الذكر ، ومحاكمتنا أقام مجلس فوق العادة ، فلاحظ
رئيس النظار رياض باشا أنه اذا صار ايقافنا وجب ايقاف ناظر
الجهادية ، والا تفاقم الخطر ، وخيفت نتائج جراتنا ، فلم يوافق
الخديو على ذلك ، وقال : ان ناظر الجهادية يضمن حفظ النظام ،
فأكد ناظر الجهادية استعدادة لحفظ النظام والقبض علينا بسهولة
ثم دعى أحمد خيرى باشا رئيس الديوان الخديو ، وتلا بالمجلس أمرا
عاليا مآله :

(١) عبد الرحمن الراقى : الزعيم أحمد عرابى ص ٣٥ - كتاب الهلال
العدد ١٠ مارس ١٩٥٢ .

(أن الأمراء الثلاثة أحمد عرابي ، وعلى فهمي ، وعبد العال حلمي مفسدون ، وأنه لذلك يقتضى إيقافهم من الخدمة ومحاكمتهم على افسادهم ومجازاتهم بالعقاب الصارم فى مجلس عسكرى فوق العادة تحت رئاسة ناظر الجهادية عثمان بك رفقى ثم انفض المجلس) •

ويبدو من ملاحظة رئيس النظار من وجوب إيقاف ناظر الجهادية بدوره أنه أراد أن يلقي التبعة على الخديو توفيق فى اعتراضه ، فلا يحمل هو وزرها ويحملها توفيق ، مما يدل على خبثه ومكره ، كما يدل على سفاهة توفيق وخبل عقله • وكان لسفاهته وخبل عقله ما أدى الى ثورة العرابيين •

وكشف عرابي اللعبة (فأخذنا حذرنا وهيانا مايلزم لنجاتنا) ويقول : أنه ذهب فى الوقت المعين (وتلى الأمر الخديوى المؤذن بإيقافنا ومحاكمتنا ثم نزلت عنا سيوفنا وساقونا الى السجن فى قاعة بقصر النيل •• فلا والله ما كانت الا هنية حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديوى ، وأحرق رجالهما بديوان الجهادية ، وأسرع بعض الضباط والعساكر فأخرجونا من السجن ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين ، وقصدوا جميعا الى سراى عابدين • ليحتمون بالخديوى • وكان بطل عملية الانقاذ البكباشى محمد أفندى عبيد ، بطل معركة التل الكبير - فيما بعد - وبعد تاريخه صورة ناضرة للبطولة والوطنية فى تاريخ مصر الحديث - وسنعرض له فى حينه ، أما موقفه فى تحرير الزعماء الثلاثة فيما عرف بحادث - قصر النيل - فكان الباكورة لبطولة نادرة تسفر عن نفسها لدى المصريين عند الملأ •

كان البكباشى محمد عبيد من ضباط الآلاى الأول - الآلاى
الحرس الخديوى ، قبل الثورة العرابية ، ويعد بطل واقعة قصر النيل
التي تعد أولى وقائع الثورة العرابية ، يروى عرابى ما كان منه ،
فيقول (٣) :

« عندما علم ضباط الآلاى الحرس الخديوى بما
لحقنا من الالهانة والسجن ، وتعيين غيرنا بدلا منا هاجوا
وماجوا وثارَت الحمية فى رؤوسهم ، وفى الحال أمر
محمد أفندى عبيد البكباشى بضرب نوبة طابور للعساكر
فاعترضه خورشيد بك بسمى القائمقام المعين حديثا ،
وهدهد بقطع رأسه ، وقال له أنا أمير الآلاى ، فلم يلتفت
اليه وأمر بعض العساكر بوضعه تحت التحفظ وكانت
الجنود قد اصطفت تحت السلاح فأخذهم وقصد قصر
النيل لانقاذنا من السجن ، فاعترضه أيضا راشد باشا
حسنى الفريق ، ولكن لم يجد ذلك نفعا ، وكان الخديو
مشرفا على العساكر من شرفة السلامك فأمر بروجى
قره قول السراى بأن يضرب نوبة حضور الضباط عند
الخديو ، فلم يذهب اليه أحد ، ووقفت الأورطة الأولى
حكمدارية البكباشى أحمد أفندى فرج فى ساحة عابدين
ومعها بيرق الآلاى ، وكان وقوفها فى هيئة طابور لأجل
حفظ الخديو مما عسى أن يطرأ من الأمور واستمرت
الأورطتان الأخريان فى سيرهما الى أن وصلتا الى قصر
النيل ، وأصدر البكباشى محمد عبيد أمره الى حكمدار
الأورطة الثالثة على أفندى عيسى البكباشى بأن يذهب
بأورطته الى الجهة الخلفية من قصر النيل ، وذهب هو

(٣) مذكرات : ج ١ ص ٦٢ .

بأورطته الى الجهة الامامية ، ثم عين فرقة من الحساكر
لاقتحام الديوان الذى اوصبت أبوابه ومنافذه للبحث
عنا واخراجنا من السجن ، فوقع الرعب فى قلب أمراء
الجهادية الموجودين بالديوان، وأعضاء المجلس المعينين
لحساكتنا من الأوربيين والجركس ، وطلب كل منهم
التجاة لنفسه وفى جملتهم عثمان رفقى ناظر الجهادية .

وهكذا كان الشكر والفخر للبطل المقدام والشجاع
الهمام محمد أفندى عبيد الذى كان أنقاذنا من الهلاك
على يديه » .

ويجمل عرابى فى كلمته الى ضباط وعساكر آلاى الحرس
الخدوى ، وبعد أن أوصاهم بملازمة الهدوء والسكينة ، يقول لهم
(اننا لا نطلب الا العدل والمساواة مع اخواننا الجراكسة والأتراك ،
وأن لا يكون المصرى محتقرا فى نظر الأجناس الأخرى ، ونريد كذاك
مجالسا نيابيا لحفظ حقوق آبائنا وأخواتنا وأبنائنا من ظلم المستبدين
الظالمين) .

ويصف الرافعى ما كان بقوله : (فلما علم عيون الآلاى الأول
باعتقال الضباط الثلاثة ، أسرعوا بالعودة الى مركز الآلاى بقشلاق
عابدين ، وأنهوا الى ضباطه ما وقع ، فهاج الضباط جميعا ،
واعتزموا انقاذ أخوانهم ، ونهض البكباشى محمد أفندى عبيد مناديا
الجند النداء العسكرى بالاحتشاد والتأهب للمسير ، فاعترضه
قائمقام الآلاى خورشيد بك بسمى ، وسأله عن سبب هذا النداء ،
فلم يجبه بكلمة ، وأمر بعض الجنود باعتقاله فى إحدى قاعات
القشلاق واصطف الجنود بأسلحتهم ، وساروا بقيادة محمد أفندى
عبيد وقصد بهم الى قصر النيل حيث الضباط المعتقلون ، وبينما كان

الجند يستعدون للخروج من القشلاق ، علم الخديو بهذه الحركة وشهدوا بنفسه من سلاطك السراى المقابل للقشلاق ، فأمر الفريق راشد باشا حسنى بدر ياوره بأن يتوجه اليهم لوقف الحركة ، فلم تجد هذه الوساطة نفعا فاستدعى الخديو الضباط فلم يحضر أحد) .

(سار جنود الآلاى الأول من قشلاق عابدين الى قصر النيل فلما بلغوه وضع البكباشى محمد عبيد الحصار حوله ، وأمر بقية الجند بالهجوم على الديوان فهجم الجنود حاملين بنادقهم وفى أطرافها الرماح - سنك - واقتحموا الديوان - صائحين صاخبين ، فوقع الرعب فى نفوس القواد والضباط الموجودين بالديوان وفى مقدمتهم عثمان باشا رفقى - وزير الحربية - وبادروا الى الفرار ، أما عثمان رفقى فقد فر من إحدى النوافذ الى ورشة التريزة يطلب النجاة لنفسه ولما لم يجده الجند اقتحموا بأسلحتهم غرفة أفلاطون وكيل الحربية وطلبوا انقاذ ضباطهم ، وفى أثناء ذلك أحاط فريق من الجند بأفلاطون باشا فرغب فى التخلص منهم فضربوه ، وهم استون باشا ، ولارمى باشا ، ودى بلتسن باشا بأغاثته فضربهم المتجمعون ، وأخذ الجند يبحثون عن الضباط المعتقلين وتفرقوا لذلك فى جميع الغرف والاتجاهات ، وكسروا الأبواب والشبابيك ، وكل ما عاقهم عن السير الى أن وصلوا الى مقر الضباط الثلاثة ففك البكباشى محمد عبيد سراهم) .

(وخرج الضباط الثلاثة من قصر النيل ظافرين ، وساروا يحيط بهم الجند الى قشلاق الآلاى الأول بميدان عابدين ، وكان عرابى وصحبه على عهد مع ضباط الآلايات الثلاثة أن يتضامنوا معهم ويبادروا الى تجددهم اذا حل بهم مكروه) .

وما كان من الآيات الجيش الأخرى كان من الآلاى طره (الذى يرأسه عبد العال حلمى ، فلم يكذ يعلم بما حل بعرابى وصاحبيه حتى

هب لنجدتهم) وكان معه ما كان من غيره ، فاعتقل الميرلاى الجديد الذى جاء ليتسلم القيادة مكانه ، مع من جاءوا بصحبته من طرف الخديو ومنهم أحمد بك حمدى الياور الخديوى ليخبرهم باطلاق سراح الضباط الثلاثة ويقنعهم بالعودة واطلاق سراح الضباط الذين اعتقلوا ، فلم يلقوا اليه بالا ومضوا فى مسيرتهم بقيادة خضر أفندى خضر الى ميدان عابدين (وتقدم مع ضباط الألاى الى عرابى وصاحبيه فهنؤوهم بالسلامة وتعانقوا فرحين مستبشرين) .

وكان الميدان قد غص بالجماهير التى جاءت لترى هذا المشهد الذى لم (يألوه من قبل وعندئذ وقف عرابى خطيبا بأعلى صوته وأثنى على الضباط والجند واتحادهم لأنقاذه وانقاذ صاحبيه من السجن) .

وكانت بداية صفحة جديدة فى تاريخ مصر ، كتب لعرابى أن يلعب الدور الأول فى أحداثها .

وتبدو الصورة واضحة جلية بما جاشت به قلوب المصريين فى تلك الحقبة الحافلة من تاريخ مصر ، ولعلها تبرز كأقوى ما تكون فيما كان من الجند وهم يمثلون السواد الأعظم من الشعب ، فى حماسهم ، فكانوا يسبقون الضباط الى ما يبغون ، والجند هم روح المعركة ، فان لم يكن بينهم وبين ضباطهم وفاق خسروا المعركة ، وهو ما ندعوه - الروح المعنوية - فالجندى لا يواجه الموت الا فى سبيل مبدأ يدين به ، ومثل أعلا ينشده ، وهو ما يفسر حماس المصريين لعرابى وولائهم لجانبه ، حين رأوا فيه المثل الأعلى لما تجيش به نفوسهم ، وما تنطوى عليه ضمائرهم ، وكانت البداية فى تحول الحركة العرابية من حركة عسكرية الى حركة شعبية ، شعارها نهضة مصر للمصريين - .

١/٧ - بين المهادنة والمغامرة

كان لقاء عابدين حدا فاصلا فى اتجاه الثورة العرابية ، فقد بدأت - كما رأينا حركة عسكرية - وكان من اليسير ألا تقع لولا جهل عثمان رفقى ، وغباء توفيق ، ومكر مصطفى رياض ناظر النظار ، وخداعه ، وتسليمه للانجليز - كما رأينا - ويتفق المؤرخون على من كانوا يحيطون بالخديو فى لقاء عابدين ، من الانجليز وعلى رأسهم مستر كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية ، والجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية ، وقد أشار عليه مستر كوكسن (بأن يطلق غدراقه على رأس عرابى ، فالتفت اليه الخديو وقال : أفلا تنظر الى من حولنا من العساكر ، (ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن اغمدوا سيوفكم وعودوا الى بلكاتكم ، فلم يفعلوا وظلوا وقوا خلفى ودم الوطنىة يغلى فى مراحل قلوبهم ، والغضب ملء جوارحهم) (١) .

فاذا سلمنا بحق الجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية بالمشورة دون التدخل ، فأننا لا نسوغ تدخل المستر كوكسن قنصل

(١) عرابى : مذكرات الجزء الأول ص ٨٠ .

انجلترا فى الاسكندرية ، الا أن تكون مصر قد أصبحت أياًلة بريطانية وهو ما كان من بعد حين لجأ الخديو توفيق الى الانجليز يستنصرهم على ثورة مصر بقيادة الزعيم أحمد عرابى ، وهو ما أشار اليه الشيخ محمد عبده ، فيما بعد فى حديثه الى الصحيفة الانجليزية - بول ميل جازيت - وكان قد آب الى مصر بعد سنوات سست قضائها فى المنفى ، فقال عند :

(ان توفيق باشا أساء الينا أكبر اساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب - لايمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا اذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له - لأننا لا نريد خونة وجوهم مصرية وقلوبهم انجليزية) (٢) .

ويرى الدكتور هيكل فى تفسير ذلك ، أنه لو كان لتوفيق (سياسة معينة يومئذ لما وقع حادث قصر النيل ، لكنه كان مضطرب الرأى والسياسة جميعا لأنه كان يشعر بأن سنده الأخير ليس تركيا وليس الأمة المصرية مادام لايريد أن يعتمد على الأمة ، أو يذيلها شيئاً من الحقوق التى تشعرها بكيانها . على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيق درساً فى وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائماً مغرضاً للتصادم مع القوى المختلفة المحيطة ، فمع شعوره بأن أباه اضطرت للاستعانة بالأمة ولو استعانة صسورية ممثلة فى مجلس شورى النواب ، فقد ظل حفيظاً على مبدأ الحكومة المطلقة) .

وقد بدأت حركة الضباط العسكرية خالصة قاصرة على مطالب الضباط المصريين ، الا أن جهل الخديو توفيق حولها من اطارها

(٢) المؤلف : أحمد لطفى السيد استاذ الجيل الطبعة الأولى ص ٥٥ و ٦٦ الطبعة الثانية .

الخاص القاهر على المطالب العسكرية الى اطارها العام لتصبح قضية مصر عامة وحق المصريين في حكم عادل يسود مصر جميعا . فبقدر ما كان مسلك عرابي في مواجهة الخديو بميدان عابدين مشوبا بالفطنة والكياسة ، كان مسلك الخديو ينم عن الحذر والخداع معا ، فلم يرض عن مسلك البارون - دي رنج - قنصل فرنسا العام لما ابداه من عطف على حركة الضباط وتدخله لدى الخديو لانصاف الضباط الوطنيين ، فطلب بالاتفاق مع رياض باشا من حكومة فرنسا عزله ، فغادر مصر في اول مارس سنة ١٨٨١ (على كره من الضباط الوطنيين - كما يقول الرافعي - وكان نقله انتصارا لوزارة رياض ، وقد اغتبطت السياسة البريطانية لهذا النقل ، لأنها كانت ترى في البارون - دي رنج - عاملا مناوئا لها ومؤيدا للحركة الوطنية في مصر) (٣) .

وفي هذا ما يؤيد ما قلته عن رياض باشا وأنه عميل بريطاني . وقد كان من لقاء عرابي بالخديوي في عابدين ما ينم عن الكياسة والتقدير من جانب عرابي في حديثه مع الخديو ، وهو ما يرويه عرابي ، بقوله في « حديثي مع الخديو » : (حتى اذا توسط الساحة طلبتني فتوجهت اليه لأعرض مطالب الأمة ، وكنت راكبا جوادي وسيفي في يدي ، ومن خلفي نحو ثلاثين ضابطا ، فلما دنوت منه صاح إلي أن ترحل وأغمد سيفك ، ففعلت . . . ولما وقفت بين يديه خشيت بالسلام خاطبني بقوله : ما هي أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ فأجبتة بقولي : جننا يامولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة - فقال : وما هي هذه الطلبات ؟ فقلت : هي اسقاط الوزارة المستبدة ، وتأليف مجلس نواب على التسلسق الاوربي ، وابلاغ الجيش الى العدد المعين في فرمانات السلطانية ،

والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها ، فقال :
كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن
أبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد احساناتنا ، فقلت : لقد خلقنا
الله أحرارا ، ولم يخلقنا ثراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو
اننا سوف لا نورث ، ولا نستعبد بعد اليوم ! (٤) .

وبقدر ما كان من كياسة عرابى وفطنته ، كانت رعايته للتقاليد
والأصول المرعية ، فقام بأداء التحية العسكرية للخديوى ، وأطاع
ما أمره به من اغماء سيفه أما الجنود وهم لا يتلقون أوامره الا
من قائدهم المباشر فلم يلقوا بالا الى أمر الخديو ، وفى خطاب عرابى
له يقول : (جننا يامولاي) فلما قال له الخديو : (ما أنتم الا عبيد
احساناتنا ، كان رده تعبيراً عما جاء من أجله ، فيقول ، قولته
المشهورة - كما ذكرنا من قبل .

ولعل ما فات عرابى - كما أرى - أنه لم يبادر بعزل الخديو ،
وكان من اليسير أن يجد التأييد من الدولة العثمانية ، كما يجد فى
الموقف الدولى والتنافس بين انجلترا وفرنسا سندا ، يجول بين
بريطانيا والمغامرة ، وقد اتخذت من انحياز توفيق ، لها سندا فيما
سلكته من بعد ، وقد رأينا ما كان من خذلان الدولة العثمانية
لاسما عيل واصدارها الأفرمان بتولية توفيق ، وهو ما يعنى التسليم
لها بسيادتها ان لم يكن نفوذها على مصر ، فعندما (حدثت واقعة
قصر النيل رأت الحكومة التركية فى هذه الحادثة - كما يقول
الرافعى (٥) - فرصة جديدة للتدخل فى شئون مصر ، وانتحال حق
الإشراف عليها ، فقررت ارسال لجنة الى مصر للنظر فى الحوادث

(٤) مذكرات : الجزء الأول ص ٧٨ (حديثى مع الخديو) .
(٥) الثورة العربية : ص ١٦٧ .

الأخيرة وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثماني ، وهو مؤلف من على نظامي باشا سر ياور السلطان عبد الحميد ، وعلى بك فؤاد من أعضاء مجلس شورى الدولة ونجل عالي باشا الصدر الأعظم المشهور ، وفي معيتها قدرى بك ، وصقر أفندى ، وسيف الله أفندى من ياوران السلطان) .

ويعضى الرافعى فى سرد قصة الوفد العثماني ، والتعليق عليها ، فيقول : (تحرك هذا الوفد من الأستانة يوم ٢ أكتوبر سنة ١٨٨١ قاصدا الى مصر ، ولم يسبق تأليفه مخابرة بين حكومة الأستانة والحكومة المصرية ، حتى يعرف مقصدها من ايفاده ، بل فوجئت البلاد بتلغراف من الأستانة ينبىء بقيام هذا الوفد) .

ويقول الرافعى فى تجريح مسلك تركيا والحملة على السلطان عبد الحميد ، وما كان من سلوك كل من الدولتين فرنسا وانجلترا حيالها وقيامهما بمظاهرة بحرية واتفاقهما على (أن تعود البارجتان من الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثماني أرض مصر) وقد أغفل مايمكن أن تفيده مصر من التنافس بين الدولتين فرنسا وانجلترا على النفوذ فى مصر ، كما أغفل أن الاحتلال البريطانى لمصر لم ينكر السيادة العثمانية على مصر ، فلم تلغ الا بعد اعلان الحماية البريطانية على مصر وعزل الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩١٤ .

أما عرابى فيقص فى مذكراته - ما لقيه الوفد العثماني من جفاوة وكيف (أطلقت مدافع السلام من واور محمد على وطابية رأس التين ، كما أدبت التحية من بقية المراكب المصرية الراسية فى الميناء ، وتوجه ذو الفقار باشا سر تشريفاتى خديوى ومعه المحافظ ومأمور الضبطية وفريق الأليات الاسكندرية ووكيل البحرية الى الواور - طلعت - وبلغوا حضرات القادمين سلام الخديو (الخ)

ويقول عرابى: (مكث رجال الوفد فى مصر بضعة عشر يوما
أقيمت لهم فى خلالها المآدب الفاخرة ، أما الخديو فقد أكد لهم بأن
الجيش على طاعته ، وأن ليس فى مصر ما يوجب الاضطراب . .
وفى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٨١ سافر الوفد الشاهانى الى الاسكندرية
مقتنعا بما رأى وسمع ، وفى صباح اليوم التالى أقلته البارجة
- طليعت - الى الآستانة ، وقد أطلقت المدافع ايذاننا بسفرهم
واجلالا) (٦) .

ويعنى هذا ما للدولة العثمانية على مصر من حق السيادة
رغم ما كان من سعى الخديو للاستقلال عنها ، وأكثر من السيادة
أنها حاضرة الخلافة الاسلامية ورغم ما نالها من ضعف وخلل
السلطة بقيت لها مكانتها بين السواد الأعظم من المسلمين فى العالم
سامقة الذرى .

وبعد هذا الوصف الذى ساقه عرابى لما لقيه الوفد من حفاوة
يقول : (علم الجميع أن مجيء الوفد الشاهانى هو لتحقيق التمرد
العسكرى الذى أشاعته أوربا لتجعله وسيلة لتتدخل فى افساد ماتم
من الاصلاحات فى القطر المصرى ، ولقد هاجت الأفكار واضطربت
خواطر رجال الاستبداد واوجس الخديو من جراء ذلك شرا ، فاتفق
مع الوزارة الجديدة على أن لا يسمح لرجال الرقود المذكور بمقابلتنا ،
وأن يعترف الخديو بأن لا تمرد ولا عصيان فى الجيش ، وأن الجيش
على طاعته ولا موجب للاضطراب ، وأنه يلزم ارسال الألاى
السودانى الى دمياط ، والألاى الرابع حكمداريتى الى رأس
الوادي) .

وعندما جاء الوفد العثمانى الى الاسكندرية يوم الخميس

٦ أكتوبر سنة ١٨٨١ ووصل أعضاؤه القاهرة مساء اليوم نفسه وقبل ذلك كان شريف باشا قد ألف وزارته في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ واختير البارودي وزيرا للحربية والبحرية ، وهذا كل شيء ولم يجد الوفد العثماني عند وصوله ما يحمله على التدخل . بل أن عرابي نفسه نزل على أمر الخديو في عدم مقابلة الوفد ، ولا يفسر عرابي ما ذكره من أمر الخديو بأنه (يلزم إرسال الألاى السودانى الى دمياط والألاى الرابع حكمداريتى الى رأس الوادى . . هذا ماتم الاتفاق عليه بين الخديو والوزارة ، وقد أخبرنا ناظر الجهادية محمود سامى باشا بكل ذلك فوافقنا عليه مبدئيا تطمينا للنفوس وتسكينا للقلوب ، ولكن على شرط صدور أمر الخديو بانتخاب النواب قبل سفرنا) (٧) .

بينما يرى الراقى . (أن رغب شريف باشا فى نقل زعماء الحركة من القاهرة الى الأقاليم لكى يخفف ضغط الحزب العسكرى على الحكومة ، ويحقق مبدأه الذى تولى الوزارة على أساسه وهو ابعاد الجيش عن السياسة جهد المستطاع ، وقد أقنع عرابى وصحبه بأن مصلحة البلاد تقضى بابعاد الألايات التى يتولون قيادتها عن العاصمة حتى تهدأ الخواطر . . ويضيف ان (زاد فى حجة شريف باشا ارسال الحكومة التركية وفدا الى مصر . . لتحقيق أسباب تمرد الجيش وخروجه على الخديو . . ولكى يمنع الاتصال بينهم وبين الوفد العثمانى القادم فلا ينفصح المجال أمامه للفساد والتفرقة فاقتنعوا بهذه الحجة ، واستقر رأى وزارة الحربية على نقل الألاى عبد العال حلمى الى دمياط ، والألاى عرابى الى رأس الوادى بالشرقية . .)

(٧) مذكرات : الجزء الأول ص ٩٠ - ٩١ .

ويصف الرافعي ما لقيه سفر الآلايين الى مقرهما الجديد من
حماسة الأهليين وعواطفهم نحو الجيش .. الخ ..

ويضيف : (أنه في الفترة الوجيزة التي أقامها عرابي برأس
الوادي كان محفوقا بأعظم مظاهر التكريم والتمجيد ، ولا غرو فان
ما تم على يده من سقوط نظام الحكم الاستبدادي وانبثاق نور الحرية
والدستور ، ووجوده في المديرية التي هي مسقط رأسه ، كل ذلك
من شأنه ان يبعث الحماسة في نفوس الأهليين ويجمعهم على محبته
وتمجيده) (٨) . ترى لو أن عرابي قد انتهب هذه المبادرة ، وقد رأى
اجماع الجند والشعب على زعامته وأقدم على عزل الخديو أما كان
ذلك أجدي وأوفق - كما قلت - الا أن عرابي كان أقرب الى المهادنة
منه الى المغامرة وكانت الوطنية زاده دون المغامرة السياسية ، وكان
وطنيا عظيما دونه سياسيا مغامرا ، وان كان صاحب الفضل الأكبر
فيما انتهت اليه مصر في ثورتها العظيمة سنة ١٩١٩ .

(٨) الرافعي : الثورة العرابية ص ١٥٢ - ١٥٦ .

١/٨ اللعبة الكبرى

وكانت اللعبة الكبرى أبعد من أن يعيها اللاعبون على المسرح في سياسة مصر الدخلية ، وأولهم الخديو توفيق بخبثه ومكره ، وأخيرا بخيائته حين أخذ جانب الانجليز حماية لعرشسه ، فذهب مذموما بل وملعوننا في تاريخ مصر الحديث ، ولا نغفى شريف باشا بأصالته ونبله فيما ذهب اليه بصدقه وإيمانه بحق مصر في حياة دستورية سليمة . .

كان عرابى قد تسلم القمة في زعامته (١) الوطنية، وقد بدا ذلك جليا حين استجاب لراى شريف باشا في الابتعاد عن مركز الأحداث في القاهرة ، وأرتحل بلوائه الى رأس الوادى ، وحدث حينذاك مايمكن أن يكون نذيرا بما يمكن أن يحدث ، وهو ماحدث فعلا فيما بعد حين تطورت الأحداث الى مصيرها الباغى ، إذ لم ترض الدولتان انجلترا وفرنسا عن حضور الوفد التركى الى القاهرة ، وكان أن أرسلتا بارجتين الى مياها الاسكندرية ، فلا تبرحانها الا بعد مغادرة الوفد التركى أرض مصر ، وكان أن غادرتا الميناء غداة سفر الوفد

(١) الثورة العرابية ص ١٧٠ .

التركي يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ ، ويقول الرافعى أنها (كانت أول مظاهرة من هذا النوع ، والمظاهرة الثانية وقعت فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ ، ويلاحظ أن البارجة انفسـبل هى احدى البوارج التى اشتركت فى ضرب الاسكندرية يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢) .

ومما هو قمين بالاشارة أن الخديو توفيق لم يكن راضيا عن تسليمه بمطالب الجيش وتأليف وزارة شريف باشا الثالثة (فأبرق سيرا الى الأستانة يستنجد يوم عابدين وهذا هو نص البرقية : حيث أن عرابيا رأس الفساد قد استتبع أكثر العساكر المصرية فتابعوه باى وجه كان - كما عرضت اليوم - حتى أحاط وحاصر الآن بالعساكر قصر عابدين الذى أنا مقيم فيه ، وأخذ يطالب بالحرية وتشكيل مجلس الحلة وتبديل هيئة النظار ، فبالنظر الى أن اصلاح هؤلاء جاوز حد الامكان أرجو ارسال عشرين طابورا من العساكر على جناح السرعة على أن يكونوا تحت قيادتى والأمر فى هذا الشأن لمن له الأمر . . . غير أنه بعد تأليف وزارة شريف وانتهاء الأزمة ، عاد بناء على رأى مستشاريه من الأجانب ، فأبرق الى الباب العالى يحيطه علما بانتهاء الأزمة ، وتولى شريف باشا زمام الحكم ويرجو عـرف النظر عن ارسال العساكر) (٢) .

وحين نزل عرابى على رأى شريف باشا وغادر القاهرة الى رأس الوادى كان قد تسنم القمة - كما قلنا من زعامته الوطنية - يتعهد بها أحمد شفيق باشا فى - مذكراتى فى نصف قرن - وهو من رجال الخديو وحاشيته ، فيقول :

(٢) أحمد حسين المصدر السابق ص ١٠٧١ نقلا عن بعض وثائق تاريخية انتقاما وأمر بطبعها وترجمها الأمير محمد على بن توفيق عام ١٩٤٨ .

(انقلبت مصر مسرحا للخطباء فى كل مجتمع و زاد حتى فى المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر ، أو الاحتفال بعرس أو غيره الا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد اقصائهم عنها وغيرهم ، حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المافى الشهير كان اذا سئل فى أى فرح تغنى الليلة ؟ أجاب فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم - خطيب الثورة - وكثيرا ما كان الخطيب يستصحب معه طلبة المدارس ، وبعد خطابته يقدم أحدهم الى الجمع ليخطب بجانبه فينبى الطالب مثيرا فى الحاضرين الغيرة والحمية ، وقد شهدت عبد الله النديم يقدم فتوى أفندى زغلول (باشا) فيما بعد - الطالب بمدرسة الحقوق ليخطب فى حفلة .

وقدم فى مرة أخرى فى إحدى الحفلات مصطفى أفندى ماهر (باشا) فيما بعد - فخطب فى القوم وراقتهم خطبته . فقال عبد الله نديم : اسسهدكم أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها) .

ويمضى أحمد شفيق باشا ، فيقول :

(وكان عرابى والبارودى ، وعبد العال حلمى . وعلى فهمى وغيرهم من زعماء الحركة يحضرون أكثر هذه الحفلات ويتصدرونها فتلقى الخطب والقصاصد فى مدحهم وتقدير مناقبهم ، ولا ينصرفون عنها الا بالتهليل والتكبير فإذا انتهت خسرج الناس منها وكأنهم أهل سياسة ورياسة ، وأصبح الناس كلهم عرابى وأصبح عرابى الناس كلهم . . وانحلت الطبقات واختلط الحابل بالنابل والعالى بالسافل .

وقد كان عرابى يمثل فى شكل البطل المنقذ ، وقد وزعت صورته فى انحاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة ، وعلى رأسه عبد العال قابضا على سيفه وإلى جانبه على فهمى يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها (الدستور -)

(وهكذا سرت الروح العرابية فى الأمة بأسرها وجعلت كل الطبقات فى صعيد واحد ممتزج بعضها ببعض) انتهى كلام شفيق باشا .

ويمضى أحمد حسين فى موسوعته لينقل - تصور مستر بلنت - فيما يلى :

(كانت الأشهر الثلاثة التى أعقبت هذه الحادثة الشهيرة - حادث عابدين - من أسعد الأوقات التى مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسرنى ما حظيت بمشاهدتها بعينى رأسى ، ولو أنى كنت سمعت بها سماعا لشككت فيها ، وعندى أنها لم تكن لها شبيهة فى تلك الأيام التى رأيتها فى مصر ، وأخشى أن تكون مقطوعة النظير فى الأيام التى يمكن أن أراها فيها ، فجميع الأحزاب الوطنية وجميع سكان القاهرة اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية ، وقد شاركهم الخديو فى ذلك على ما ظهر يومئذ للناس ، وكان قد سر بعد الأزمة بنجاح دسيسته ضد رياض والمراقبة الثنائية البغيضة . وقد وثق بأن شريف لابد أن يخلصه عاجلا أو آجلا من عرابى ٠٠)

(ثم أن شريفا وزملاءه من وجهاء الأتراك لم

يكونوا أقل سرورا بعودة السيطرة اليهم ، بل أن الأتراك
الرجعيين أنفسهم قد سرورا بما سموه انتصارا على
أوروبا) ٠٠

(وتصاعدت من أنحاء مصر صيحة فرح وسرور
لم يسمع بمثليها على جوانب النيل منذ مئات السنين
وقد حدث فعلا أن الناس كان يستوقف بعضهم في
شوارع مصر ويتعانقون على غير تعارف سابق ،
ويبتهجون معا لعصر الحرية المدهش الذي بدا لهم فجأة ،
كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل ، وكانت الصحافة
قد أسرعَت تنشر الأنباء السارة وقد حررتها رقابة
الشيخ محمد عبده المستنيرة من قيودها السابقة ،
واستطاع الناس أن يجتمعوا ويتكلموا بلا خوف أينما
شاءوا في الأقاليم ٠٠

وبلا وجل تدخل البوليس والجواسيس ، وقد سرت
عدوى السرور الى كل الطبقات ، فالمسلمون والمسيحيون
واليهود قد سرورا جميعا ، وشاطرهم السرور جماعة
الأوربيين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالحياة الوطنية ،
وقد اعترف القناصل الأجانب أنفسهم بأن العصر الجديد
خير من العصر القديم ، وان رياضا قد أخطأ وأن أعمال
عرايى اذا لم تكن كلها سديدة فليست كلها أخطاء) ٠

ويقول بلنت أنه تعرف على أحمد عرابى فى تلك الفترة - ١٢
ديسمبر - (وعرض عليه صداقته فقبلها ، ومن ثم أصبح مسيئارا
لعرايى فى الشئون السياسية وبخاصة علاقة مصر ببريطانيا) ، ويرى
أحمد حسين (أن هذه الصداقة كان لها أثر مزلل اذ حجبت الرؤيا

عن عرابى ، وجعلته يطمئن ويركن الى ما كان صاحبه بلنت يعده
به ويمنيه (٣) .

أما وقد رأينا من حديث شفيق باشا ، وما كان من رأى بلنت
فان علينا أن نعرض لما كان من حفاوة الشعب بعرابى فى سفره الى
الوادي الجديد وقد سبقه سفر الألاى السودانى الى دمياط ، ويقول
عرابى (٤) :

(سافر عبد العال بك حلمى بالألاى السودانى الى
محطة السكة الحديدية مارا بوسط المدينة ، وكان قد
سبقه اليها معظم ضباط الجيش وضباط البوليس للقيام
بواجب التوديع . وكان عدد الحضور غير قابل للعد
والأحصاء ، ولما وصل الألاى المذكورة الى المحطة أخذ
عنانى بك من أعيان القاهرة ينثر الورد والرياحين
على رؤوس العساكر وقد سقى الناس شرابا سكريا فى
ذلك اليوم اكراما للجيش المنقذ للبلاد من هاوية
الاستبداد ، وكنت حينذاك مع ناظر الجهادية محمود
سامى باشا فى جملة المودعين وتلا كل من محررى
جريدتى الطائف والمقيد - السيد عبد الله النديم والسيد
حسن الشمسى - خطابا تضمن المدح والثناء علينا وعلى
هيئة الجيش ... الخ ..

(وفى ٨ أكتوبر سنة ١٨٨١ تاهبت للسفر الى رأس
الوادي ، وكان قد صدر الأمر العالى بانتخاب الذواب
قبل ذلك بأربعة أيام . فمررت بالألاى فى وسط مدينة

(٣) المصدر السابق ص ١٠٧٦ .

(٤) مذكرات الجزء الأول ص ٩١ .

القاهرة المحروسة من باب النصر والموسيقى العسكرية
تعزف فى مقدسة الألى) •

وما أن ينتهى عرابى وبعض الضباط من زيارة المقام الحسينى
والدعاء أن يوفقه الله لما فيه خير البلاد ونفع العباد ، (ثم خرجنا
وسرنا بالألى على الهيئة السالف ذكرها) :

(وكانت الشوارع ممتلئة بالمودعين والمتفرجين الى
أن بلغنا محطة السكة الحديدية ، وكان قد سبق اليها
جميع ضباط الجيش المصرى ورؤسائه وكثير من الذوات
والتجار وعامة الناس ، وبالجمله فان هذا الاحتفال كان
فى ذلك اليوم مما لم يسبق له مثيل فى مصر ، فقامت
فى الحاضرين خطيبا قبل سفرنا) •

ويتناول عرابى فى خطابه هذا ما قامت حركة الجيش
من أجله ، ويذكر الخديو بالخير فيقول : (وقد ساعدتنا العناية
الالهية ومنحنا - مولانا وأميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة
المستبد علينا السائر بنا فى غير طريق الوطنية ، وتمتعنا بمجلس
الشورى لتتظروا الأمة فى شتونها وتعرف حقوقها كباقي الأمم المتقدمة
فى العالم •• فالآن ننادى بصوت واحد - فليعيش الخديو واهب
الحرية ، فليعيش بالجيش المصرى طالب الحرية ، فليعيش الحرية فى
مصر خالدة مؤبدة) •

ويصف مالى من حفاوة فى كل محطة مربها (الى
أن دخل القطار محطة الزقازيق فاستقبلنا فيها جمهور
الأهالى والتجار يتقدمهم أمين بك الشمسى وهتفوا لنا
وللجيش بالدعاء وعلى وجوههم علامة الفرح والسرور ،
ولما وقف القطار نثروا على العساكر الورد والازهار
العطرية وسقوهم الأشربة السكرية) •

ومع ما يبدو من محاولة عرابي ترضية الخديو والتنويه بطاعته فيقول ما سبقت الإشارة ، فإن أحدهما لم يكن يثق بالآخر ، وليس لذلك من تفسير إلا أن عرابي لم يكن يجب أن يلجأ الى مواجهة عنيفة أو لأنه يدرك أن توفيق يجد السند من الانجليز ، وهو ما يخشاه فحذر المبادرة وكان أولى به أن يبادر قبل أن يبادر ، وأن تكون المبادرة منه قبل أن تفرض عليه ، كما حدث من بعد - كما أشرت من قبل ، وكان ما كان .

كان عرابي قد تسنم الذروة من حب المصريين واجتماعهم على زعامته ، فلم يحاول أن يفيد منها ، فيقول في صدد عودته الى القاهرة من الوادي الجديد :

(بلغ الحكومة من جواسيسها أنى أتجول في أنحاء مديرية الشرقية لبث مبادئ وأفكارى فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان ، حاضا على وجوب مؤازرتى فى مشروعاتى الوطنية ، وأن كثيرا من المظلومين يأتون لى شاكين من ظلم الظالمين فأجبت طلبها) (٥) .

ويبدو أن عرابي - كما قلت - كان مثاليا أكثر منه واقعيا ، وكان وطنيا أكثر منه سياسيا ، ويذكر بعد عودته الى القاهرة كيف أصبحت داره محج (الزائرين والمتظلمين من أرجاء البلاد وأكنافها ، حتى كانت ساحة منزلى لاتسع الزائرين والمتظلمين ، وكان كثير من الأوربيين ومكاتبى الجرائد الأفرنكية والوطنية يحضرون الى منزلى لاستطلاع سياساتى والوقوف على مكنونات أفكاسارى بحيث كنت فى تعب دائم ليلا ونهارا) ويقول لهم : (وانا لا نريد إلا الحرية وقطع عروق الاستبداد ، وقد تم لنا ذلك بتأليف مجلس نيابى وبرضاء واستحسان الخديو ، وقد التمسيت من الخديو فى تلك المدة بواسطة ومساعدة

(٥) مذكرات : الجزء الاول ص ٩٨ .

ناظر الجهادية ورئيس النظار الافراج عن المسجونين ظلما فى مدة الاستبداد فأجيب القماسى ، وكان من ضمن أولئك المسجونين أحمد بك أبو ستيت من مديرية سوهاج ، والسيد حسن موسى العقاد من أعيان العاصمة ، وكانا منفيين الى السودان ظلما وعدوانا ، ولما قدم السيد حسن موسى العقاد أقام الأفراح وأولم ولأئم كثيرة لضباط الجيش وأعيان العاصمة تعد من ليالى مصر المشهورة ، وفى تلك المرة أيضا أنشئت جرائد وطنية صادقة منها جريدة الحجاز ومحررها السيد ابراهيم سراج المدنى ، وجريدة المقيد ومحررها السيد حسن الشمسى ، ولسان الأمة ومحررها السيد عبد الله نديم ، وكان موضوعها سياسيا تهذيبيا للذب فى حقوق الأمة (٦) .

وكان عرابى - كما يبدو - يميل الى المسالمة ويأبى التطرف - ولا أقول يخشاه - وقد حدث أوائل شهر يناير سنة ١٨٨٢ - وكان عرابى فى قمة مجده وزعامته والتفاف الشعب حوله ، (أن خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى ناظر الجهادية ، فأطنب فى الثناء على لقيامى بنشر راية الحرية فى مصر وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى قيود الاستبداد، ثم أقسم انه مستعد لأن يضحي حياته ويجود بآخر نقطة من دمه فى تنفيذ رغبتى ، ويجرد حسامه ويناوىء ما سدى خديويا لمصر اذا رغبت فى ذلك .

فقلت له : مه يا محمود باشا ، فأنى لا أريد الا تحرير بلادى ولا أرى سبيلا لنوالنا ذلك الا بالمحافظة على الخديو ، كما صرحت بذلك مرارا وتكرارا . وليس بى طمع أصلا فى الاستئثار بالمناقع الشخصية ولا أريد انتقال الأريكة الخديوية الى عائلة أخرى لما فى ذلك من الضرر مع علمى بأنك تنتسب الى الملك الأشرف

(٦) المصدر السابق ص ١٠٠ .

— سيربای — فقال : أنا لا أقول لك الا حقاً ، وأنت أحق بهذا الأمر
منى ، ومن غيرى •

فشكرته على ثقته بى وتم الحديث) •

وان كان عرابى — كما يبدو — قد فكر فى عزل الخديو مالم
يسلم بطلبات الجيش فى حادث عابدين — كما جاء فى عنوان
مذكراته — كدنا نعزل الخديو (٧) — وان لم يدل بتفصيل الا ما كان
من حديثه مع — المستر كلفن المراقب المالى الانجليزى ، وقد جاء
بالنيابة عن الخديو كرسول من طرفه — ويقول لعرابى : — علمت
من كلامك أنك ترعب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ
عنه ضياع بلادكم وتلاشيها •

ويرد عرابى : (وكيف يكون ذلك ومن ذا الذى يعارضنا فى
أحوال داخلتنا ، فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد
المقاومة ، الى أن نفنى عن آخرنا •• وعند الاقتضاء يمكن أن نحشد
مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم ، يستمعون قولى ويلبون
اشارتى) ••

وأول ما يكون من ذلك فى مثل هذه الأمور قطع رأس الحية
— والحية هى الخديو أساسا • وهو ما كان من عرابى ، حين تأزمت
الأمر بينه وبين الخديو ، وبدأ منه انحيازه للانجليز واستعانتهم بهم ،
وهو ما تعرض له فى حينه ، وقد رأى حينذاك عزل الخديو ، (وكانت
فكرة عزل الخديو قد أصبحت دعوة عامة يدعى اليها ، حتى وصل
الأمر الى حد أن الشيخ عيسى شيخ الأزهر أصدر فتوى رسمية بأن
الخديو لم يعد يصلح أن يكون واليا على المسلمين ، ويجب
خلعه) (٨) •

(٧) مذكرات : ج ١ ص ٨٠ •

(٨) أحمد ديدات : المصدر السابق ص ١٠٨٧ •

١/٩ - المسحوة الكبرى

من الخطأ أن نحكم على الثورة العربية أنها ثورة جند من أجل المساواة بينهم وبين أندادهم من الترك والجرکس فى الحقوق والامتيازات ، فانها وان بدأت تلك البداية الا أنها انتهت بالمطالبة بحق الأمة فى الدستور والحكم النيابى والمساواة التامة فى الحقوق والواجبات ، تلك المساواة التى يكفلها الدستور كما يكفل العدالة للجميع أمام القانون .

ولم تكن الحركة الدستورية حركة العسكريين فقد سبقهم اليها أعضاء مجلس شورى النواب ، وكانوا صنفوة أعيان الأمة ، فاستطاعوا ان يظفروا بتحقيق مبدأ المسئولية الوزارية سنة ١٨٧٩ وذلك فى كتاب الخديو اسماعيل الى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة ، وهى الوزارة التى أنيط بها وضع دستور للبلاد يحقق مطالب الوطنيين ، وان لم يتج للدستور الذى وضعه أن يرى النور ، اذ خلع اسماعيل قبل أن يصدر المرسوم الخديوى به ، وبعد خلعه ببضعة أيام صدر القرار بفض مجلس شورى النواب ، واستمر

(١) راجع فى هذا المصدد كتابنا - أحمد لطفى السيد - الفصل الأول (حيوية التغير) ص ١٣ وما بعدها .

معطلا مدة عامين حتى عاد على أيدي العراقيين في ديسمبر سنة
١٨٨١ •

ولم يفرط هؤلاء النواب فيما يظنونه حقا من حقوقهم الدستورية حتى وان كانت الحكمة تقضى بالتريث في كسبه ، فحين رأوا اعتراض الانجليز والفرنسيين على ما نص عليه الدستور الجديد الذي وضع في عهد توفيق من حق النواب في نظر الميزانية وأقرارها ، ورأى أن الحكمة تقضى بالأغضاء عن هذا الحق حتى لا يصطدم بالدولتين اللتين تتحرشان بالبلاد ، تمسك النواب بحقوقهم كاملا ، ورفضوا الانصياع لرأى شريف مما أدى الى استقالته وتأليف وزارة البارودي واقرار الدستور بالشكل الذي أرادوه عليه كاملا غير منقوص •

فالحركة الدستورية قد بدأت قبل أن تبدأ الحركة العراقية ، وكان الأعيان من أعضاء مجلس شورى النواب قادتها وعدتها ، وحظيت بتأييد الخديو اسماعيل رغم استبداده وميله الى الحكم المطلق ، ولكن العوامل التي حملته على تأييد مطالب الوطنيين كانت أقوى من كل نزعة تساوره نحو الاستبداد والحكم المطلق ، فقد رأى السلطة تخرج من يديه ، ورأى النفوذ الأجنبي الممثل في الوزيرين الانجليزي والفرنسي يقضى على نفوذه وانفراده بالسلطة ، ورأى في معارضته الوطنيين للنفوذ الأجنبي سندا له أمام هذا النفوذ ، فانهاز اليها وسار في تيارها ، وهو نفس الاتجاه الذي سار فيه الخديو عباس الثاني في بداية حكمه ، حين رأى كرومر يستأثر بونه بكل نفوذ وسلطان في البلاد فسار في تيار الحركة الوطنية مؤيدا للزعيم الشاب مصطفى كامل ، علما تصل به الى استعادة نفوذه اذا ما انجاب النفوذ الانجليزي عن البلاد ، ثم انقلب عليها حين رأى الاحتلال يمد له في سلطانه بعد الوفاق بينه وبين جورست وقد حل محل كرومر قنصلا عاما لبريطانيا •

ولم تكن تلك الحركة الدستورية التي بدت تسفر عن معالمها أخريات حكم اسماعيل ، وليدة الظروف التي ساقط اليها ، وأولها الأزمة المالية والتدخل الأجنبي ، بل انها أعمق جذورا من ذلك ، اذ ترجع الى ظهور طبقة جديدة من الأعيان المصريين أتيح لها أن تشارك مشاركة محدودة فى شئون البلاد عن طريق مجلس شورى النواب الذى كونه اسماعيل ليبدو فى نظر الغرب حاكما دستوريا مستتيرا ، كما ترجع الى حركة فكرية جديدة كان رائدها جمال الدين الأفغانى ، وغذتها صحافة ناشئة وشباب مستتير أخذ يلتف حول داعية الشرق العظيم ، كما كان لامتداد الموجة الغربية الى مصر واتصال مصر بأوروبا وظهور طائفة من الشباب تعلم فى الأزهر وفى المدارس الحديثة أثرها البعيد فى ذلك ، فقد أخذ هذا الشباب يعنى بشئون بلاده ، ويبرم بالسياسة العشوائية التى يسير عليها اسماعيل ولا يجد متنفسا لاعلان سخطه على استبداده وجوره ، وطموحه الخادع المخدوع الا فى مجالسه وندواته الخاصة التى وجد الأفغانى فيها أعظم منتدى لأفكاره وتعاليمه .

وقد تشيع اسماعيل للمطالب الدستورية حين قبل اللائحة الوطنية التى تقدم بها فى ابريل ١٨٧٩ ، على ما تذكر الوقائع المصرية (جمعية حافلة من حضرات أعضاء شورى النواب ، والعلماء الأعلام ، والذوات الفخام والأمورين الكرام ، ووجوه البلد وأعيان المملكة ومعتبرى الأهالى ممهورة بتوقيع ستين من أعضاء مجلس شورى النواب ، وستين من العلماء والهيئات الدينية وفى مقدمتهم - كما يقول الرافعى - شيخ الاسلام وبطيرك الاقباط وحاخام الاسرائيليين ، واثنان من الأعيان والتجار ، واثنان وسبعون من الموظفين العاملين والمتقاعدين ، وثلاثة وتسعون من الضباط ، وكان على رأس تلك الحركة شريف باشا التركى الأصل بينما وقف رياض باشا - المصرى الأصل - كما يقال زورا وادعاء -

لا يتشيع لها ولا ينصرها ويماليء للنفون الأجنبي ويقره على التخلص
من مجلس شورى النواب (٢) .

ويذكر عرابي في مذكراته أن مطالب الضباط لم تكن قاصرة
على انصاف رجال العسكرية المصريين ، بل عدتها الى المطالب
الدستورية ، وان كان الرافعي يشكك في هذا ويرى أن عريضة
الضباط كانت قاصرة على المطالب العسكرية الا أن هذا لا ينفي
تفكير عرابي وزملائه فيما تجيش به نفوس المصريين من عواطف
وانفعالات ، وقد رأى وشهد وأحس من تأييد المصريين في غدوه
ورواحه ما تجيش به نفسه منذ أحس بها ولسها - كما يقول في
مذكراته - في كلمة سعيد باشا في المأدبة الكبرى التي أقامها بقصر
النيل - مما سبقت الإشارة إليها . وقد بقيت كامنة في وجدانه
يوري خسرانها مالقى من بعد في عصر اسماعيل . مما ينفي ماذهب
اليه الرافعي . وغدت عبارة - مصر للمصريين - نبض حياته ،
وقوام ثورته . .

وما كان لعرابي أن ينمثل تلك الكلمات ويعيها طوال تلك السنين
التي سبقت قيامه بحركته ما لم يكن مؤمنا بها في قرارة نفسه ، إيمان
كل مصري بها ، فأن عبارة - مصر للمصريين - قد غدت بعد ذلك
شعار القومية المصرية ، ذلك أن مصر لم تكن ملكا لبنيتها ، بل ملكا
لأسرة تحكمها وتستأثر بخيرها منذ حكمها محمد علي ، وجعل منها
ضيعة لأسرته وحاشيته ومن اصطفاهم من غير المصريين - كما بينا
من قبل .

(٢) المؤلف : احمد لطفى السيد استاذ الجيل : الفصل الاول - حيوية
التغير ص ٣٢ وما يلي وكذلك الرافعي : عصر اسماعيل ج٢ ص ٢١٤
وما بعدها .

ولم تكن المطالب الدستورية الا أداة لتحقيق المساواة بين المصريين والأتراك ، وحين استشرى النفوذ الأجنبي ، تشجيع لها لانقاذ بلادهم من المؤامرة الاستعمارية التي توشك أن تطبق على بلادهم ، وللقضاء على امتيازات العناصر التركية والخديو والأتراك للبقاء على نفوذهم الذي يوشك أن يضيع أمام التدخل الأجنبي .

وكان الأعيان والمثقفون والضباط المصريون هم رواد تلك الحركة وزعمائها ، وما كان لتلك الحركة أن تبدأ ما لم تستكمل طبقة الأعيان كيانها الاجتماعى ، وجماعة المثقفين كيانهم الفكرى ، وما لم يصل الضباط المصريون الى مناصب القيادة فى الجيش .

وقد عرفنا كيف قضى محمد على ، على الأعيان والثروة المصريين وحال بين المصريين ومناصب القيادة فى الجيش ، واعتز عليهم حتى بمناوئيه من بقايا المماليك ، وحال بين المصريين وبين مناصب القيادة فى الجيش ، وقضى بذلك على أية معارضة يمكن أن تنشأ لحكمه واستبداده وحكم أسرته واستبدادها .

وكان أخطر ما قام به محمد على ، على المجتمع المصرى أنه قضى على الأسر المصرية القوية ، والعصبيات الريفية التى لانت بقطع الطريق وتحدثت سلطان الحكومة وقوتها . وكان فى البلاد غير طائفة الملتزمين التى قضى عليها باصدار قانون فك الزمام ، وخاصة فى المدن طائفة ثرية من أصحاب الحرف والصناعات ، قضى عليها هى الأخرى باحتكاره الصناعة فتدهور حالها وأملقت بعد يسر ، وانطوت فى جموع الأجراء والعمال .

وأصبحت مصر فى عهد محمد على وليس فيها من المصريين من يتمتع بجاه أو ثراء ، وآل الأمر كله لأسرته ، ومن اصطفتهم من طوائف الترك ، ومن قريبهم من الأجانب ، فأصبحوا هم وحدهم من

يملكون ومن يحكمون..، فهم أصحاب الضياع الممتدة من الجبال والوسايا، بل والأبعديات التي آثر بها جنوده والزمهم بسكنى الريف والقيام بزراعة الأرض واستثمارها دون تأجيرها وإن استخدموا الأجراء من الفلاحين في زراعتها .

ويصف الشيخ محمد عبده، ما أصبحت عليه مصر بقوله في مقال طويل سنة ١٩٠٢ (١) لمناسبة الاحتفال بذكرى مرور مائة

(١) اقترح الزعيم مصطفى كامل في مقال على صفحات اللواء بتاريخ ٢١ مايو ١٩٠٢ إقامة احتفال قومي كبير يوم ١٣ سفر سنة ١٣٢٠ هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) تذكارا لمرور مائة عام على اختيار زعماء الشعب محمد على واليا على مصر، قال في هذا الصدد تحت عنوان - العيد المئوي لمؤسس العائلة الخديوية - (خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات الى النور وخروجها من الجهالة الى العلم والحضارة، وارتقاءها في سبيل الحياة العالية وارتباطها بعائلة مملكة أجلستها على العرش بإرادتها وصافحتها للنهوض الى ذرى العلياء ونوال المن والنعماء واعتمدت عليها في ارشادها الى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التي يجب أن ترمي اليها . . وبعد أن أشاد بتاريخ محمد على - كما يقول الرافعي - وما قام به من جلائل الأعمال في سبيل انهاض مصر، دعا الى الاحتفال بالعيد المتبنى لولايته قائلا : وهذا سنة ١٣١٨ - ٣ فبراير سنة ١٩٠١ - فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافا بفضل محييها واجلالا للوطن نفسه الذي نهض في عهده نهضته الكبرى، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر، فخير ما يحيى الوطنية في النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطنى ولئلا هذا فاليعمل العاملون ويتنافسون) .

ويمضى الرافعي في كتابه - مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - في تأييد الفكرة - نوافقه عليها كل الموافقة - ص ١٦٠ - ١٦٦ . وكان ما كان من تعليق الامام محمد عبده .

سنة على ولاية محمد على على أريكة مصر ، نشر حينذاك فى مجلة المنار ، بعنوان - آثار محمد على فى مصر - وأعاد نشره السيد رشيد رضا فى تاريخه للأستاذ الامام .

وقد أشرت اليه فى كتابى - أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل - واقتطف الدكتور عثمان أمين ، أبرز ما فيه (يصور فيها الناقد الاجتماعى الجريء - ويعنى الشيخ محمد عبده - حال مصر قبل مجيء محمد على وبعده ، ويقدم فيها أسطورة أذاعها المنافقون عن مآثر محمد على وأفضاله على المصريين . قال رحمه الله :

(ما الذى صنع محمد على ؟)

لم يستطع أن يحيى ، ولكن استطاع أن يميت ، كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش ويمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه . . حتى اذا سحق الأحزاب القوية وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع رأسا يستتر فيه ضمير أنا) .

ويمضى الدكتور عثمان أمين فى اقتباسه من مقال الأمام حتى يأتى الى ختامه :

(ولا أظن أن أحدا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على - على بصيرته - أن هذا الرجل كان تاجرا زارعا ، وجنديا ياسلا ومستبدا ماهرا ، لكنه كان لمصر قاهرا ، ولحياتها الحقيقية معدما ، وكل

ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله
بخيره وحمانا شره (٣) .

ومن يمعن النظر فى تاريخ مصطفى كامل وكفاحه الوطنى
والسياسى يرى أنه كان يمضى فى طريقين وعلى نهجين ، يبدو
للنظرة العابرة إلا صلة بينهما ، وإن كانت الغاية واحدة ، وهى اعلاء
شأن مصر وتحقيق ما تنشده من رفعة واستقلال ، وقد رأى فى
نهجه السياسى أن يستغل اعلان بريطانيا أن احتلالها مصر موقوت
باقرار النظام والأمن ، وبقيت تعترف بتبعية مصر للدولة العثمانية ،
فأخذ يطالبها بالوفاء بعهودها مستعينا بفرنسا فى حملتها على
الاحتلال البريطانى لمصر ، ورأى من تأييد الخديو عباس حلمى
الثانى كل تأييد وعون .

ولكن الخديو عباس الذى أيقظ مصر من غفوتها وبعث فى
الشباب أملا جديدا بتصديده للاحتلال ومقارعته كرومر واصطفائه
للنابيين قد أدركته شيخوخة مبكرة ، فوهن عزمه ، وأخذ يستسلم
لكرومر ، ووهنت علاقته بالحركة الوطنية ، وزعيمها مصطفى
كامل فأخذ يبتعد عنه ، فما كان الخديو عباس بالنسبة له إلا عونا
له فى كفاحه السياسى ، وكان الخديو يدرك ذلك ويعيه ، ويعرف
— كما قال عنه فى مذكراته (٤) — أنه لا ينتمى إلا لذاته ، ويعنى أن
انتماءه لمصر يفوق كل ماعداه من اتجاهات نسبت اليه ، فما كان

(٣) دكتور عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده : ص
١٤٣ - ١٤٧ - بعنوان - اسطورة محمد على .

(٤) مذكرات الخديو عباس حلمى الثانى : جريدة المصرى فى ١٨ مايو
١٩٥١ ولم يكمل المصرى نشرها .

الخدو وما كانت الدولة العثمانية ، بل وفرنسا الا وسائل سياسية
تعيّنه على تحقيق بغيته فى تحقيق استقلال مصر واعلاء شأنها وان
تكون - مصر للمصريين - وقد خاب أمله فى كل منها ، ولكنه يبقى
كعهده شامخ الرأس لا يلين . ولا يستسلم وبقيت مصر للمصريين
غايته ومبتغاه ، فلا ترى من خطب مصطفى كامل وأحاديثه وكتابات
طوال حياته غير - مصر - فهى أغنيته وهى نبض حياته : فهى :
(بلادى ، بلادى لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمي
ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبي وجنانى ، فأنت ، أنت الحياة
ولا حياة الا بك يا مصر) .

ويقول : (ان لم أوان مصرى لوددت أن أكون مصرى) .

(ان مصر جديرة بأن تحب ، بكل قوة ، بكل عاطفة
بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة) .

ويتساءل : (هل يستطيع مصرى أن يهتم فى حب مصر ؟ مهما
أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو اليها جمالها وجلالها
وتاريخها ، والعظمة اللائقة بها ، ألا أيها اللائمون ،
أنظروها وتأملوها وطوفوها ، وقرأوا صحف ماضيها ،
واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق
الله وطننا أعلى مقاماً ، وأسمى شأنًا ، وأجمل طبيعة
وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء . وأعذب ماء
وأدعى للحب والشفغف من هذا الوطن العزيز ؟ أسألوا
العالم كله يجيبكم بصوت واحد : ان مصر جنة الدنيا ،
وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا أعزها
وأكبرها ، جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح فى حقها
وسلم أزمته للأجنى) .

(وقد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب

مستعبد كالشعب المصري ، مما لا يليق بانسان ولكن
أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لأحياء الأمة
التي سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ أى
رفعة يسعى الشريف اليها أسمى من أنه من شعب
كان أستاذاً لشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟)

(ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة
يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان) •

(الدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية هما
المؤديان الى تحقيق آمال الأمة المصرية ، فليكن معتقد
المصريين جميعا ، أن نجاة مصر لا تكون الا بهمس
المصريين ، وان ارتقاءنا موكل الى عزائمتنا ، فلنطلب
النهوض من أنفسنا ، ولنعمل له بالهمة والصدق
والاتحاد) •

وأخر ما كان من حب مصطفى كامل لمصر والمصريين ، ما كان
منه فى حادث دنشواى وكأنما أراد الله الا يختم حياته الا بنصر
عظيم ، فما أن صدر العفو عن منكوبى دنشواى فى ٨ يناير سنة
١٩٠٨ ، حتى وقع صريع المرض بعد ذلك بشهر ، ينتظر الموت - كما
يقول الدكتور هيكل - فى ثبات وصبر والأمة من حوله يخفق قلبها
فرقا على هذا الابن البار الذى انكى ضرام الوطنية فى شببيتها ،
فلما كان يوم ١٠ فبراير طبق الموت جفنى الزعيم الشاب وما يزال فى
مقتبل عمره ولما يبلغ الخامسة والثلاثين •

فى الثالث عشر من شهر يونية وقعت حادثة دنشواى التى
كان مقدرا لها أن تهز مصر كلها كما لم يهزها حادث من قبل، والتى
هدمت كل ما حاول اللورد كرومر أن يبنيه من جسور طوال ثلاث

وعشرين سنة بينه وبين الشعب بعامة والفلاحين أصحاب الجلابيب
الزرقاء بخاصة ، وقد كان مقدرا لهذا الحادث أن ينزل اللورد كرومر
من فوق عرشه ، وأن يرتفع بمصطفى كامل الى الذروة التي لا تعلوها
ذروة .

ويتلخص هذا الحادث في أن خمسة من ضباط الجيش
الانجليزى نزلوا لصيد الحمام بأجران دنشواى (واعترضهم
الأهالى ، وحدث تصادم انتهى بجرج أربعة من المصريين بينهم امرأة
وبإصابة بعض الضباط الانجليز فر من جرائها أحدهم فأصابته
ضربة شمس مات متأثرا بها ، وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة
المخصوصة التي شكلت بدكريتو سنة ١٨٩٥ لتتظر فى هذه القضية
وحكمت على أربعة من الأهالى بالاعدام ، وثمانية بالجلد ، وآخرين
بالأشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للإنسانية
بها منذ عصورها المظلمة ، فقد نصبت المشانق التي أرسلت الى قرية
دنشواى قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الأهالى مباشرة ،
ونصبت الى جانبها آلات الجلد ، وغداة صدور الحكم نفذ على
صورة يقشعر من هولها البدن ، فكان كل محكوم عليه بالاعدام
يعلق فى المشنقة ويبقى معلقا أمام أنظار أهله وأبنائه الى أن يجلدوا
اثنين من المحكوم عليهم بالجلد ، وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات
ثمانية السن ، معقود طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص .

ومن حول المشانق والمجاالد وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل
هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج ، وجثثهم
قارقتها أرواحها معلقة فى المشانق ومستشار الداخلية الانجليزى
واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذى أبدعته انجلترا فى مطلع
القرن العشرين ، ما أشدها وحشية وما أتعسها حضارة ! هنا يجب
أن يرتفع الصوت عاليا دفاعا عن الرحمة وعن الإنسانية ، وعن
العدالة وعن كل المعانى التي جاهدت الإنسانية أجيالا وقرونا لتثبيتها

فى النفوس وأى صوت أرفع من صوت مصطفى كامل ، وأى أسلوب وجدانى كأسلوبه وهذه الدعاية السياسية التى فشلت بأزاء قوة انجلترا فى أوربا وفى مصر لأبد أن تنجح اذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس ، وقد نجح مصطفى كامل فى هذا أكبر نجاح) .

والحق أنه لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاظة تعدل فظاظة تنفيذ حكم دنشواى ، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارت هذه الحادثة . ولقد صدق مصطفى كامل ان قال : ان عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيى شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث ، لذلك ظل يكتب ويخطب فى مصر وفى انجلترا بياناً لبشاعة هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كرومر الى اعتزال منصبه فى مصر .

وكان حماس الزعيم مصطفى كامل للدفاع عن منكوبى دنشواى حماساً لمصر وللمثل العليا التى يدين بها ، وكان كفاحه امتداد لكفاح مصر فى ثورتها ضد الاستبداد العلوى الذى أورثها آياه عاهلها الأكبر الذى لم (يدع رأساً يستقر فيه ضمير أنا) كما وصفه الأمام محمد عبده ، منذ تزعمه عمر مكرم ، ثم أحمد عرابى ، وأخيراً مصطفى كامل حتى كانت ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول الحصاد الأكبر لكفاح طويل ، وضع بذرتة على أسنة الرماح أحمد عرابى ، لتكون النهاية على يد جيش مصر العظيم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . حين سادته أبناء مصر بعيداً عن عملاء الانجليز .

١٠/١ - مصر الخالدة

كان للشعب دوره البارز في الحركة العرابية ، وما كانت الثورة العرابية الا تعبيراً عن روح مصر الخالد في كفاح المصريين ضد الغاصب والمستبد ، وهم ضد الغاصب أكثر عنفاً وأشد إصراراً منهم ضد المستبد ، فالغاصب غاز مغير ، كما كان نابليون ، ومن قبل السلطان سليم العثماني قبل أن تصبح الدولة العثمانية دولة الخلافة والاسلام ، وكان من تنكيله بالمصريين ما يعد أكبر سوءاً في تاريخه ، كما كان من مقاومة طومان باي له ما يعد مفخرة لحاكم مصري ، وكان من خيانة الطامعين في الحكم لطومان باي ما كان من خيانة سلطان باشا وأنداده للزعيم أحمد عرابي .

(وتجمع كتب التاريخ - كما يقول أحمد حسين في موسوعته التاريخية الفريدة^(١)) على أن السلطان سليم أخذ بشجاعة طومان باي وعزته وكرامته وهو يصاوله في الحديث فقال له : والله ما كان قصدى اذيتك ونويت الرجوع من حلب ولو أطعنتى من الأول وجعلت السكة بأسمى ما جئت لك ، ولا دست أرضك فأجاب طومان باي :

(١) المصدر السابق : ص ٨١٠ .

ان الأنفس التي تربت في العز لا تقبل النذل ، هل لو أرسلت لك أنا خطابا وأمرتك أن تكون تحت أمرى ، هل كنت ترضى بذلك وهل سمحت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع ، وليس في عسكريك من يقايسنى في حومة الميدان ، وليس أضرب عليك من هذين الشيطانين الخائنين – وأشار الى خاير بك ، والغزالى ، فأذهما لو كان بهما خير لكان لنا) .

(وكاد السلطان يقتنع بالابقاء على حياة طومان باى ، ولكن الخائنين خاير بك والغزالى أقنعا السلطان سليم ، أن وجود طومان باى على ظهر الحياة من شأنه أن يضيع كل تعبته وسفره ، وهلاك زهرة عساكره وأمواله ، فإنه لا يكاد يغادر أرض مصر حتى يخرج طومان باى ولو كان تحت الأرض ، ليفسد عساكر السلطان عليه فإذا أراد السلطان أن تطيعه كل الدول ، وأن تمهد البلاد فعليه أن يعجل بهلاك طومان باى) .

(ونزل السلطان سليم عند مشورة الخائنين وقضى بإعدام طومان باى) ولنا أن نتساءل : أليس هذا ما حدث مع عرابى ، حين انقلب عليه محمد سلطان باشا وأخذ جانب الانجليز والخديو توفيق ، وأتخذ الانجليز (أداة الرشوة لرؤساء القبائل البدوية الضاربة فى شرق الدلتا وأفساد طائفة من العمد والأعيان والضباط لينضموا الى الانجليز ويخذلوه قوة الدفاع .. فكانت – كما يقول الرافعى – صفحة محزنة من تاريخ مصر القومى) (٢) .

وكانت نهاية طومان باى صورة رائعة لأنفة مصرى وكبريائه ، ففي (يوم الاثنين ١١ ربيع الأول الموافق ٢٣ أبريل أخرج طومان باى من سجنه فى امبابة واقتيد الى حيث يعدم عند باب زويلة ، فكان رافع الرأس يسلم

(٢) الثورة العرابية : ص ٥٥٠ .

على الناس طوال الطريق ، حتى اذا وصل الى حيث يشنق طلب طومان باى من الجمهور المحيط به أن يقرأوا الفاتحة على روحه ثلاث مرات ، وقرأ هو بنفسه الفاتحة حتى اذا فرغ منها التفت الى الجلاء وقال له : شوف شغلك) .

(وكان الأقدار أبت حتى آخر لحظة أن لاتزهد هذه الروح القوية فى يسر وبساطة ، فاذا بالحبل ينقطع مرتين ، ولم يمت طومان باى الا فى المرة الثالثة ، وظلت جثته معلقة بعد ذلك على باب زويلة ثلاثة أيام) .
(يقول ابن أياس : فلما أن شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شابا حسن الشكل ، كريم الخلق ، سنه نحو أربعة وأربعين سنة ، وكان بطلا شجاعا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه وكسبرهم ثلاث مرات ، ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة ، وقد أبطل لما تسلطن من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ، ولما طلب منه أن يفرض الضرائب على الناس ليملأ الخزائن ، وصف ذلك بالمظلم ورفض أن يمس أموال الرعية) .

ويصف الدكتور بايارد دودج فى كتابه - الأزهر فى عيده الألفى^(٣) وهو من عشاق الأزهر ، وفيلسوف الاسلام الكبير - أبو حامد الغزالى - يقول^(٤) :

Bayard Dodge Al-Azhar Amillevieum of
Muslim Learning.

(٣)

(٤) قام المؤلف بترجمة كتاب دكتور بايارد دودج عن الأزهر

؛ عندما دخل الجيش العثماني مدينة القاهرة قتل
عشرة آلاف من المصريين ، وأحرق العديد من البيوت ،
وقطع رؤوس أربعة آلاف من المماليك ، وألقى بأجسادهم
الى النيل ، وعلق رؤوسهم فى جزيرة الروضة حتى
يراهها الناس جميعا ٠٠ وقد سطوا على القلعة وبيوت
الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من
النقائس والذخائر والكتبحتى أعمدة الرخام وكل ما ركب
فيها ، ونقل الى الأستانة المئات من العلماء والمقدمين
والقضاة وكل من له نفوذ أو امة فى مصر) .

ويندد ابن أياس بالسلطان سليم ، ويستتهجن كل
تصرفاته ابان اقامته بالقاهرة ، ويقارن بينه وبين ما كان
عليه سلاطين مصر من عادات ومكرمات ، فهبط به الى
الحضيض بالقياس الى أعمالهم وتصرفاتهم كاشفا بذلك
عن لوعته واحساسه بالحرج العميق وقوميته المصرية
الأصيلة . لقد صارت مصر نيابة بعد أن كان سلطان
مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم
الحرمين الشسريرفين وحائز ملك مصر الذى افتخر به
فرعون اللعين ، حيث قال : أليس لى ملك مصر ، وقد
تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا ولكن ابن
عثمان هتك حريم مصر ، وما خرج منها حتى غنم أموالها
وقتل أبطالها ، ويتم أطفالها ، وأسر رجالها ، وبدد
أموالها ، وأظهر أهوالها ، فلا حول ولا قوة
الا بالله) (٥) .

(٥) احمد حسين : المصدر السابق ص ٨١٧ .

واذا كان للتاريخ أن يعيد دورته ، لنرى صورة
طوممان باى - كما أجملها ابن أياس فى صورة - البطل
محمد عبيد - بطل (واقعة قصر النيل التى تعد أولى
وقائع الثورة العربائية - كما سبق القول - والذي
صمد على رأس قواته (وأوقف زحفهم وقاتلهم قتالا
شديدا مات فيه معظم رجاله ، فتقدم واستقبل الموت
راضيا مرضيا ، وذهب شهيد وفائه وبطولته) (٦) .

ويقول عنه - أحمد حسين فى موسوعته - وأدعوه ابن أياس
العصر الحديث :

(أما الذين ثبتوا وأنقذوا الشرف العسكرى المصرى
فالإيمان سودانيان بقيادة الأميرالاي محمد عبيد بطل
واقعة قصر النيل - فقد حاربوا تحت لواء قائدهم حتى
استشهد واستشهد معظمهم الى جوراه) .

واذا كانت الخيانة قد هزمت طومان باى ، فان الخيانة هى
التي هزمت عرابى واذا كان ثمة أرهاسة ببطولة مصر وأبنائها ،
ينبض بها قلب مصر ووجدان أبنائها ، وعراقتهم على مدى التاريخ
فأننا نراها فى أولئك الأعلام من أبنائها . ممن تعلو كرامتهم
وأعزازهم لمصر الخالدة فوق كل اعتبار آخر ، لا فى ميدان الحرب
وحدها بل فى كافة الميادين التى يذكر فيها اسم مصر . .

ويم يكن الشعب بعيدا عن الأحداث ، فقد كانت القاهرة تنتظر
أنباء المعركة والعامّة والغلمان يضجون ويصيحون بالدعاء والتكبير
والناس جميعا فى انتظار أخبار الموقعة الفاصلة ، وأصبح دعاء
- الله ينصرك يا عرابى - على كل لسان يهتف به الأطفال قبل الكبار .

(٦) محمود الخفيف : الزعيم عرابى المفترى عليه .

ومن طبيعة المصريين ألا يثوروا بحاكم وأن يرموا به ، منذ كان فجر التاريخ في مصر وكان الملك المؤله ، فإذا آمنتوا به ساروا وراءه وإذا برموا به وقفوا يرقبونه وتركوه لشأنه حتى يواجه قدره مادام قد رأى أن يحمل المسئولية عنهم ، لهذا كان إيمانهم بطومان باي ، دون إيمانهم بالسلطان الغورى • وكان إيمانهم بعرايى دون إيمانهم بسلطان باشا ، وكان اكبارهم لمصطفى كامل دون اكبارهم لغيره ممن عاصروه ، وكان من اكبارهم له ما يصوره قاسم أمين، ولم يكن من شيعته ، فيقول بعد شهرين من وفاته :

(١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنائزة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق ، المرة الأولى يوم تنفيذ حكم دنشواي ••

(رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزوروا مخنوقا ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشيء من الدهشة والذهول •• ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة • ولكن هذا الأخاء في الشعور بقي مكتوما في النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان) •

(أما في يوم الاحتفال بجنائزة صاحب - اللواء - فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا في قوة جماله وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل دويها الى جميع انحاء القطر) •

(هذا الاحساس الجديد ، هذا المولد الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها • هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل) •

ويعلق الدكتور هيكل على ما قاله قاسم أمين ، فيقول :

(لذلك كان جزاء وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل ، وكان حقا أن يرى قاسم أمين فى وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر) (٧) •

وقد سبقث ثورة الشعب ، وغضبته الجائحة ثورة عرابى ليكون ناطقا باسم الشعب ، حين رأى الشعب ينطق بما يجول فى خاطره فاندفع يحمل اللواء ليعبر عن حلم حياته بأن تكون - مصر للمصريين - •

(٧) الدكتور هيكل : تراجم : مصطفى كامل باشا ص ١٢٩ - ١٣٢ •

١١١ - الجيش والتشعب

ونرى أن اسماعيل هو البناء الحقيقي لتلك الطبقة من الأعيان المصريين . أو البورجوازية الناشئة بالمفهوم الغربى ، بعد أن وضع بذرتها سعيد باعدار اللائحة السعيدية وأباحت حق التملك للمصريين ولكن سعيدا كان يعنى ما يقصد حين عمل على إشراك المصريين فى الناحية الإدارية ، أما اسماعيل فما كان يفكر فى مثل تلك السنة الحميدة بقدر ما كان يفكر فى جاهه ومظهره وسلطانه ، فلم يكن يرمى حين أنشأ مجلس شورى النواب الى إشراك المصريين ، أو تطبيق الحكم الدستورى فى مصر ، ولم يفكر فى أن مثل هذا العمل قد يؤدى الى اظهار طبقة ظلت بعيدة عن المشاركة فى شئون البلاد ، أو يقودها الى التقدم والبروز فى ميدان الحياة العامة ، فان هؤلاء العمدة والمشايخ ونظار الأقسام الذين تكون منهم مجلس شورى النواب ، قد أصبحوا النواة الحقيقية لطبقة الأعيان المصريين ، وواتتهم الفرص بعد ذلك لتنمية ثرواتهم وامتلاك الأراضى الواسعة وقيام الاقطاع المصرى بمساوئه التى شارك فيها الاقطاع التركى القديم وغدا ندا له ، ففي الوقت الذى حلت فيه الكوارث بالفلاح وأثقلته التسيارات وازداد فقرا على فقر ، كان الأعيان يقتنون (الأتبان والضيايع واستصلحوا أطيانهم القديمة وزادت ثرواتهم

بما أنشأته الحكومة من أعمال العمران ، فزاد دخلهم من أطيأنهم وأمالكهم ، واتسعت عليهم الدنيا ، وراعت الحكومة جانبهم ، وفي كثير من المواطن كانوا يكسبون رعايتهم إذ يصلونهم بالهدايا والرشاوى وما الى ذلك ، وكان الأعيان من الأسر الكبيرة يحتفظون بعصبيتهم العائلية ومراكزهم الاجتماعية ، فازدادت منزلتهم وعظم جاههم ، وراعى الخديو جانبهم . . . وكاد مجلس شورى النواب أن يكون مقصورا على طبقتهم ، وكان لبعضهم فيه مناقشات تدل على حظ من العلم والذكاء الفطري (١) .

وقامت بذلك طبقة اقطاعية من المصريين الى جانب السواد الأعظم من الشعب الذى ازدادت حالته فى أواخر عهد اسماعيل سوءا على سوء .

(وهكذا شهدت الأيام الأخيرة من عصر اسماعيل ظهور طبقة من الأعيان المصريين كان لها أبعد الأثر فى اتجاهات الثورة العرابية كما لعبت الدور الأول فى سياسة البلاد بعد ذلك ، وهى التى ظفرت للبلاد بدستور عام ١٨٧٩ مقرر مبدأ المسئولية الوزارية ، وأقرار الميزانية والقوانين العامة ، وانتخاب ممثلين عن السودان ، وإن لم يصدر المرسوم الخديوى باعلانه ، إلا أنه جاء نتيجة الاتفاق بين الحكومة وممثلى الأمة ، ولم يكن هناك ما يحول دون صدوره لولا التدخل الأجنبى وعزل اسماعيل ومجافاة توفيق للنظام الدستورى (٢) مما أدى الى قيام الثورة العرابية ممثلة لارادة الشعب ، إذ أن هذه الطبقة لم تسكت على اتجاه توفيق الاستبدادى

(١) الرافعى عبد الرحمن : عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ٣٣٢ - انظر أيضا - أحمد لطفى السيد ، أستاذ الجيل للمؤلف ص ٣٦ - ٣٧ .
(٢) المؤلف : المصدر السابق ص ٣٧ - ٣٨ .

وانفراده بالحكم ، فُضمت اليها عددا من الناقمين على سياسة رياض في معارضته للنظام الدستوري ، وانحيازه للنفوذ الأوربي على رأسهم الباشوات الأربعة : شريف باشا ، واسماعيل راغب باشا ، وعمر لطفى باشا ، وسلطان باشا وكونت هيئة عرفت بالحزب الوطنى • أو - جمعية حلوان (٣) - أخذت تجتمع سرا للعمل على مقاومة رياض وأسقاط وزارته وتعددت اجتماعاتها فى دار سلطان باشا وُضمت اليها عددا من ضباط الجيش منهم أحمد عرابى وعبد العال حلمى ، وعلى فهمى وبعض المديرين منهم سليمان باشا أباظة ، وحسن باشا الشريعى ، فكانت تلك الهيئة من العوامل التى أدت الى وقوع الثورة العرابية ، فمما لاشك فيه أن نقمة هذه الهيئة على وزارة رياض ، قد قوى ثقة عرابى فى نفسه وقدرته على تزعم حركة السخط بين الضباط المصريين على سياسة عثمان رفقى فى الجيش ، وكانت سياسة عثمان رفقى هى - القشة التى قصمت ظهر البعير •

وتسبب عرابى ذروة الأحداث التى أدت الى استقالة رياض وتأليف وزارة شريف باشا الثالثة وغدا شخصية مرموقة يلتف حولها الشعب ويؤيدها الأعيان والنابهون من رجال الحزب الوطنى ، وخاصة بعد أن تضمنت مطالبهم قيام حكم نيابى • وكان شريف باشا مترددا فى قبول الوزارة خوفا من تدخل الجيش فى السياسة ولم يقبلها الا بعد أن عاهده العرابيون على الثقة به والابتعاد عن السياسة ، وضمن رجال الحزب الوطنى تعهد الجيش بالابتعاد عن السياسة ، فهم (متكفلون بالجيش المصرىة الذين هم فى الحقيقة

(٣) لم يكن الحزب الوطنى حزبا بالمعنى المعروف ، وأن دعاه أصحابه بذلك ، ويميل بعض المؤرخين الى تسميته - جمعية حلوان - نسبة الى المكان الذى اتخذوه مركزا لاجتماعاتهم •

أبناءؤهم وأخوانهم) (٤) وذلك فى عريضةتين وقع عليهما
وخمسمائة من عمد البلاد وكبار الأهلين : الأولى تضمن تعهد الـ
بالابتعاد عن السياسة ، والثانية فى تأييد الحكم النيابى ،
العريضةتين الى شريف باشا وفد من محمد باشا سلطان ، وسيد
باشا أباظة ، وحسن باشا الشريعى ، وأحمد بك المنشاوى ، و
بك الشمسى ، والشيخ على الليثى ، وعبد السلام المويلحى ، والـ
الصباحى ، والشيخ أحمد محمود ، وإبراهيم أفندى الوكيل

وصدرت العريضةتان بتلك الديباجة التى تسفر عما بلغت
الطبقة الناشئة من مكانة اجتماعية وحيوية بالغة ، وتطلع الى
كيانها السياسى والاجتماعى .

أما الأولى ، فهى - كما يقول عرابى فى مذكراته - وقد أورد
باسم - تقرير - بينما أوردها الرافعى باسم - عريضة - وان
النص واحداً (٥) ، كما يلى :

(نحن الواضعون أسماءنا أدناه علماء ومشـ
وأعيان وعمد مصر واسـكندرية والثخور والوجه
البحرى والقبلى ، لاعتقادنا التام بحسن صفات و
أعضاء مجلس النظار الذين صار انتخابهم بمصر
دولتكم بالحكومة المصرية ، واطهارا لصداقتنا المتـ
ولخاوص نية الجيش نحن ضامنون ومتكفلون بصـ
وصحة التعهدات التى من مقتضاها تمام الانقياد لـ
دولتكم شريف باشا ، قد التمسنا أن يستلم إدارة أشـ

(٤) الوقائع المصرية : عدد ١٩ سبتمبر ١٨٨١ .

(٥) عرابى : مذكرات ج١ ص ٨٢ - والرافعى . الثورة العرابية .

رياسة مجلس النظار الذين صار انتخابهم بمعرفة دولته
بالحكومة المصرية ، والعرض عنهم للحضرة الخديوية
واظهاراً لصدقاتنا التامة ولخلوص نية الجيش نحن
ضامنون صدق وصحة التعهدات التي من مقتضاها
تمام الانقياد لأوامر دولتلو شريف باشا) .

أما الثانى - كما أورده عرابى فى مذكراته - وعليه ١٦٠٠
توقيع قهى ، يتضمن طلب تأليف المجلس الذيابى وفقاً للارادة الخديوية
وهذه صورته :

(لما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام
الهيئة الاجتماعية الا بالعدل والحرية حتى يكون كل
انسان آمناً على نفسه وماله حراً فى أفكاره وأعماله
مما فيه سعادته وحسن حاله ، وهذا لا يتأتى الا بايجاد
حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد
ولا تتطرق اليها طوارق الفساد ، اتخذت الممالك المتمدنة
العادلة مجالس ملية من نبهاء أئمتها يذوبون عنها فى
حفظ حقوقها تجاه هيئة حكوماتها ويكون الواسطة
الحقيقية فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الأحكام
العادلة ، وعلى هذه القواعد ولأجل هذه المقاصد كان
قد اتخذ لحكومتنا مجلس نواب فى العهد السابق وبما
أن مقاصد خديويتنا المعظم جميعها خيرية ونياته سليمة
فطلبنا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر تجاسرنا بعرض هذا
راجين من المراحم الداورية صدور الأمر الكريم بتشكيل
مجلس نواب لأمتنا المصرية يكون له ما لمجالس الأمم
الأوربية المتمدنة من الحقوق الشريعة أزاء هيئة
الحكومة ، وبذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد

خولتنا نعمة لاتعادلها نعم ، وتصير حكومتها العادلة
انموذجا شريفا يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية
أمام العالم ، وأننا على يقين من قبول التماسنا هذا
وفقا لارادة ولى النعم أدام الله اجلاله) .

وفى الرابع من أكتوبر سنة ١٨٨١ رفع شريف باشا الى الخديو
تقريراً بأجابة مطلب الأمة فى صدد انشاء مجلس النواب ، ضمنه
مزايا النظام الدستورى وضرورة اقراره فى مصر ، وطلب تمهيدا
لتأليف المجلس النيابى الجديد اجراء انتخابات عامة طبقا لللائحة
مجلس شورى النواب القديم ، على أن تعرض الوزارة على المجلس
المنتخب مشروع اللائحة الأساسية التى تكفل نهوضه الى مستوى
المجالس النيابية الصحيحة ، أو بعبارة أخرى دعا الى مجلس شورى
النواب على أن تكون (جمعية تأسيسية ، لتضع الدستور
الجديد) (٦) .

ومن الطبيعى ألا يكون الخديو توفيق - كما يذكر أحمد باشا
شفيق فى كتابه - مذكراتى فى نصف قرن - مرتاحا لوجود مجلس
النواب - وذلك فى تعليقه على افتتاح مجلس النواب - لأنه لازال
متشائما من الحالة وقليل الثقة بالمجلس لأن نفوذ العرابيين كان فيه
كثيرا . .

(وفى السادس والعشرين من ديسمبر تم افتتاح مجلس النواب
الجديد ، وكانت الانتخابات المؤدية له قد تمت فى حرية وبعيدة عن
أى ضغط سواء من جانب الحكومة أو العرابيين ، وكان يوم افتتاحه

(٦) الرافعى عبد الرحمن : الزعيم أحمد عرابى ص ٧٥ كتاب الهلال
العدد ١٠ .

يوماً عظيماً ، ومهرجانا مشهودا ارتجت له الأمة ، فقد كان انعقاد المجلس مطلباً عزيزاً من مطالب الأمة (٧) .

ويشير عرابي في مذكراته الى ما كان ، فيقول :

(وفي عصر يوم الاثنين الواقع في ١١ صفر سنة ١٢٩٩ و ٢ يناير سنة ١٨٨٢ توجه محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار الى مجلس النواب لتقديم اللائحة الأساسية التي أعدها له مع سائر النظار ، فقدمها وخطب في ذلك خطاباً أثر في أذهان النواب وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على أحكام حرة وحدود مطلقة يكون بمقتضاها للنواب حق النظر في القوانين والمصروفات العمومية (٨) الخ) (٨) .

ويذكر الرافعي أن (افتتاح مجلس النواب كان يوماً مشهوداً من أيام مصر التاريخية ، استقبلته الأمة مغتبطة بما نالته من تقرير حريتها السياسية بإنشاء مجلس يمثلها ويشرف على شئونها وأقدارها .

وقد كان هذا المجلس حقاً رمزاً لهذه الحرية . ولولا دسائس الانجليز ومكايدهم لكان فاتحة عصر جديد لنهضة مصر وتقدمها (٩) ويمضي الرافعي في وصف ما كان من افتتاح مجلس النواب ، فيقول :

(أعدت قاعة اجتماع المجلس بديوان وزارة الأشغال - قاعة اجتماع مجلس الشيوخ الآن - وحدد يوم الاثنين ٢٦ ديسمبر سنة

(٧) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠٧٦ .

(٨) الجزء الأول ص ١٠٧ .

(٩) الزعيم أحمد عرابي : ص ٧٧ .

١٨٨١ لافتتاحه - فلم تكبد تشريق شمس ذلك اليوم حتى ازدحم الديوان والشوارع المفضية اليه بالجماهير ، واصططقت أورطة من الآلى الأول المشاة - آلى الحرس - على جانبى الطريق من باب الديوان الى سلم القاعة بقيادة البكباشى محمد عبيد ومعها موسيقاها العسكرية تصدح بالحن الفرخ والسرور والابتهاج (٠٠)

(وحضر النواب وأخذوا مجالسهم ووجوههم تتهل غبطة وسرورا ٠٠ وفى نحو الساعة العاشرة صباحا تحرك الركب الخديوى من سراى الاسماعيلية فأطلقت المدافع من القلعة ايدانا بتحريك الموكب، وكان يصحب الخديو فى عربته شريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، وأحمد خيرى باشا المهردار - حامل الختم - ورئيس الديوان الخديوى ، وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى (٠٠)

(فلما أقبل الركب صدحت الموسيقى بالسلام ، وهتف الجنود بحياة الخديو منادين النداء المعتاد : - أفندمز جوق باشا - أى يعيش أفندينا - وكان فى انتظاره على سلم المجلس جميع الوزراء ورئيس مجلس النواب ، وبعض أعضائه فتلقوه بالاجلال ٠٠ وقصد الى الغرفة المعدة لاستراحته ، فلبث بها هنيهة قصيرة ، ثم أنهى اليه محمد سلطان باشا رئيس المجلس أن المجلس قد استعد وكمل اجتماع الأعضاء ، فسار الخديو ودخل قاعة الاجتماع فى نحو الساعة الحادية عشرة ، وحياء الأعضاء ٠٠ فتلقوه بجميل الاعزاز والاجلال) .

(وأخذ مجلسه يحف به كبار رجال الدولة ، وافتتح المجلس بتلاوة خطاب خطبة العرش وقد تلاها بنفسه) .

ويأتى الرافعى على نص الخطبة - لمن يريد الرجوع اليها ٠٠ (ولما انتهى الخديو من تلاوة خطبة العرش هتف الجميع له ،

وأطلقت المدافع من القلعة مؤذنة بانتهاء الخطاب مبشرة باجتماع مجلس النواب . . ثم برح الخديو مكان الاجتماع وصدحت الموسيقى بنغمات التحية له . وعاد الى سرايه في مركب حافل) .

ويرى الرافعى أن (خطبة الخديو توفيق من الوثائق الهامة فى تاريخ مصر الدستورى ، لأنها أول خطبة لولى الأمر فى افتتاح أول مجلس نيابى كامل السلطة فى تاريخ مصر الحديث ، وهى فى مجموعها سديدة المعانى وأضحة الأسلوب متضمنة اعلان الخديو انضمامه الى الأمة فى أقرار النظام الدستورى ، وقد ألقاها بنفسه دون أن يستنصب عنه رئيس مجلس الوزراء كما هو العرف البرلمانى ، فكان فى ألقائه إياها تثبيتا وتوكيدا لما احتوت عليه من الآراء والمعانى) .

ولكن ، هل كان توفيق صادقا فيما ذهب اليه من تأييده للنظام الدستورى ؟ هذا ما ينفيه أحمد شفيق باشا فى كتابه - مذكراتى فى نصف قرن - ويجيب قائلا : (ولم أكن لأذن ذلك ، لأنه لازال متشائما من الحالة وقايل الثقة بالمجلس لأن نفوذ العرابيين فيه كان كثيرا) .

وهل كان الرافعى قريما فى استقراء الأحداث ومعرفته ما وراءها فى حكمه على اتجاهات توفيق وتأييده للنظام الدستورى وان كان صادقا فى روايتها مصدقا لما جاء فيها ، حتى أخلفت الأحداث ظنه فيما ذهب اليه .

١٢/١ - بين عهدين

كانت وزارة شريف باشا ، على عهد توفيق - فاصلا بين عهدين :

عهد اجتمع فيه الشعب على غاية وأمل ، وعهد انفصمت فيه العربى وتهرأت الوحدة ، وذهب كل فريق ينشد غايته ومبتغاه بما يستهديه من أطماعه وذاتيته وأثرته ومصالحه الخاصة .

وكانت البداية حين انقسم المجلس على نفسه حول تقرير الميزانية ، حين رأى الرقبيان الأوربيان (عدم تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية فهذا الحق ولو كان مقصورا على المصالح التى لم تخصص ايراداتها للدين العام فإنه يضر بالضمانات المقررة للدائنين ، لأن من نتائج المحتومة احلال مجلس النواب محل مجلس الوزراء فى إدارة شئون البلاد ، ولما كان الرقبيان لا يملكان سوى التنبيه فى تقاريرهما الى ما يلاحظانه من التصرفات الحكومية الضارة فان هذا الحق الذى له نتائج العملية أمام وزراء يملك الخديو تغييرهم يصبح لا قيمة له أمام مجلس نواب غير مسئول ، وهذه

الحالة تزداد خطورتها لما هو معروف عن مجلس النواب من عدم الخبرة ومن ميوله العدائية نحو العنصر الأوربي في الحكومة (١)

وقد رأى شريف باشا درءا للأزمة ، ألا يتخذ مجلس النواب قرارا حول تقرير الميزانية ، وأن يفوت على الدولتين المتحفزتين للتدخل سعيهما الخبيث . . لاسيما (وأن النص الخاص بالميزانية - كما يقول الرافعي - في ذاته مستعجلا ، لأن ميزانية سنة ١٨٨٢ كان قد صدر المرسوم باعتمادها في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، أي قبل انعقاد مجلس النواب ، فالبحث في أمر الميزانية لا تبدو أهميته العملية الا في ختام سنة ١٨٨٢ حيث توضع ميزانية سنة ١٨٨٣ ، فأرجساء البت في هذا النص لم يكن له من الخطر ما يدعو الى التصادم بين المجلس والوزارة ، وقد نصح مستر بلنت الزعماء العراقيين بالاعتدال في موقفهم من هذه الأزمة وبأن لا يقطعوا برأي في نص الميزانية قبل أن تفاوض الوزارة حكومتى فرنسا وانجلترا ، وأيده الشيخ محمد عبده في نصيحته ، وروى عنه في هذا الصدد ، قوله : (وقد لبثنا عدة قرون في انتظار حريتنا فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر) ولكن نصيحة الاثنین ذهبت عبثا .

ويبدو أن الأطماع والطموح الذاتى قد لعبا دورهما في هذا الصدد ، فضلا عن الحذر ، فعندما تختلط الأمور تخيم الرؤيا ، وتتوارى الحقيقة ، وهو ما يشير اليه أحمد حسين في هامش موسوعته بقوله : (وان الانسان ليأسف أن يرى مثل هذا الاضطراب في وقائع قريبة) (٢) .

(١) الرافعي : الثورة العراقية ص ١٩٥ . نقلا عن برقية سنكفكس معتمد فرنسا الى جاميكا - انظر أيضا احمد حسين المصدر السابق ص ١٠٧٩ .
(٢) هامش صفحة ١٠٨٠ .

ولا ريب في أن طموح البارودي كان له دوره فيما أدى إلى استمالة شريف باشا ، وكان الحذر والأثرة من جانب عرابي ، كما كان الطمع من جانب سلطان باشا وهو يتحسس طريقه إلى غايته . .

(وقد كان تأليف وزارة البارودي انتصارا حاسما للحزب العسكري الوطني فالثلاثة الأول - محمود سامي البارودي باشا ، وأحمد عرابي باشا ، ومحمود فهمي باشا ، هم قادة الحزب العسكري الوطني ، وحسن الشريعي أحد أقطاب مجلس النواب المنضمين لهذا الحزب ونستطيع أن نتصور مدى فرحة البلاد بالوزارة الجديدة التي كانت تحمل الطابع العميق للارادة الشعبية ، وبعد أن أصبح عرابي الزعيم الشعبي الذي كان الشعب يطلق عليه وصف - الأوحاد - الوزير الأكبر فيها) .

(وقد اعتبر تأليف الوزارة عيداً قومياً ، وتنافس العسكريون والمدنيون في التعبير عن مظاهر فرحتهم وتأييدهم للعهد الجديد) (٣) .

ولكنها كانت نهاية عهد وبداية عهد جديد ، كانت نهاية عهد لم يمض طويلاً كانت بدايته في الثامن من شهر فبراير سنة ١٨٨٢ باجتماع مجلس النواب طبقاً لما كان مقرراً ، ولم تزد جلساته عن عشرين جلسة (ومع ذلك فإن تاريخ هذا المجلس يؤلف في هذه المرحلة صفحة من أزهى صفحات الحياة النيابية والدستورية في مصر حيث تعرض النواب لكل ضروب الإصلاح الذي تحتاجه البلاد في مختلف الميادين سواء في الإدارة أو المالية أو الاقتصاد أو الزراعة

(٣) المصدر السابق : ص ١٠٨٠ ، والرافعي : الثورة العرابية ص ٢٠٩

أو الرى والذى وصلوا فيه الى حد اقتراح انشاء خزان أسوان بناء على اقتراح تقدم به أحمد بك نائب اسنا والاقتصاد والمواصلات والتعليم الابتدائى الذى طالبوا بتعميمه على سائر أبناء البلاد بناء على اقتراح تقدم به عبد السلام المويلحى ، وتعهد كل نائب أن ينشئ فى بلدته مدرسة على نفقته ونفقة الأهالى) .

(وقد لمع من نواب هذا المجلس عبد السلام المويلحى ، وأحمد عبد الغفار ، وعبد المجيد البيطاش وغيرهم) .

(ويجمع كل من كتب عن هذه الفترة أن السلام والهدوء والاستقرار الذى نعمت به البلاد أبان انعقاد هذا المجلس كان أشبه بالأحلام التى لا يلبث النائم أن يستيقظ منها ليواجه الواقع المر) .

(قلم يكد المجلس ينهى دورته ويخلق أبوابه حتى تفجر الموقف، وتوالى الأحداث الجسام التى لم تنته الا باحتلال مصر) (٤) .

وكانت نهاية عهد وبداية عهد : أوجس فيه عرابى خيفة مما يدبر له خصومه فقد كان يدرك كراهية توفيق له ، بل وللمصريين عامة شأنه فى ذلك شأن أسرته منذ غرس عاقلها الأكبر فى نفوسهم التوجس من المصريين وخشيتهم ، حتى عابهم بأنهم لا يصلحون الا لحمل الأثقال وسوق الحمير .

وكان على عرابى أن يبدأ بالمواجهة ، قبل أن يبدأوا بها . . . (ولم تك الا أيام - كما يقص الدكتور هيكى من خبرها (٥) - حتى صدرت أوامر الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم

(٤) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠٨٣ .

(٥) تراجم : الخديوى توفيق باشا : ص ٨٩ .

عثمان باشا رفقى بتهمة ائتمارهم به وبإلزامه وبالنظام الذى أقاموه ومحاسنهم أمام مجلس حربى والحكم عليهم بالنفى الى أقاصى السودان ، وكان عرابى ومن معه مقتنعين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة ، وزادهم اقتناعا رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربى ، وعلى ذلك استتعر الخلاف بين الخديو والوزارة ، يصير الوزراء على تنفيذ الحكم ويعترضه رئيس الدولة وأدى ذلك الى تخوف فرنسا وانجلترا على الرعايا الأجانب فى مصر فقرروا ارسال بوارج الى المياه المصرية للمحافظة على حياتهم ومصالحهم ، وأعلنت فرنسا وانجلترا جميعا حرصهما على تأييد الخديو فى مركزه ، وفى ذلك إشارة الى ما كانا تتوقعانه من وصول عرابى وأصحابه الى استصدار قرار من النواب بعزله .

ويأخذ الراقى (٦) على الخديو توفيق أنه (استندعى يوم ٢ مايو السير ادوار مالت قنصل انجلترا ، والمسيو سنكفكس قنصل فرنسا واستشارهما فى الأمر ، فأشسارا عليه أن لا يقر الحكم ، ورجع فى ذلك الى - ما جاء فى الكتاب الأصفر سنة ١٨٨٢ ، وثيقة رقم ٤٢ و ٤٣ - وكان من حقه تخفيفه وتعديله من تلقاء نفسه دون مشاورة القناصل ، ولكن ما جبل عليه من التردد والضعف جعله يستشيرهما فيما لا دخل لهما فيه . واستدعى باقى قناصل الدول العظمى ، وطلب اليهما معونة الدول ، فهاج ذلك سخط الوزراء والعراقيين كافة ، وزاد من سخطهم أنه شرع أيضا فى عرض الحكم على السلطان بحجة أن بعض المحكوم عليهم نالوا منه رتبا عسكرية عالية ، فعد العراقيون بحق أن اقحام السلطان فى هذه المسألة الداخلية هو تنازل عن الامتيازات التى نالتها مصر فى استقلالها بشئونها الداخلية ، وقد ساء الوزارة أن الخديو لم يشركهم لا فى

(٦) الثورة العراقية : ص ٢١٩ .

استشارة قناصل الدول ، ولا فى الرجوع الى الباب العالى فى اقرار الأحكام أو تعديلها ، وكان هذا المسلك فى الواقع خروجاً على القاعدة النظامية المعروفة وهى أن الخديو يحكم بواسطة مجلس وزرائه فضلاً عن منافاته لمبدأ المسئولية الوزارية) .

(وفى ٦ مايو عرض الوزراء على الخديو حسماً للخلاف ومنعاً لتدخل السلطان أن يصدر أمره بتعديل الحكم ، وأن يستبدل به النفى خارج القطر ، على أن يختار المحكوم عليهم الجهة التى يريدونها ، ولكن الخديو رفض هذا الحل بحجة أنه عرض الخلاف من جديد على قناصل الدول ، فارتأت الدولتان الفرنسية والانجليزية أن يستعمل الخديو حقه فى تعديل الحكم دون انتظار رأى السلطان وهذا ما انتهى اليه ، فقد أصدر ارادة سنية فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى ، والترخيص للمحكوم عليهم بالتوجه أنى شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم رتبهم ونياشينهم ، وقد وقع الخديو هذه الارادة بحضور السير ادور مالت والمسيو سنكفكس ، فقصدوا الى الآستانة حيث نزلوا فى رعاية السلطان .

وكان مما أحنق الحكومة على الخديو أنه وقع على هذا التعديل فى حضرة السير ادوارد مالت قنصل انجلترا ، والمسيو سنكفكس قنصل فرنسا لأظهار تضامنها معه فى هذا الاجراء ، وأنه ضرب عرض الحائط بالحكومة (٧) .

وقررت الوزارة دعوة مجلس النواب للانعقاد للنظر فى أمر الخلاف الذى استطال بين الخديو والحكومة ، ولكن الخديو رفض

(٧) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١٠٨٤ .

دعوة مجلس النواب ، ورأت الحكومة ألا تلقى الى رفضه بالأ ، ودعت النواب للاجتماع فى القاهرة ولباها أكثرهم وتعددت اجتماعاتهم (سواء فى بيت رئيسهم سلطان باشا أو فى بيت البارودى رئيس الحكومة ، وقام النواب بدور الوساطة بين الحكومة والخديو ، وانحاز سلطان باشا رئيس المجلس لأول مرة الى جانب الخديو ضد الحكومة ، واستطاع أن يضم الى جانبه ستة من النواب وكان هذا الانقسام الجديد فى صفوف الوطنيين هو الثغرة التى نفذ منها الانجليز ليضربوا ضربتهم ، كما كشفت عن ذلك الحوادث التالية ، وكما ظهر مسجلا فى كتبهم الرسمية ، التى تضمنت أحاديث سلطان باشا مع ادوارد مالت والذى أعرب فى بعضها عن رغبة النواب فى اسقاط حكومة البارودى وعرابى) (٨) .

ويبدو أن نوعا من المتاهة الفكرية قد ألت بالنواب (فوقفت كثرتهم ترقب تطور الأحداث عن كثب ، وانضمت قلة منهم الى الخديو متذكرا لعرابى كأحمد بك عبد الغفار ، والسيد أفندى الفقى من نواب المنوفية ، ومحمد بك الشواربى من نواب القليوبية ، ممن أشار اليهم عرابى فى مذكراته ، وكان على رأس هذه القلة محمد باشا سلطان صاحب الحظوة لدى الانجليز والخديو بعد خيانتته للثورة . . وبقي فريق على ولائه للثورة كأحمد بك المنشاوى زعيم طنطا الوطنى ، كما دعاه - جون نينيه - فى كتابه « عرابى باشا » .

(ومن هذا الفريق الذى لفحته الثورة بنيرانها أحمد بك أباطه ، وأمين بك الشمسى من نواب الشريعة ، وأحمد أفندى محمود وإبراهيم أفندى الوكيل ، ومحمد أفندى دبوس من نواب البحيرة والشيخ أحمد الصباحى من نواب الغربية ، ومراد أفندى السعوى

(٨) المصدر السابق ص ١٠٨٤ .

من نواب الجيزة ، ومحمد أفندي جلال من نواب المنيا ، ومهني أفندي أبو عمر من نواب أسسوط ، وإبراهيم باشا الشريعي ، وبديني بك الشريعي من نواب المنيا على عهد اسماعيل ، وقد تناولتهم الأحكام العسكرية بالتجريد من الرتب والامتيازات والتحفظ عليهم في بلادهم لمدة مختلفة ، مع دفع تأمين مالي يتراوح بين ألف وخمسة آلاف جنيه ، في الوقت الذي أنعم فيه الخديو على سلطان باشا بالنيشان المجيدي من الدرجة الأولى وعشرة آلاف جنيه تعويضا له عما أصابه من أضرار) (٩) .

ولعل حذر الدولتين الاستعماريتين : إنجلترا ، بعد أن ظفرت بابتياح أسهم قناة السويس ، وتطلعها الى السيطرة عليها ، وفرنسا بأطماعها الاستعمارية في أملاك الدولة العثمانية ، و لم تكن إنجلترا حتى ذلك ، لتلقى بالا كبيرا الى مصر ، وكانت صداقة اسماعيل الخديو حينذاك بفرنسا تضيف عليه نوعا من الثقة ، فلما (ألفاها ماتزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سنة ١٨٧٠ . فكر في مصادقة إنجلترا وانتهاز فرصة مرور ولى عهدا بمصر ، فطلب اليه أن يعين انجليزيا مستشارا للمالية المصرية ، وكان جواب ولى العهد أن ذلك من شأن القنصل الانجليزى فبعث القنصل ب خطاب الى حكومته كطلب اسماعيل ، وأهملت إنجلترا الخطاب حتى اشترى أسهم القناة ، يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت الى مصر ببعثة لفحص شئونها المالية ، وعلى رأسها المستر ستيفن كيف (١٠) .

وقامت السياسة الانجليزية من بعد على أساس السيطرة على مصر ، وأخذت من الخديو توفيق وسيلة لاحتلال مصر ، ومن ثم السيطرة عليها وحكمها لصالحها، ولم يكن ليكفيها أن تنفرد بحكمها

(٩) المؤلف : أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل ص ٤٠ ، ٤١ .

(١٠) د . هيكل : تراجم : الخديو اسماعيل ص ٦٢ .

بل كان أول ما تبغيه أن تقضى على بواذر نهضتها وقد أخذت تسفر
عن مكنونها بقدوم الأفغانى اليها . وتعلن عن كيانها ، فى نشاطها
السرى عن طريق الجمعيات ، ونشاطها العلنى عن طريق
الصحف (١١) .

(وهيات كل هذه القوى مجتمعة لزعامة أحمد عرابى ، والدور
الذى ينتظره ، ولم يكن عرابى بعيداً عن الأحداث منذ البداية
ولا عما يعتمل فى نفوس المصريين من مشاعر متناقضة ، ولكنها
تأثف على السخط مما انتهت اليه الأمور ، فالخاصة من الأعيان
والتجار والموظفين يشكون من استبداد الحكومة وانصرافها عن
الدستور ، وقد أشدنا الى ما كان موقف اسماعيل من هذه الطبقة
فى أواخر حكمه ، مايشجعها على الوقوف فى وجه الحكومة والتقدم
بمطالبها الدستورية والعامة تشكو ضيق العيش ، وقدح الضرائب
ووقر السخرة ، ولكنها تستسلم راغمة لمصير لا ترى فيه بارقة أمل ،
والضباط يخشون التسريح والأحالة الى التقاعد ، ولكنهم جميعاً
يتفعلون بالأحداث ، وكانت أحداثاً طارئة غير مبيتة تسوقها الظروف
التي تبعثها وتبرزها . ويتفاعلون معها بالتحدى والاستجابة للمواقف
الطارئة (١٢) ، (١٣) .

وقد وعى عرابى الموقف تماماً وتفاعل معه وأدرك أن زعامة
الأمّة مهياة له ، وقد أصبح فى الواقع أقوى شخصية فى البلاد فتقدم،
وما كان يدور بخلدّه أن يكتفى بمطالب الجند - كما يفترض الدكتور

Jahn Ninet : Arable Pacha P. 37.

(١١)

(١٢ ، ١٣) المؤلف : على مبارك : أبو التعليم ، ص ١٦٢ سلسلة أعلام

العرب ط ٢ .

هيكل بقوله (ان قانون العسكرية كان أهم مطلب للجند ، وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فوراً اليه) ٠٠

ومضت الثورة العرابية في طريقها ، فوصلت بالأحداث الى ذروتها من التحدي ، وبالفكر الى غايته من التحول ، وأصبح الشعب كله من ورائها كتلة صامدة لولا خيانة توفيق وشيئته وطمع بريطانيا في احتلال مصر ، وقد وجدت الفرصة سانحة أمامها ، وقد أدركت عجز فرنسا عن التصدي لها أو مشاركتها الغزيمة ، بعد هزيمتها في الحرب السبعينية أمام ألمانيا ، (ولكنها بدلا من اتخاذها موقف المناقش الجدي لبريطانيا في المنطقة بعد عام ١٨٧٠ ، وقفت موقف الحاقد - المناوئ أحيانا - الذي خسر المسابقة) (١٤) .

وفات جورج كيرك أن يشير الى استغلال انجلترا ، ما أصاب فرنسا من مركب النقص ، وقد استغلته انجلترا حين طلبت اليها أن تشاركها حملتها البحرية على ميناء الاسكندرية ، وفي يوم ٩ مايو ١٨٨٢ ، بدأ وصول بوارج الاسطولين اليه ، وفي الخامس والعشرين من مايو ، وجهت الحكومتان مذكرة الى الحكومة المصرية ، نصها :

« ان قنصلي فرنسا وبريطانيا العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، وكذا رغبته في تأمين سسلم مصر ورقاهيتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتكم محمود سامي باشا رئيس مجلس النظار ، ان رأى أنها الوسطة الوحيدة بضع حد لحالة الاضطراب في مصر ، وهذه الشروط هي :

(١٤) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط : ترجمة عمر
اسكندري ومراجعة الدكتور سليم حسن : سلسلة الألف كتاب . ص ١٣١ .

١ - ابعاد سعادة عرابى باشا مؤقتا عن مصر مع بقاء رتبته ومرتباته .

٢ - ارسال كل من على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى الى داخل مصر مع بقاء رتبتيهما ومرتبتيهما .

٣ - استقالة الوزارة الحالية .

والقنصلان يريان هذه الشروط لما فيها من روح الاعتدال يمنع المصائب التى تستهدف لها مصر ، فهما باسم حكومتيهما وبتفويض منهما ينصحان حضرة رئيس مجلس النظار وزملاءه بقبولها ، وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وليس لحكومتى فرنسا وانجلترا غاية من التدخل فى شئون مصر سوى حفظ الحالة الحاضرة المقررة ، وبالتالي ، أن يعيدا للخدير السلطة المختصة به ، ان بدونها يخشى على هذه الحالة المقررة ، فيما أن توسط الدولتين ليس مبنيا على حب الانتقام والتشفى فيبذلان الجهد فى صدور عفو عمومى من الحضرة الخديوية وسييسهران على تنفيذ هذا العفو) .

وفى اليوم التالى - ٢٦ مايو - استقالت وزارة البارودى بعد أن أدت واجبها فى الاحتجاج ضد الانجليز وخذلها الخديو .

وكان عرابى قد تسنم القمة من زعامة مصر واجتماع المصريين حوله مما حمل قناصل الدول الأجنبية ، فيماعدوا قنصلى انجلترا وفرنسا ، ونزل الخديو على رغبتهم وكلف عرابى بالقيام على وزارة الجهادية .

ويروى عرابى ما كان من ذلك ، وهو أقرب الى الحقيقة مما رواه الرافعى فى اغفاله لبعض الحقائق ، فيقول :

« وفى صباح يوم السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ حضر لى رئيس مجلس النواب سلطان باشا ، وحسن

باشا الشريعى ، وسليمان باشا أياظه وسلمونى أمر
الخديو برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية ،
وأخبرونى أنهم لما وفدوا على الخديو (وجدوا جميع
القناصل فى حضرته ماعدا قنصلى فرنسا وانجلترا)
وأنهم طلبوا من الخديو صدور أمره برجوعى الى نظارة
الجهادية والبحرية لأجل اطمئنان الجميع ، فكان
القناصل مع النواب على رأى واحد ، وحينذاك فرح
الضباط والجنود وجميع الوطنيين ٠٠ وبعد ذلك توالى
اجتماع قنصلى فرنسا وانجلترا الجنرالين بالخديو ليلا
ونهارا ، ثم اتى أصدرت منشورا الى قناصل الدول
تكفلت لهم فيه بتأييد الأمن والراحة لجميع سكان القطر
المصرى وطينين وأجانب مسلمين وغير مسلمين ٠٠ الخ

أما الرافعى فيقص من خبر ذلك اللقاء بقوله :

« وفى غروب ذلك اليوم - ٢٧ مايو - اجتمع
النواب فى دار محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ،
وفد عليهم كبار العلماء ٠٠ فعقدوا اجتماعا حافلا ،
ثم جاءهم عرابى وهو فى شدة الغضب ، فأخذ يخطب
فيهم متهددا متوعدا كل من يناصر الخديو ٠

وجاء جمع من كبار الضباط منهم عبد العال حلمى
باشا وعلى فهمى باشا الديب ، ومحمد عبيد بك ،
وبصحبتهم نفر غير قليل من صغار الضباط والجنود ،
فدخلوا مكان الاجتماع بشكل مظاهرة عسكرية يطلبون
خلع الخديو علنا ويتهددون من يظهر له الولاء ، وقد

بلغ تهور العرابيين أشد ما يكون ٠٠ إذ ألقى عرابي
خطبة ملاًها طعناً في الخديو وفي العائلة الخديوية ،
ونادى بخلعه ، وختم خطبته بقوله : من كان معنا
فليقم ! فحدثت ضجة كبيرة في المكان ووقف الضباط
٠٠ ولكن معظم النواب والملكيين لم يقوموا ، فهددهم
الأميرالاي محمد بك عبيد بالسيف فظلوا جالسين ،
وتبين من ذلك الموقف أن النواب لا يوافقون عرابي على
خلع الخديو .

ولم يكتف عرابي بذلك ، بل هدد بمحاصرة سراي
الاسماعيلية التي كان الخديو مقيماً بها ، وأمر باحضار
الاي خليل بك كامل لهذا الغرض - وانتهى الاجتماع
في هرج ومرج دون أن يظفر بضم النواب الى صفه ،
ولما رأى هو وطلبه ويعقوب سامي أن النواب لا يوافقونهم
على اعلان خلع الخديو ، اكتفوا بالألحاح في بقاء
عرابي وزيرا للحربية . فقبل سلطان باشا أن يقوم بهذه
الوساطة لدى الخديو في ذلك ٠٠ وقابل سلطان الخديو
في ذلك اليوم بسراي الاسماعيلية وتحدث معه ملياً في
شأن الخلاف وايجاد طريقة لتسويته ، ثم اجتمع بدار
سلطان باشا جمع من النواب والعلماء وضباط الجيش
وانتهوا الى الاتفاق على مقابلة الخديو ورجائه ابقاء
عرابي وزيرا للحربية لكي لا يضطرب حبل النظام ٠٠٠
وبعد اصراره علم رفض طلبهم عاد فقبل رجاءهم

وأصدر أمرا إلى عرابي بإعادته إلى وزارة
الحربية (١٥) .

(عاد إذن عرابي إلى تقلد وزارة الحربية ورياسة الجيش
والسيطرة على الحكومة ، وظلت النفوس قلقة تترقب ما تتمخض
عنه الحوادث ، وبقي عرابي وصحبه نافذى الكلمة فى شئون
الحكومة كافة) .

(١٥) الزعيم أحمد عرابي : كتاب الهلال ص ١٠٧ - ١٠٨ .

١٣/١ - الخيانة والمؤامرة

أما الخيانة فكانت من جانب الخديو توفيق ، ، أما المؤامرة فكانت من جانب الانجليز ، أما توفيق فقد رأينا ما كان من مواقفه العديدة تجاه الحركة الوطنية منذ اطمأن الى ولايته منصب الخديوية ، الا أن ما يزرى به ويفصح عن خيانتة ما كان منه أثر وقوع فتنة الاسكندرية وانطوائه تحت حماية الانجليز ، وهو ما يعبر عنه الامام محمد عبده بقوله :

« أننا لا نريد خونة وجوهم مصرية وقلوبهم انجليزية » .

كما يصف توفيق في حديثه الى مكاتب - بول ميل جازيت - وهو في انجلترا ، فيقول :

(ان توفيق باشا أساء اليك أكبر اساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب ، لايمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا اذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه) .

وكان حديثه هذا على حياة توفيق وحكمه •

أما الدكتور هيكل ، فيصفه بأنه :

(صورة مرت في تاريخ مصر فكان أثرها فيه سلبيا

هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير) •

ويصفه - الكولونيل ب • ج • الجود في كتابه مصر (١) ،

بقوله :

(وكانت تنقصه قوة الشخصية التي تمكن الحاكم من

التغلب على الأنواء السياسية ويخونه العزم أو الحكم

السديد في اللحظة الحاسمة) •

وكان من اليسير أن يصبح توفيق مطية ذلولا للمؤامرة التي

تحمله دون أن يعي الى الخيانة ، وكانت تحكمه ولا ريب عقدتان :

حذره من العزل ، وأن تدفع الدولة العثمانية بغريمه حليم باشا

مكانه ، (وهو من اعتماده على تأييد فرنسا وانجلترا - كما يقول

الدكتور هيكل (٢) • كان يخشى أن لا يتخطى أمرهما التأييد المعنوي،

فإذا فوجئا بالأمر الواقع من عزله لم يقوموا بعمل لتثبيتته في عرشه،

وهو لم يكن يثق حتى بالجراكسة من وزرائه ، لأنه شعر بالقوة

المصرية تنقلب على كل شيء في البلاد وتبتلعه) •

(وحين أوفد الباب العالي درويش باشا معتمدا سلطانيا لينظر

في الخلاف بين الخديو ووزرائه ، بل والعرابيين جميعا ، فان هؤلاء

قد انتهوا الى ضرورة خلع الخديو وتولية البرنس حليم

مكانه ، وكانوا يطمعون في نجاح هذه السياسة لعلمهم أن تركيا

تؤيدها ..

(١) نقلة الى اللغة العربية الدكتور راشد البراوي •

(٢) تراجم : المصدر السابق : الخديوي توفيق باشا ص ٩٢ •

وفي انتظار حل المشاكل وتعيين وزارة جديدة تفاقم الخطب واضطرب حبل الأمن فاضطر الخديو الى أن يعين عرابي وحده ناظرا للحربية ليتولى امر الأمن في البلاد (٠٠)

(ولم يشعر الخديو من جانب المعتمد السلطاني بما يدل على استعداد تركيا اذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده في مركزه برغم العرابيين ، لذلك قبل الموقف كما هو وعين وزارة اسماعيل راغب باشا على أن يظل عرابي وزيرا للحربية . وظل توفيق ووزراؤه في العاصمة ، وظلت أساطيل الدول في مياه الاسكندرية وظل الناس يتحدثون فيما تؤول اليه الأمور في زمن قريب . وكان أعجب المواقف يومئذ موقف تركيا ، فقد اقترحت انجلترا وفرنسا أن ينعقد بالاستانة مؤتمر دولي للنظر في حالة مصر واقرارها على صورة من الصور ، لكن تركيا رفضت رفضا باتا بدعوى أن الحالة في مصر عادية ، وأن النظام قائم لا خوف عليه ، وفيما الحديث بين الدول في أمر المؤتمر وانعقاده وقعت فتنة الاسكندرية في ١١ يونيه سنة ١٨٨٢) .

ويرى الرافعي - وهي مآثره أقرب الى الواقع أن الدعوة الى عقد مؤتمر دولي للنظر في المسألة المصرية ، قد جاءت من جانب فرنسا ان (رأى ماسيو دي فرنسينيه أنه يستطيع انقاذ الموقف بدعوة الدول الى عقد مؤتمر دولي . . . فعرض في ٣٠ مايو سنة ١٨٨٢ على الدول الأوروبية الكبرى عقد هذا المؤتمر . . . فلم تتردد انجلترا في قبول هذه الفكرة ، وبإسار اللورد جرانفيل وزير خارجيتها باعلان قبولها اذ كان يعتقد أن السياسة الانجليزية لا يصعب عليها أن تبتدع الحوادث التي تسوغ تدخلها المنفرد في مصر .

وكان الخديو في أثناء أزمة استقالة وزارة البارودي قد أرسل برقية الى السلطان ينبئه فيها عن هياج الضباط . . (وكان

جوابها على رسالة الخديو وعلى فكرة عقد مؤتمر دولي للنظر في المسألة المصرية . . أن عيّنت في اليوم الثاني من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ مصطفى درويش معتمدا عثمانيا ساميا للحضور الى مصر . . فقد كان ظنها أن حضور - مندوب شاهاني يغنى عن عقد هذا المؤتمر ويكفي لاعادة السلام والوثام في مصر (٣) .

ويعلق الرافعي على هذا الاجراء بقوله : (أن سياستها كانت قائمة على الجهل وقصر النظر ، فبينما كانت انجلترا تعمل على التدخل الحربى وترسل أسطولها تمهيدا وتأيدا لهذا التدخل ، فان الحكومة التركية توهمت أن مجرد ايفادها مندوبا ساميا يعيد الأمور الى نصابها في مصر ويحول دون تدخل انجلترا ، وتوهمت أن عدم اشتراكها في المؤتمر يمنع الدول من أن تتدخل أو تبرم أمرا في المسألة المصرية) .

ريمصى الرافعى قائلاً : (كان هذا هو الوفد العثماني الذي جاء مصر في أثناء الحوادث العسراية ، والوفد الأول هو الذي حضر في شهر أكتوبر سنة ١٨٨١ برئاسة على نظامى باشا كما تقدم بيانه ، ويهمنا أن نقرر أن كلا الوفدين لم يحضر بنية خالصة نحو محضر ، بل حضر للمظاهرة وللإعلان عن سلطة تركيا في القطر المصرى ، دون أن يعمل كلاهما أى عمل نافع فى فض الخلاف بين الخديو والجيش أو فى انقاذ مصر من مطامع انجلترا) .

(جاء الوفد العثماني الثانى . . فى الوقت الذى اكتمل فيه عدد البوارج الانجليزية والفرنسية فى مياه الاسكندرية . . وقد كانت رؤية هذه البوارج كافية لأفهامه أن الموقف جد عصيب وان حضوره بصفته مندوبا عن السلطان لايمكن أن يؤثر فى الموقف شيئا بازاء تلك

(٣) الرافعى : الزعيم أحمد عرابى ص ١١١ - ١١٢ .

المدافع الضخمة الفارغة أفواهاها ، وتلك المعدات الحربية التي تنذر
بالمشر والدمار ، وأن هذا الموقف لا يحله حضور مندوب عثمانى
عدته المظاهر الفارغة التي يحاط بها ، ولا يهمله قبل كل شيء إلا
الرشاوى والأموال التي يتطلع اليها) .

ولم تلق إنجلترا بالألا الى الوفد العثماني ، ومضت في تحرشها
بالسلطات المصرية وبلغ بها التبجح أن أبلغت السفارة التركية في
لندن بأن (الجنود المصرية تجري التجهيزات والترميمات في حصون
الاسكندرية على نية تهديد الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، وأن
الباب العالى يطلب منعها اذا كانت جارية ، ثم أردفت ذلك
بتلغراف آخر في اليوم التالى يستعجل الرد) .

(وكان هذا البلاغ من وزارة الخارجية البريطانية - كما يقول
الرافعى (٤) - بداية التحرش بالسلطات المصرية ، اذ بنى على ما زعمه
الأميرال سيمور من أن السلطات المصرية تحصن القلاع المواجهة
للأسطول) .

ونرى أن إنجلترا كانت تدرك تماما ما يمكن أن تقوم به تركيا ،
كما كانت تدرك أن دور فرنسا لن يتعدى المناورة السياسية ، والدعوة
الى مؤتمر دولى للنظر فى المسألة المصرية ، كما رأت ذلك وأشارت
به ، واكتفت بما دعتة - ميثاق النزاهة - الصادر - عن - مؤتمر
الأسستانة ، وهى التى دعت اليه وتزعمه المسيو دى فريسينييه -
وعرضه على لورد جرانفيل ، فقبله ، وتعهد خادعا بتنفيذه .
وتنصه :

(تتعهد الحكومات الموقعة على هذا القرار بالألا تتضمن

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

أية تسوية للمسألة المصرية أى احتلال لأراضيها أو
الحصول على امتياز خاص بها أو مكاسب اقتصادية أو
امتيازات تجارية لرعاياها لا يخول لغيرها من رعايا
الدول الأخرى (٠٠

واقترح اللورد دفرين اضافة تحفظ على القرار نصه
- فيما عدا الأحوال القهرية -

ودلت هذه الاضافة على نوايا بريطانيا ، وهو ما تسفر عنه
رسالة لورد دفرين الى اللورد جرانفيل ، يقول فيها ، أن هذا التعديل
فى القرار واطافة هذا النص ، لم يعد للاتفاق أهمية تذكر .

ومضت بريطانيا فى خديعتها ، حين قرر المؤتمر فى جلسته
الآخيرة تكليف تركيا بارسال قوة عسكرية كافية تتكفل بحفظ النظام
والأمن فى مصر .

وانهى المؤتمر الدولى جلساته يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ ، وقد
اطمأنت انجلترا الى خططها ، فما وافى يوم ١١ يوليه ، وقبل أن تقدم
تركيا على تنفيذ القرار أو الرد عليه أقدم الأسطول الانجليزى منفردا
على ضرب الاسكندرية . وكان اجراما سافرا ، وان كان بجواره
اجرام خادع أو مخدوع أما الاجرام الخادع فكان من الخديو توفيق
والمخدوع كان فى موقف السلطنة العثمانية من الأزمة ، ولكل منهما
اسبابه البعيدة أو القريبة فى مجرى الأحداث التى انتهت باحتلال
انجلترا مصر ، وما كان من سياستها البغيضة التى عاقت نهضة
مصر وتقدمها . منذ وطئت أرضها أقدام الأفغانى ، حتى انبعثت
ضراما ملتهبا فى ثورة ١٩١٦ ، لتكون امتدادا لثورة عرابى فى
كلمته الخالدة مصر للمصريين .

وما كان ضرب الأسطول البريطاني للاسكندرية الا ذريعة لاحتلالها مصر ، ولم تكن سياستها تلك بنت الساعة ، أو وليدة ظرف طارئ انتهيته لاحتلال مصر ، وانما هي سياسة تمتد بجذورها — كما يرى المفكر العملاق — عباس محمود العقاد — الى زمن بعيد (فهي — أى المسألة المصرية — من جميع الوجوه حلقة من سلسلة الوقائع والمنازعات التى دارت سجالا بين الشرق والغرب من أقدم العصور التاريخية ، وتعددت بواعثها بين عصر وعصر وهى فى جميع البواعث تدور على محورها — التقليدى — من هذا النزاع الدائم بين الشقيين المتنافرين المتناظرين .

وقد عالت هذه المساجلات حينما يحب الفتح والغلب ، وحينما يدفع الخطر ، وافتقاء الغارة ، وأحيانا بالبحث عن الموارد الزراعية والتجارية ، أو بتبنازع البقاء بين زحام الشعوب فى حيز محدود) .

ولكنها فى حوادثها التى انتهت باحتلال مصر قد تمثلت فى دورين كبيرين : أحدهما لاحق بالآخر ومتوقف عليه : هذان الدوران هما : دور الحروب الصليبية ، ثم درو المسألة الشرقية ، واحتلال مصر لم يكن الا صفيحة من صفحات هذا السجل الواسع الذى اشتهر باسم المسألة الشرقية ، وامتد من الشرق الأدنى الى الشرق الأقصى فى حقبة من حقبة التاريخ .

(بدأت الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر ، واشتهرت باسم الحروب الصليبية لأن الداعين اليها نشروا دعوتهم باسم الدين واستنفروا أمم أوروبا للاستيلاء على بيت المقدس وموطن ميلاد السيد المسيح ، ولكنها فى حقيقتها لم تكن دينية بحتة ، ولم تخل من بواعث سياسية واقتصادية لاعلاقة لها بالدين ولا بالأماكن المقدسة) .

(ولهذا اتفق كثيرا أن جمهورية جنوا وجمهورية البندقية بذلتا المسعى الحثيث لتحويل زحف الجيوش الصليبية الى القسطنطينية

وهى فى أيدي العواهل المسيحيين ، وساعدتهما كنيسة رومة مرة بعد مرة فى هذا المسعى المتواصل ، لأنها كانت تشفق من نفوذ الكنيسة الشرقية وتبادلها التحريم والحرمان ، فى عنف ولدد وخصومة تهون عندها جميع الخصومات . أما الجمهوريتان الايطاليتان فكان همهما الأكبر تأمين المواصلات بين الشرق والغرب والاحتفاظ بطريق البحر الأبيض المتوسط حذرا من تحول التجارة الى البحار الغربية) .

ويمضى العقاد فى تناوله لتلك الأحداث التى انتهت باحتلال الانجليز مصر وما كان من الخديو توفيق ، فى اعتقاده (أن التدخل الأجنبى موقوف وأن المعاهدات الدولية والمنافسات بين الدول تمنع ضم مصر الى دولة منها ، فلم يحذر الاحتلال البريطانى ووجه الحذر كله الى مقاومة العراقيين^(٥) فأصدر أمره فى الحادى عشر من شهر يوليو - منذرا من يقاوم الجيش الانجليزى بشديد العقاب - وجاء فى ذلك الأمر مايلى :

(ليكن معلوما عند السلطات الملكية والعسكرية فى منطقة قناة السويس ، أن أميرال الأسطول الانجليزى ، وقائد الجيوش البريطانية العام انما أتيا الى مصر لاعادة الأمن والنظام اليها ، ومن ثم قد سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التى يريان فى احتلالها ما يساعد على قمع العصيان ومن يخالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب) .

ويقول العقاد : (وعلى حين فجأة ينكشف الستار وتنجلي الغشاوة ويبدأ المحتلون حكمهم فى القاهرة بتهديد مسند الخديوية الذى

(٥) العقاد : المصدر السابق ص ١٣٧ و ١٣٨ .

زعموا أنهم جاءوا لتأييده وتمكينه ، فما هو الا أن اختلف الخديو وقادة الانجليز على طريقة محاكمة العرابيين حتى أبرق اليه اللورد - جرانفيل - مهددا متوعدا فى أسلوب خشن ولفظ قارص وأبلغ الحكومة المصرية بصـريح العبارة ، وأنه ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة ، وإن استمرارها على الأباء يعرضها للفشل والخطر ، ولاتكون هذه مقتصرة على الوزارة وحدها بل تتناول مركز الخديو نفسه، وإذا لم تقبل الحكومة المصرية طلب الحكومة الانجليزية فلا يسعها أن تتحمل تبعة ما يترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء ثمانية أيام على تبليغ هذا الانذار) •

(تلقى الخديو هذا الانذار من الوزارة البريطانية قبل أن ينقضى على جيش الاحتلال شهر واحد فى القاهرة ، ولو تسنى له أن يتراجع فى سياسته لتراجع وأمعن فى التراجع ، ولكن سبق السيف العزل ، وبلغ الكتاب أجله وانتهت الحيل بترك الحيلة مع أقطاب الاحتفال والاغتيال) •

وكانت مذبحة الاسكندرية قمة المأساة وغاية الخديعة وليس من خلاف بين الرواة حول أحداثها ، وقد نرى فى عرض - أحمد حسين^(٦) - فى موسوعته الأثيرة تحليلا أوفى وعرضا أدق لما حدث، فيقول بعنوان - مذبحة الاسكندرية :

(فى ١١ يونيو انفجر الموقف الملتهب فى الاسكندرية ، واشتعلت النيران على صورة هذه المذبحة التى تعتبر بحق نقطة البداية لاحتلال مصر ، وكان عود الثقب الذى فجر الموقف الملتهب مشاجرة وقعت

(٦) المصدر السابق : ص ١٠٩٠ •

بين أحد المالمطين من رعايا الانجليز ، وكان قد استأجر حمارا من أحد الوطنيين ، وفي نهاية النهار قدم له قرشا ، فاحتج الوطنى فسيبه المصري فتماسكا فما كان من المالمطى الا أن طعن الوطنى بسبكين فقتله ، وهرب الى أحد مساكن الانجليزى فى الوقت الذى تجمع فيه رفاق القتل للمساك بالقتل الذى لم يلبث أن فر الى أحد المنازل المجاورة . . . وبدأ اليونانيون والمالمطيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهالى من الأبواب والنوافذ بحجة الدفاع عن النفس فسقط كثير من الأهالى ما بين قتل وجريح فثارت نفوس الأهالى وبادروا بالانتقام فراحوا يقتلون من يعثرون عليه من الأجانب وكان الأوربيون من ناحيتهم يطلقون النار على الأهالى) .

(ويذكر الأستاذ سليم النقاش - كما يقول - فى كتابه - مصر للمصريين - أن البوليس قد لعب فى هذا اليوم دورا محزنا ، واليك نص عبارته - وكان كل من العائدين الى المدينة (من الأجانب) يلجأ الى دار الضبطية الكائنة فى الشارع المعروف بأسمها توها منه أنه اذا بلغ مركز رقابة الأرواح صار فى مأمن من هجمات أولئك الرعاع ، ولكن وأسفاه ، فان ذلك المقام أصبح فى تلك الساعة مقرا للأهوال ، ومعهذا للفظائع فان نفرا من عساكر المستحفظين - البوليس - كانوا قد أثبتوا فى ساحتها ، وانتشروا على جانبها للوقوع بالمارة ، فكانوا يقبضون على كل أجنبى لجأ الى الضبطية ويفتكون به ويقتلونه ويتركوه للرعاع يسلبون ما عليه من ثياب أو خلى ثم يشوهون وجهه تشويها ويرمون به الى البحر) .

(كان ممن قتلوا فى هذا اليوم أحد ضباط الأيسطول الانجليزى وخادم خاص للأميرال كان قد نزل الى المدينة ليتنزه) .

(وكان من بين الجرحى فى هذا اليوم قنصل انجلترا فى الاسكندرية المستر كوكس وقد كتب لحكومته يصف لها ما حل به ويعجب كيف أنه ظل على قيد الحياة ولم يمت ، وظلت هذه القوضى فى الاسكندرية ولم تهدأ الا عندما نزل الجيش فى الساعة الخامسة مساء واستطاع أن يفرق الجماهير فى سهولة وأن يعيد الأمن الى نصيبه) .

(وقد اختلف اختلافا كبيرا فى عدد القتلى والجرحى من الجانبين ، فحيث يقدروهم البعض - جون نيزيه - بمائتين وثمانية وثلاثين من الجانبين الوطنى والأجنبى فان البعض يرتفع بهم الى ثلثمائة) .

(والحقيقة المؤكدة أن قناصل الدول فى الثغر ألغوا لجنة قدمت تقريراً جاء فيه أن عدد القتلى من الجانبين ٤٩ منهم ٣٨ من الأجانب وأن عدد الجرحى ٧١ منهم ٣٦ من الأجانب و ٣٣ من الوطنيين وأثنان من الأتراك) .

ويتساءل أحمد حسين : من المسئول ؟ .

(واذا كانت الروايات قد اختلفت هذا الاختلاف الكبير حول عدد القتلى والجرحى فى مسألة مادية بحته فباستطاعتنا أن نتصور مدى التضارب فى الآراء التى جاءت أن تلصق التهمة بهذا الجانب أو ذاك فقد حاول كل فريق أن يلصق التهمة بالحزب المضاد له ، فقد أسرع الانجليز والخيديو بتوجيه الاتهام الى عرابى باشا وحزبه العسكرى فى الوقت الذى ألقى فيه الوطنيون التهمة على الخديوى ورجاله باعتبارهم أرادوا بهذا الحادث احراج مركزه واظهاره بمظهر العساجز عن حماية الأمن ، ولقد قام من بين الانجليز - راندولف تشرشل - بعد أن احتلوا مصر من حاول احراج وزير

خارجية انجلترا ، فأظهر أن لأعمال ممثل انجلترا فى مصر مالت وكوكس دخل فى تدبير هذه المذبحة بالاتفاق مع الخديو فقد كانا يتوقان لعمل سيتخذ ذريعة للتدخل البريطانى . وأعاد الى الأذهان برقية قيل ان الخديو بعث بها الى عمر باشا لطفى قبيل المذبحة ، وجاء فيها :

(لقد ضمن عرابى الأمن العام ونشر ذلك فى الجرائد وقد تحمل مسئولية ذلك امام القناصل فاذا نجح فى ضمانه ، فان الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك أن أساطيل الدول فى ميناء الاسكندرية ، وان عقول الناس فى هياج ، وأن الحرب قريبة الوقوع بين الأوربيين وغيرهم ، والآن فأختر لنفسك هل تخدم عرابيا فى ضمانه أم هل تخدمنا ؟) .

ويخلص أحمد حسين بعد مناقشة ما كتب فى هذا الصدد الى :

١ - انجلترا هى المسئولة الأولى عن وقوع هذه الفتنة ، فقد كان وجود أساطيلها فى الاسكندرية هو الوقود الذى أدى الى اشتعال النار .

٢ - انه من الثابت أن وزعت أسلحة على 'الانجليز المقيمين فى الثغر قبل هذا الحادث' .

٣ - أن مشعل ثقاب الفتنة المالى هو أحد الرعايا الانجليز بل قيل أنه شقيق خادم القنصل الانجليزى ، وما كان ليجرؤ على قتل وطنى الا لعلمه بما يدبر فى الخفاء .

٤ - أن السير ادوارد مالت بعث برقيات الى وزير خارجية انجلترا يتنبأ فيها بقرب وقوع متاعب ، وأنه من الخير التعجيل بها :- هذا بالتسوية للجانب الانجليزى .

وهناك حقيقة خاصة بمسئولية عمر لطفى محافظ الاسكندرية وهو أنه وقف موقفا سلبيا فى هذا اليوم بأجماع الآراء ، وأنه لم يتصل بعرابى باشا منذ وقت مبكر وعندما فكر فى استدعاء الجيش اشترط أن ينزل بغير سلاح .

أما الخديو ورجاله فقد كانوا فى منتهى السعادة والغبطة لما حدث . . ولنا فى ذلك شهادة الشيخ الأمام محمد عبده الذى قال لنا فى مذكراته :

(وفى يوم الحوادث توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جدل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية ما كان ويضحكون من تعهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا بالحدن والكآبة جهدهم) .

والحقيقة المؤكدة - كما يرى أحمد حسين - التى تثبت براءة عرابى باشا وحزبه من حوادث هذا اليوم . . أنه من غير المعقول وقد ضمن الأمن العام أن يتآمر على نفسه ، على أن الدليل القاطع على هذه البراءة ، أن الانجليز بعد أن دخلوا مصر ، قد استبعدوا هذه التهمة عن عرابى فى محاكمتهم له ، ويبقى أن الانجليز ديروا ومحافظ الاسكندرية وحزب الخديو شجعوا وكان الظرف العام مهينا لوقوع مثل هذا الانفجار .

ولم يمض يومان حتى سافر الخديو - ١٣ يونيو - الى الاسكندرية للتصديق وللعمل على تهدئة الأجانب ، ولم يكن ينشد فى الواقع غير الاحتماء بالانجليز ، وهو يعلم أنهم قد أعدوا العدة للتدخل ، ولعل عرابى حين سمح للخديو بالسفر ، بل كان فى وداعه

(فركبت - كما يقول - على يساره من سراى الاسماعيلية الى محطة مصر) لم يكن يحب أن يبدو فى صورة الثائر العاصى ، وأنه لا ينشد غير مصلحة مصر ، وأن يكون الخديو الى جانبه فيما ينشده ، وقد رأينا مما سبق كيف كان يخاطب الخديو بكل توقير ولم يستجب للبارودى حين رأى خلع الخديو وعلان الجمهورية ، ولعله لو كان قد خلع الخديو لما وجد من الانجليز ثمة معارضة الا فيما يتصل بمصالحهم فلو أنهم ضمنوها لما كان لهم أرب فى خلعه ، وقد احتلوا مصر ولم ينكروا سيادة الدولة العثمانية ، وظلوا يعلنون أن احتلالهم موقوت حتى عام ١٩١٤ ، حين وقعت الواقعة بينهم وبين الدولة العثمانية حين أخذت جانب الألمان فى الحرب العالمية الأولى .

وكان من مسألة عرابى أنه كما أبى الاستجابة الى البارودى وعبد الله النديم باعلان الجمهورية أبى الاستجابة الى مشسورتهم - كما قيل - بردم قناة السويس . وكان أول ما قام به فى وزارة اسماعيل راغب باشا ، وكان عرابى هو القوة الحقيقية فى الوزارة أن رأى (تشكيل لجنة مختلطة من المصريين والأجانب لتجرى تحقيقا واسع النطاق فى حوادث ١١ يونيه ومعرفة أسبابها والمسؤولين عنها تمهيدا لتوقيع العقوبات (٧) الزاجرة على كل من يثبت اشتراكه فيها) . .

ولكن انجلترا أثبت التعاون مع وزارة راغب باشا ، وأوعزت الى السير أوكلن كلفن بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء ، لتمضى فى عدوانها الباغى كما تريد .

(٧) مذكرات : الجزء الأول ص ١٤٧ .

١/١٤ - المدون الباغى

وحيث أمنت إنجلترا انفراطها بالمسألة المصرية بعد موقف تركيا المريب ، وتقاعس فرنسا عن الاسهام فى المعركة وأرسل فريسييه رئيس وزرائها تعليماته الى الأسطول الفرنسى بالانسحاب من مياه الاسكندرية ، ولعله قد تصور أن الأسطول الانجليزى لا يستطيع أن يتفرد بالعمل أو بتعبير أدق أن إنجلترا لا تفرد بحل المسألة المصرية دون موافقة الدول الأخرى التى تشارك فى حلها .

وكانت البداية حين وجه الأميرال سيمور انذاره بتجريد القلاع والطوابى من أسلحتها ، وكان على عجلة من أمره حين عرف أن أسطول بحر المانش كان قد تلقى الأوامر بالاقلاع الى البحر المتوسط للانضمام الى أسطول سيمور للمعاونة فى ضرب الاسكندرية ، ولما كان الأميرال قائد أسطول المانش الرقى رتبة من سيمور فقد خشى سيمور من اشتراكه معه وبذلك تؤول اليه القيادة العامة للاسطيل وينسب اليه شرف الانتصار المرتقب (١) .

(١) المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم . معارك الثورة العربية هامش صفحة ٧٦ . كتاب التعاون السياسى .

واخذ الأميرال سيمور يتلمس الأسباب لعدوانه الغادر الباغى
أول أيام شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ، للقضاء على عرابى وبالأحرى
القضاء على تلك الروح الجديدة التى أخذ يدعو إليها ويبثها فى
نفوس المصريين ، فضلا عن النهضة الفكرية والأدبية التى قادها
رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمد قدرى باشا ، وأورى شعلتها
جمال الدين الأفغانى وعجز الاحتلال البريطانى عن أطفالها حتى قام
عليها الامام محمد عبده ليبقى عليها نيرة وضاعة ، فكانت دعوة قاسم
أمين لتحرير المرأة ودعوة مصطفى كامل ، لمقاومة الاحتلال البريطانى
ولتكون مصر أغنيته الخالدة ودعوة لطفى السيد للحياة الدستورية
ولتكون مصر للمصريين ومواقف سعد زغلول الخالدة لتبرز جميعا
فى ثورة ١٩١٩ ، مما سبق التنويه به ، فاذا كان الاحتلال البريطانى
قد عاق تقدم مصر ونهضتها فقد بقيت روح مصر قوية جياشة
بالوطنية لا تلين ولا تهين ولا تميد . لتمضى على دعوة عرابى
- مصر للمصريين - خالدة على الزمن - حتى خرجت بريطانيا من
جسولتها بخفى حنين ، وغدت ولاية من ولايات أمريكا حتى عدها
البعض الولاية الثالثة والخمسين من ولايات أمريكا فى إطارها
الكونفدرالى . وقضى على الامبراطورية التى لا تغيب عنها
الشمس .

فمع ما كان من سلطان انجلترا فى مصر ، (كانت الحركة
الوطنية المصرية - كما يقول الدكتور هيكل - (٢) تنمو وتقوى ، وكانت
الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذى لا يقبل مذلة ولا خضوعا
قد ملأت النفوس حتى كادت تفيض عنها) .

وقد شرع الأميرال بوشامب اعتبارا من أول يولية ١٨٨٢
- كما أشرنا - يتلمس الأسباب والذرائع التى تدعوه لبدء القتال،

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ .

وتحطيم تلك الروح المصرية الجديدة المتطلعة الى الحرية والاستقلال،
والتي مثلها الزعيم أحمد عرابي . . وكان صبر بريطانيا - حكومة
وشعبا - قد نفذ تماما . . فطوال عام ونصف كان كل انسان يرى
أن شيئاً ما يجب عمله بسرعة للقضاء على عرابي باشا . . « على
حد رواية لورد كرومر في كتابه عن مصر »

« ففي يوم ٥ يولييه أنعقد مجلس الوزراء المصرى الذى حمل
فيه عرابي باشا حملة شعواء على سلطان تركيا . . وقبل ذلك وفى
يوم ٣ يولييه . . كان اللورد السدتر - الأميرال يوشامب سيمور -
قد كلف بالعمل على وقف أعمال التحصينات المصرية ، فان لم تتوقف
فان عليه تدميرها واسكات البطاريات اذا أطلقت النيران » (٣) .

ويمضى كرومر فى روايته قائلاً :

(. . ولما كان رأى العام البريطانى والحكومة البريطانية قد
اتفقت وجهة نظرهما قبل ذلك على الكف عن الخطط السياسية التى
تشبه نسيج العنكبوت ، والتى كانت تقف دائماً عقبة فى طريق أى
عمل مثمر ومكنت عرابي باشا من تحدى أوربا . . فان الفرصة قد
سححت لنا من تلقاء نفسها للقضاء عليه . . ففي تاريخ سابق هو
٢٣ يونية ١٨٨٢ وصل الى علم الأميرالية البريطانية بأن بطاريات
السواحل المصرية يتم تجهيزها فى الاسكندرية لاستخدامها ضد
الأسطول البريطانى ، وأن السلطان العثمانى قد أمر بوقف هذه
الأعمال فنفذ المصريون أوامره لبعض الوقت ، ثم استأنفوها بعد
شهر واحد الى جانب العمل على حشد حامية الاسكندرية وقيام
عرابي باشا بتحريض زملائه على إثارة شعور الجماهير . .)

وكان ما كتبه لورد كرومر قد مضى عليه زمن ، ولم يكن يقصد ،
كنهج غيره من الاستعماريين الانجليز ممن عرضوا لها ، غير تبرير
سوء ما قاموا به لاسيما وقد قام من أحرار الانجليز من تصدى
للدفاع عن عرابي ، وأعباء الانجليز ممن أخذوا جانبه ودافعوا عنه ،
وقد لا يكون ذلك حبا في عرابي بقدر ما كان حبا في الدفاع عن
الشرف البريطاني الذي يدعونه ، كما يدعون أنهم حراس الحضارة
وسدانتها في العالم سندا لسيادتهم الاستعمارية في امبراطوريتهم
التي لا تغيب عنها الشمس .

وواقت الانجليز الفرصة بانسحاب الأسطول الفرنسي من الميناء
بناء على تعليمات حكومته ، وأخذت تعد لقصف قلاع الاسكندرية
وكانت مسرحية تثير العديد من السخرية ومن قبيل ذلك تلك البرقية
التي بعث بها الأميرال سيسيمور (في يوم ١١ يولييه ١٨٨٢ الى
الأميرالية البريطانية من الاسكندرية ، يقول فيها :

(لقد شوهدت مراكب مشحونة بالمواد المفرقة على
مسافة قريبة من الجسر - يقصد قناة السويس - وفي
هذا الموقع معسكر كبير للبدو ، ومعسكر الزقازيق تلقى
أوامره بحشد ٢٠ ألف رجل مزودين بالفتوس والأجولة
- مما يعنى أن النية معقودة على سد قناة السويس) .

ويقول عرابي : (أن النبي يزوره كل ليلة ، ويأمل أن
تقع الأساطيل المتحدة في فخ ينصبه وذلك بأن يغرق
مراكب محملة بالأحجار في القناة) (٤) .

(٤). المؤرخ العسكري محمد فيصل عبد المنعم : معارك الثورة العرابية
ص ٧٨ . نشر كتاب التعاون السياسي . مؤسسة دار التعاون للطباعة
والنشر . والكتاب تفصيل واف لمعارك الثورة العرابية من الناحية
العسكرية .

وتتوالى الرسائل بين الأميرال سيمور والأميرالية البريطانية لا نرى فيها إذا صحت إلا أنه لا يقدم على أمر دون استشارة حكومته عن طريق مجلس الأميرالية البريطانية ، وإن كان ذلك استمرار بريطانيا على نواياها في احتلال مصر ، ولم يكن موقف عرابي أو دعوته - مصر للمصريين - إلا ستارا تستر به نواياها ، وإن كان من نواياها سواء كان عرابي أم لم يكن غير القضاء على نهضة مصر - كما يثبت العقد - حتى لا يمتد أثرها إلى مستعمراتها في الشرق البعيد ، وهو ما يراه مستر بلنت ، بقوله :

(أن وزارتي البحرية والبحرية في إنجلترا عقدتا النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢ على مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس ، وشاهد بنفسه الاستعدادات الحربية في إنجلترا في شهر يونية سنة ١٨٨٢ ، وكان يعتقد أن الغرض منها تقوية مركز إنجلترا في مؤتمر الاسكندرية ولكن تبين له فيما بعد أن الغرض منها مهاجمة مصر) (٥) .

وهي ما بدا سافرا في تدبيرها مذبحة الاسكندرية ، ويؤكد - المسيو جون نينيه - في لقائه بالمستشرق الانجليزي بالمر حين كلفته وزارة البحرية البريطانية بالمجيء الى مصر وارتياد صحراء سيناء لرشوة القبائل البدوية بين قناة السويس وغزة قبل نشوب الحرب ، وقابله جون نينيه في الاسكندرية عرضا ، فقال له بالمر : انصحك بمغادرة القطر المصري حالا لأن الاسكندرية ستضرب بالقنابل عما قريب وستكون عرضة لأن يقتلك الأهلون (٦) .

(٥) بلنت : التاريخ السري للاحتلال ص ٢٦٦ . والرافعي : الثورة العرابية ص ٣٣٨ .

(٦) جون نينيه - عرابي باشا ص ١٤٥ ، والرافعي المصدر السابق ص ٣٤٠ .

ويقول جون نينيه : أن الأستاذ بالمر قام بمهمته ولكن البدو قتلوه هو وصحبه ، وحوكم قتلهم عقب الاحتلال وحكم عليهم بالاعدام ويرى الرافعى : (أن كل هذه الشواهد والنيات تدل على سبق اصرار انجلترا على ضرب الاسكندرية واحتلالها مهما كانت الأحوال أو اختلفت الأسباب وبالتالي - كما أضيف - احتلال مصر) .

وبدأ التحرش برسالة الأميرال سيمور فى ٦ يوليه الى طلبة باشا عصمت قومندان موقع الاسكندرية يأمره بالكف عن أعمال التحصين الجارية فى الحصون ، وأيقن العارفون بحقائق الأمور أن الحرب واقعة لا محالة ، وأوعز قنصلا انجلترا وفرنسا الى رعاياهما بالرحيل عن المدينة ، فتسابقوا الى هجرها ونزلوا الى السفن الراسية بالميناء ، وبلغ عدد الراحلين عنها نحو ٩٩٪ من عددهم الأصلي - كما يذكر جون نينيه فى كتابه - عرابى باشا - وقدرهم بمائه واثنين وستين ألفا . كما هجرها كثير من ثروة المدينة الى داخل القطر ، الا أن أكثر المواطنين بقوا بها .

وامعانا فى التحرش أرسل الأميرال سيمور فى العاشر من يولية انذاره الأخير ، يطلب اليه (تسليم البطاريات المنصوبة فى الحصون القائمة بشبه جزيرة رأس التين وعلى سواحل ميناء الاسكندرية الجنوبى ، والا ضرب الحصون صبيحة الغد ، وهو ما يؤكد اللورد دوفرين سفير انجلترا فى الآستانة الى وزارة الخارجية العثمانية فى العاشر من يولية يبلغها بأنه - اذا لم تسلم له الحصون مؤقتا يجردها من سلاحها فانه سيبدأ بالضرب خلال أربع وعشرين ساعة - .

(وفى الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ يولية عام ١٨٨٢ - كما يقول المؤرخ العسكرى - محمد فيصل عبد المنعم

— أعطى الأميرال سيمور إشارة بدء القتال ويعلق على ذلك بقوله :
(دخل التاريخ بوصفه أحد مجرمي الحرب غير مبال بحقوق الشعوب
أو سيادة الدول أو استقلالها — وقد بدأت البوارج الانجليزية في
ضرب الحصون حسب الخطة الموضوعة من قبل ، فضربت أولا
حصون الفنار ورأس الدين والاستبالية ٠٠ وقد قاومت الحصون
المصرية ، رغم الحالة التي كانت عليها مقاومة فاقت كل ما كان
يتوقعه الانجليز ، وأبدى جنود المدفعية المصرية مهارة في اطلاق
القذائف أذهلت البريطانيين مما دفع بالبوارج الى القاء مراسيها
لأنها وجدت أن ضربها غير محكم وهي تتحرك ، وبذلك حققت المسافة
المضبوطة التي تفصلها عن الحصون ، وأخذ ضربها يزداد أثره تبعا
لذلك) .

ولقيت مقاومة المصريين من اكبار وتقدير المحايدين من شهودها
يقدر ما لقي العدوان البريطاني من نقد وتحقير .

وقد تفانى المواطنون في الدفاع عن المدينة رغم أن الحسرب
كانت حرب مدافع وحصون ، (وعرف — كما يذكر جون نينيه — أن
الأميرال سيمور الذي تعهد بأن لا يضرب الا القلاع قد تناسى عهده
ونشر الموت والخراب في كل أنحاء المدينة ورأيت الحرائق شبت
في عدة جهات دون أن يستطيع أحد إخمادها) (٨) .

ويذكر الامام محمد عبده في هذا الصدد (٩) : قال — فكل
الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر

(٧) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٨) الرافعي : المصدر السابق ص ٣٦٧ نقلا عن جون نينيه — عرابي

باشا ص ١٧٥ وما بعدها .

(٩) المصدر السابق نقلا عن مذكرات الشيخ محمد عبده ص ٢٥٠ تاريخ

الأستاذ الامام .

ويقدمونها الى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله - وقال عرابي في ذلك :

(وفي أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر وأعطائهم الماء وحمل الجرحى منهم وتضميد جراحهم ونقلهم الى المستشفيات) (١٠) .

وقال محمود فهمي باشا في كتابه البحر الزاخر :

(ورأيت في ذلك الوقت بعيني ما حصل من غيرة الأهالي بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابي باب العرب واهتمامهم في مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وقراطيس البارود والمقذوفات ونسساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالي صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول) .

وقد قتل من المصريين خلال هذا العدوان الجائر - وأقول الخسيس - حوالي ألفين ، ولم تزد خسائر الانجليز عن خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحا ، وفي حديث عرابي - لجون نينيه - أن عدد القتلى سبعمائة والجرحى خمسمائة ، وان كان يقدرهم في مذكراته - كما يقول - بمائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللواتي كن يضمن جراح الجرحى .

ويشهد الكثيرون ومن بينهم بعض الانجليز ببسالة المصريين ، فيقول الماجور - تلوك Tullock - من رجال المخابرات

(١٠) مذكرات : الجزء الأول ص ١٧٨ .

الانجليز على ظهر البارجة (انفسيل) فى كتابه - ذكريات أربعين عاما فى الخدمة :

(لقد كان من العجب حقا أن أرى هؤلاء الجنود رغم شدة الضرب واقفين فى أماكنهم ، صامدين أمام مدافعهم ، وقد رأيت أكثر من مرة قذيفة من قذائفنا ، تصيب مزغل المدفع حيث تمتد ماسورته ، فأقول فى نفسى ، لقد قضى على هذا المدفع وأصبح حطاما ، الا أننى لا ألبث أن أرى ماسورة المدفع تبرز من مزغلها ليطلق قذائفه فى اللحظة المواتية وبسرعة فائقة ولم أتمالك نفسى فوثبت الى حافة البارجة صائحا . لقد أجدت استخدام مدفعك ايها الجندى المصرى .

وتجمع الآراء حتى من جانب الأعداء على بسالة المقاومة المصرية سواء من جانب القوات المحاربة أو المواطنين رجالا ونساء ، كما تجمع على ندالة العدوان ، هذا العدوان الذى يصفه - محمود الخفيف - بقوله (١١) :

(هذا هو العدوان الذى لا تجد فى تاريخ الحروب أقبح منه ، أو أشد منه فجورا ، والذى سوف تنطوى العصور ويظل فى تاريخ الانسانية من أبلغ الأمثلة على ما يفعل الأقوياء بالضعفاء ، وفى تاريخ الاستعمار المثل الرائع على ركوب أية وسيلة الى الغاية فى غير مبالاة بما يسمى الشرف أو الحق أو العدالة ٠٠)

(هذا العدوان الغادر الشنيع هو اطلاق المدافع

(١١) أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه - كتاب الهلال الجزء الثانى ص

من الأسطول الانجليزى على مدينة الاسكندرية فى اليوم
الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ، .

وانه لتاريخ خليق بأبناء هذا الوادى وبنى الشرق
جميعا أن يذكرود ، كلما تحدثت متحدث عن الضمير
والشرف البريطانى وعن الحضارة الأوربية بوجه عام
فى هذا الشرق المسكين .

(وانه لعدوان خليق بأن يخجل منه ساسة الانجليز
إذا نسوا أطماعهم فترة ، وفكروا فيما ينطوى عليه من
غدر وقحة) .

الا أن البسالة وحدها لا تجدى ما أعوزها السلاح وتجهيزات
القتال ، وقبل كل شىء الاعداد للمعركة قبل وقوعها مما يقتضى
سلامة البناء العسكرى وقياداته العليا ، وأسلحته الضاربة .

ولم يكن ثمة تفكير قطعا فى مواجهة عسكرية خارجية ، فكل
ما كان خلاف داخلى بين حاكم ومحكوم ، أو بتعبير أدق ، بين طبقة
حاكمة غالبية جائرة وطبقة محكومة مغلوبة على أمرها ، فإذا أحسست
بكيانها وقدرتها على المواجهة قامت تطالب بحقوقها فإذا قلنا أن
الثورة العرباية بدأت فى صورة حركة عسكرية تنشد المساواة بين
العسكريين المصريين وقد أصبح لهم كيانهم فى الجيش ، والعسكريين
من الجركس والأرناؤود ، فإن غباء الحاكم - الخديو توفيق ، وغباء
قادة الجيش وعلى رأسهم ناظر الجهادية عثمان رفقى ، وخيانة
رياض ، كان كل هذا الشرارة الأولى التى أوقدتها ، ثم وجدت
وقودها فيما عصف بالمصريين من سفه اسماعيل وغباء توفيق ، الى
جانب الوعى السياسى والفكرى ، فيما كانت الصحف تنشره ،
والمحافل الفكرية والأدبية ترده ، مما سبق تناوله والاشارة اليه ،

لتجد فى عرابى الحمية والحماس والشجاعة والمقدرة ، التى الفت قلوب الضباط المصريين حوله ، ووجد فيه الشعب ما يعبر عن أمانيه وينفس عن ضيقه ، لتغدو الحركة العرابية ثورة شعب وأمل أمة ، ولولا التدخل الأجنبى والمؤامرة الدولية وأطماع انجلترا وفساد الحكم العثمانى ، لحققت مصر أمانيها ، وهو مايشير اليه الرافعى - مما سبق ذكره - بقوله : (ولو لم يظهر عرابى . . لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر . .) وهو مايعنى أن مصر كانت تغلى بالثورة ، وما كان ينقصها غير القيادة التى تعبر عن أمانيها .

ومع ما قيل من أن الثورة العرابية قد فشلت ، فأئنا لانراها فشلت وانما تأخر بها الزمن لتبدو فى جلالها وفى قوتها فى ثورة ١٩١٩ ، ليقودها سعد زغلول تلميذ الثورة العرابية والناشئ فى رحابها ، وكان الامام محمد عبده قد بقى يزكى أوارها بعد عرابى .

وكان الوفاء لعرابى واكباره مما شغل الأفغانى والامام محمد عبده ، وكانا قد التقيا فى باريس وأصدرا جريدة - العروة الوثقى - لسانا ناطقا لجمعية العروة الوثقى التى ألفاها معا ، تجدد النداء بالجامعة الاسلامية ، وتندد بالاستعمار الأوروبى ومساوئه فى الشرق الاسلامى .

ولم ينس الزعيمان الكبيران - الأفغانى ومحمد عبده ، عرابى وثورته ، ورأيا فى ثورة المهدي فى السودان امتدادا لثورة عرابى فى مصر ، وكانا من المتعاطفين معها وكان لهما دورهما فى اقناع حكومة لندن باخلاء السودان ، وفكرا فى الاتصال بالمهدي (لياخذ أسيرا انجليزا كبيرا يفادى به عرابى) (١٢) . كما فكر الأفغانى

(١٢) محمد صبيح : محمد عبده - كتاب الشهر دار احياء الكتب العربية

بأن (يوفد ثقة خبيراً لينظم حكومة الخرطوم ويقودها حتى تتمكن من فتح مصر .. ومن غير محمد عبده يندب لهذا العمل ؟)

(وسافر محمد عبده ، وتمكن من الدخول الى مصر متنكراً ومتهرباً للرحيل الى السودان) .

(ويقول محمد عبده في إحدى رسائله : فتلقيت من الأمر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ومسمع من النداء . ولعل الله ينهض بالقول همما أو يكشف بالبيان جهالات .. وهذا ما اندفع به الى بلاد أستعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف عند حدوده عسى أن يتواصل المتقاطعون ويتناصر المتضادون وما توفيقى الا بالله) .

وقد ذكر رشيد رضا في موسوعته التاريخية الفريدة (أن جمال الدين الأفغانى كان يريد اللهاق بمحمد عبده الى الخرطوم اذا نجحت مساعيه .. ولكن القدر لم يكن يدبر أمره على هوى الشيخين ، فقد حدث حادث مفاجيء وقلب الخطط كلها ، وهو وفاة محمد أحمد المهدي وتولية التعايشى مكانه .. هنا أدرك محمد عبده أن مشاريعه انهارت كلها ، إذ أنه لا يستطيع مطلقاً أن يتعامل مع التعايشى ، أو يصوغ سياسته على يديه ، وكان صادقاً في حسه فقد انهارت ثورة السودان ، بعد ذهاب صاحبها وتولية الأمر من لا يصلحه فقرر العودة الى بيروت) .

ويقص ابراهيم باشا فوزى في كتابه - الممتع كما يصصفه الأستاذ صبيح - (السودان بين يدي غردون وكتشنر) خبر تلك (التعليمات المشددة التى ألقاها المهدي على قواد جيشه لكى يأسروا غردون حياً ، وصرح لهم بقصده ، وهو مفاداة عرابى ، ولكن قواده لم ينفذوا أمره فقتلوا هذا الانجليزى الكبير ، ولما بلغ الخبر الى المهدي غضب غضباً شديداً لأن جزءاً هاماً من سياسته قد هدم) .

١/١٥ - بين ثورتين

لم يهزم عرابى وإنما خسر معركة بقى أوارها يلفح نفوس المصريين بالموجدة على الاحتلال البريطانى ومقتته من ناحية ، والنقمة البالغة على الأسرة العلوية الحاكمة من ناحية أخرى ، ولم يلق عرابى أنصافا فيما كتب عنه منذ قام بثورته حتى عودته من المنفى ، ولم يسلم بعد عودته من المنفى من الافتراء والادعاء الباطل . وكان حرصه على كتابة مذكراته ، وهى كل ما بقى له من حرية القول فى حديثه الى التاريخ ، وهو ما يعبر عنه بقوله :

(أما بعد ، فأنى قد اطلعت على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والافرنجية الموضوعة فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فلم أجد فيها مايقرب من الحقيقة أو يشفى غليل روادها من أبناء الأمة .

لذلك رأيت أن أكتب للناس كتابا يهتدون به الى تلك الحقيقة المرموقة تمحيصا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة ، والمفتريات الباطلة ، وسميته « كشف الستار عن سر الأسرار » فى النهضة المشهورة بالثورة العرابية

فى عامى ١٢٩٨ و ١٢٩٩ الهجرين و ١٨٨١ و ١٨٨٢
الميلاديتين - قياما بالمواجب على لأبناء وطنى الأعزاء
وتصحيحا للتاريخ وخدمة عامة للانسانية وبنيتها ،
وصدريته بنسبى ويتاريخ حياتى ليعلم أنى عربى شريف
الأرومة ، مصرى الوطن والنشأة والتربية ، وهاك
نشأتى ونسبى الشريف المتصل بسيد الأولين والآخرين
صلى الله عليه وآله وسلم) .

أحمد عرابى المصرى

ويشاء القدر ألا تظهر طبعته الا على يد خليفته على أريكة
الثورة المصرية الرئيس اللواء محمد نجيب ، ليقول :

(تصفحت هذه المذكرات التى كتبها القائد المصرى
البطل أحمد عرابى - ليدبين للناس حقيقة النهضة المصرية
المشهورة بالثورة العرابية تمحيصا للتاريخ من درن
الاهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة) .

(ما أن سرت فى قراءتها قليلا ، حتى استوقفتنى
أهمية البيانات الخطيرة الدقيقة التى فصلها وسجلها
فأعدت ما قرأت مثنى وثلاث ورباع ، شاعرا فى كل مرة
من هذه المرات بلذة الاستذكار ، ولذة الوقوف على
تلك المفاخر المصرية الوطنية الحققة من بطولة وشهامة
وتضحية وأيثار) .

(وهكذا كان شأنى حتى أتيت على آخر هذه المذكرات
القيمة التى جمعت فأوعت وألقت الضوء على حقائق
تلك الحقبة الخطيرة من تاريخنا الحديث فأظهرتها فى

صدق واخلاص ويقين ، وكان فيها لذلك هدى للمهتدين
وعبرة للمعتبرين) .

(وانى اذ أترحم على الزعيم البطل صاحب هذه
المذكرات ، مشيدا بما أفاد به التاريخ المصرى بالكشف
عن أسرار لم تكن معروفة فيه ، وبمواقفه هو وصحبه
الذين رفعوا رأس الكرامة الوطنية ، لأرجو أن تتجدد
بها دائما ذكرى ذلك الجهاد الوطنى المجيد لينتفع بها
الجيل الحاضر والأجيال المقبلة ولتؤكد فى نفوس
المواطنين جميعا تلك المثل العليا التى ضربها عرابى فى
حركته الوطنية التاريخية العظيمة للرجولة الحقّة
والشهامة الموروثة وأباء الظلم والاضسيم والاعتزاز
بمصريته وقوميته مما جعله منارا يهتدى به ، ورائدا
يقتفى أثره ويتمثل فيه قول الشاعر العربى القديم :

إذا ما الملك ساءم الناس خسفا

أبيتا أن نقر الظلم فينا) .

(ان عرابى زعيم تلك الثورة أو النهضة المصرية ،
يمثل بسيرته وأعماله التى تفصلها هذه المذكرات مرحلة
مجيده من أهم المراحل التى مرت بها بلادنا فى العصر
الحديث فهو وطنى كامل الوطنية ، وهو مناضل لاتنقصه
الجرأة ولا الشجاعة ، ثم هو الى هذا وذاك جندى
باسل يعرف حق بلاده عليه ، ويعرف متى وكيف يؤدى
واجبه كاملا غير منقوص ، لكى يرفع لواء الكرامة
والوطنية ، ولكى يدفع عن الوطن وأهليه عادية
المستعمرين ومن يلوذ بهم من الطغاة . . المستبدين ومن
الذفيعين الفاسدين) .

ولعلنا نجد من أوجه الشسبه بين البطلين عرابى ، ونجيب مايكثف عما ينشده البطل من التزود بالمعرفة والعلم فى سبيل الحقيقه الكبرى التى يرى فيها السبيل الى الصراط المستقيم ، فقد مضى عرابى فى التزود من المعرفة ما يقود خطاه ، حتى أن - حضرة محمد سعيد باشا كثيرا ما كان يشركنى معه فى ترتيب المناورات الحربية وينبئنى عنه فى تلقينها الى أكابر الضباط بحضرته . . . ولشدة اعجابه بى أهدانى - تاريخ نابليون بونابرت باللغة العربية طبع بيروت (١) .

وما كان محمد سعيد باشا ليهديه هذا الكتاب ، أو ينبئه فى شرح المناورات الحربية لكبار الضباط الا لأن يعرف اقباله على المعرفة والتزود منها بما يريد ، وهو ما كان من محمد نجيب حين قبل على الدراسة المدنية والعسكرية ليحصل على أعلا مؤهلاتها الدراسية وزادها العلمى .

وقد سميت الثورة التى أعقبها الاحتلال البريطانى - كما يقول العقاد (٢) عملاق الفكر - كما دعوته فى كتابى عنه - (باسم - الثورة العرابية - نسبة الى زعيمها - أحمد عرابى بطل الحرية والدستور فى عصره - وهى تسمية صادقة وتسمية مطابقة ، لأن زعامة عرابى ، لتلك الثورة كانت من مشيئة القدر التى لا محيد عنها ، فلا حيلة فيها - لعرابى - نفسه ولا أحد من أشياعه وأتباعه ، وينظر المتأمل فى تاريخها فيحتار فى اختيار اسم آخر يقترب بها ويقوم بأعبائها ، فكأنما كانت قرعة ألقاها القدر فوقعت على عرابى دون غيره ، وسيقت اليه كما سيق اليها من فعل الحوادث وفعل الزمن وفعل المصادفات التى تتوافى على قدر واتفاق) .

(١) مذكرات : الجزء الاول ص ١٥ كتاب الهلال .

(٢) ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو ص ١٢٣ بعنوان - احمد عرابى .

(لم يكن فى الجيش المصرى من هو أقدر من عرابى ، ولا أعرف منه بمطالبه ، وأحق منه بعرضها والدفاع عنها ، وكانت حالة الجيش فى ذلك العصر حالة الأمة المصرية فى جملتها) .

ويصف العقاد يوم ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو عام ١٨٨٢ ، فيقول : (وكان من أحلك الأيام التى مرت على مدينة الاسكندرية ، بل على الأمة المصرية كلها ، فهو اليوم الذى أطلق الأسطول الانجليزى قذائفه على تلك المدينة الهادئة الوادعة ، فكان العابر للطريق بها بعد ذلك اليوم الحالك السواد يمر بأحيائها المختلفة العامرة ، فلا يقع نظره الا على الاطلال والأنقاض ، ولا تقع عينه على بيت قائم بين عشرات البيوت المتساعية أو التى هدمتها طلقات المدافع البريطانية الغاشمة بلا هوادة أو رحمة) (٣) .

ويصفه عرابى بقوله :

(صبت نار المدافع على القلاع والحصون والترسانة وسراى رأس التين ، وبالجمل على جميع أرجاء المدينة صباح الثلاثاء الواقع فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ولم تجاوبها مدافع القلاع الا بعد أن أطلق الأسطول نحو عشرين طلقة من مدافعه ، ثم استمر القتال بين الأساطيل الانجليزية وقلاع الاسكندرية بعد ذلك الى منتصف النهار ومن ثم أخذت نيران الاستحكامات فى التناقص والاضمحلال حتى تم تدميرها قبيل الغروب .

وحيث كانت استحكامات الاسكندرية قديمة كما هو معلوم وجميعها مبنية بالأحجار من مدة ٦٧ سنة أو ٧٠ سنة وقد باغتتنا الانجليز بالعدوان على غير استعداد منا

(٣) المصدر السابق : ص ٢ .

ولا تذهب ، فقد كان تأثير شظايا الأحجار المتناثرة
وضررها أكثر من تأثير مقذوفات العدو نفسها) .

أما الإمام الشيخ محمد عبده فيروى ما حدث بقوله (٤) :

(نحو مائة وخمسين ألفا من السكان مجردين من
كل شيء أخذوا في الحركة لغير قصد ولا ملأوى ، الموت
والفزع ملء نفوسهم على شطوط المحمودية الى دمنهور
وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة .

كان المهاجرون يكونون خطوطا سوداء تارة عريضة
وأخرى دقيقة متحركة في كل جهة أشبه بسلسلة انسانية
طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية
ولا عيش ، على طرفى تضاد مع سماء صافية وأرض
خضرة نضرة .

أما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو الماء انكسر
سده فاندلق يتصل بعضهم ببعض متزاحمين متراكمين
في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم ، أو
حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم : حيوان ،
أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التي
لا قيمة لها ، في هذه الحالة ، حالة شعب طرد من بيته ،
كان الحر شديدا ، وغيم من الغبار سد الأفق ، وأظلم
الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن مع بعضهن
البعض ، يتضاربين في أخلاط لا يمكن التعبير عنها ،
عربات بلا عجل استعمالات مساكن ، عربات من كل نوع
بعضها ساقط في المحمودية بعضها مقلوب ، بعضها

(٤) مذكرات الجزء الأول ص ١٧٢ - ١٧٣ .

بخيل وبعضها بغير خيل ، روائح شئى اللحم ، صياح
على المارة الخبز الخبز) .

ولم يلق سيمور بالا الى اشارات انتسليم ، وحين اشتعلت
النيران فى المدينة ، عجل سيمور باحتلالها ، ويقول عرابى فى
مذكراته (٥) :

١ وقع الرعب والفرع فى قلوب العساكر ودب فيهم
دبيب الفشل ، واستولى عليهم الخذلان فتشتت أكثرهم
لهول ما رأوا من تخريب الطوابى ، ولما رأيت ذلك وعلمت
أنه لا يقدر على جمع الجيش بعد تفرقه وخذلانه الا
التليل من القواد الموفقين ، حاولت أن أوفق الى جمع
شتاتهم فخرجت بمن أمكن جمعهم فى الغروب الى جهة
حجر النواتية وهناك ضرب النفير نوبة جمع فتوارد
بعض المنتشرين فى الفضاء) .

(وفى صباح ١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ ، توجهت بمن
اجتمع عندى من العساكر الى عزبة خورشيد ثم الى
كفر الدوار واتخذناها مركزا حربيا . . وجعلنا الخط
الأول من الاستحكامات عند عزبة خورشيد خلف
الملاحه) .

ولم يكن الخديو ينتظر أكثر من انسحاب عرابى والجيش من
الاسكندرية لكي ينحاز نهائيا الى جانب الانجليز ، وكان بناء على
تعليمات الانجليز قبل الضرب قد انتقل الى قصر المنتزه ، فلما توقف
الضرب اتصل بالأميرال سيمور وأعلنه عن رغبته فى العودة الى
قصر رأس التين ليكون تحت حمايته ، فأظهر الأميرال سيمور ترحيبه
بذلك ، وتوجه فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٣ يوليو الى

(٥) الجزء الاول ص ١٨١ .

قصر رأس التين وبصحبتة درويش باشا ، ومجلس الوزراء وعلى رأسه اسماعيل باشا راغب وبقية رجال الحاشية ، فكان في استقباله الأميرال سيمور وبعض الضباط ، وهكذا انقسمت البلاد منذ هذه اللحظة الى معسكرين ، معسكر الخديو ومن انضم اليه يؤازر الاحتلال الانجليز ويساندده ، ومعسكر عرابي ومن خلفه السواد الأعظم من الشعب يواجه الاحتلال ويحاربه ، ولكن الانقسام كان هو العنصر الحاسم فيما انتهى اليه الموقف من هزيمة منكرة (٦) .

وأخذ عرابي على توفيق انحيازه للانجليز ، فأعلن خيانتة ، وكان توفيق قد أعلن عزله ، وخشى عرابي أن يؤثر ذلك على معنويات المواطنين ، فكتب الى يعقوب باشا سامي وكيل وزارة الحربية بالقاهرة في السابع عشر من يوليو سنة ١٨٨٢ ، غرة رمضان سنة ١٢٤٩ - اتهم فيه الخديو علنا بخيانتة للبلاد وانه سبب البلاء التي نزلت بها ، ودعاه الى عقد جمعية عمومية من الذوات والأعيان والعلماء يعرض عليها الموقف ، ويطلب منها اصدار قرار في شأن الخديو وفيما يجب عمله لصالح الأمة ، وصلاحيه مثل هذا الوالى عليها ، وختم كتابه بالثابرة على التجهيزات الحربية ، وأن تحرر منه بذلك الى جميع حكام البلاد (٧) .

وأرسل اليه تلغرافا في نفس اليوم بأن بعض المراكب الانجليزية ذهبت الى سد أبو قير وبصحبتها ضابط من طرف الخديو يدلهم على المواقع مما يدل على انحيازه الى جانبهم ، وأرسل تلغرافا آخر الى محافظ القاهرة مفاده ان النظار محجوزون لدى الخديو (٨) .

(٦) أحمد حسين : المصدر السابق ص ١١٠٠ .

(٧) الرافعي : الثورة العرابية ص ٣٩٣ .

(٨) الرافعي : المصدر السابق ص ٣٩٤ نقلا عن الوقائع المصرية عدد

٢٠ يولية ١٨٨٢ .

وبينما بقى عرابى فى قيادته للجيش بكفر الدوار حيث اتخذ
مواقفه لمواجهة الانجليز كان يعقوب باشا سامى يدير شئون الدولة
بقدره وكفاءة وايمان والشعب من ورائه فى القاهرة والأقاليم يؤيد
عرابى ، وبمعنى أدق يدافع عن مصر أمام الغاصب الذى يحكم مصر
كرها كما حكمها أجداده والطامع الذى يرفو الى امتلاك مصر سررة
الشرق وحامية أديان السماء ..

ويقول الرافعى : (انه قرر دعوة العلماء والأعيان والرؤساء
الروحانيين والوجهاء وكبار موظفى الحكومة بديوان الداخلية فى
هيئة جمعية عمومية - أو مجلس العموم - كما أسموها - لاتخاذ
مايلزم من القرارات نيابة عن الأمة .. وأخذ هذا المجلس يتولى
سلطة الحكم ، وظل كذلك خلال الحرب ، وقد سميناه - مجلس إدارة
الحكومة - لانطباق هذه التسمية على عمله واختصاصه ، ويسمى
فى الوقائع المصرية - المجلس العرفى - وسنجرى على هذه التسمية
فى سياق الحديث) .

(وفى مساء يوم الاثنين ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ - غرة رمضان
سنة ١٢٩٩ - اجتمع المدعوون الى حضور الجمعية العمومية بوزارة
الداخلية وبلغ عددهم أربعمائة عضو ، منهم الأمراء الموجودون
بالعاصمة وشيخ الاسلام وقاضى قضاة مصر ، ومفتى الديار المصرية
وكبار العلماء والرؤساء الروحانيون والنواب ووكلاء الدواوين
والمديرون والقضاة والتجار والأعيان .. وعرضت عليهم الرسائل
التي تبودلت بين الخديو وعرابى .. وفى ٢٠ يوليه سنة ١٨٨٢ -
٤ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ - أصدر الخديو أمرا بعزل عرابى من
وزارة الحربية .. وفى ٢٢ يولية سنة ١٨٢٢ - ٦ رمضان سنة
١٢٩٩ - اجتمعت الجمعية للمرة الثانية والأخيرة وكان عدد
الحاضرين ، أكثر عددا - اذ حضرها نحو خمسمائة من الأعضاء

منهم ثلاثة من الأمراء ، وشيخ الأزهر وقاضى قضاة مصر ومفتيها ونقيب الاشراف ، وبطريقك الأقباط الأرثوذكس ، وحاخام اليهود والنواب والقضاة والمفتشون ، ومديرو المديريات وكبار الأعيان وكثير من العمد ومشايخ البلاد ٠٠ وتليت الأوامر الصادرة من الخديو والمنشورات التى أصدرها عرابى ، وتولى هذه التلاوة الشيخ محمد عبده ٠٠ وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عيش والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو عن الدين لانحيازهم الى الجيش المحارب لبلاده ٠٠٠ الخ (٩) .

ويقول الرافعى : (ولم يؤثر قرار الخديو بعزل عرابى فى الأمة ولا حفلت به ، بل أيدت عرابى وانضمت الى جانبه لأنها اعتبرت بحق أن بقاء الخديو فى الاسكندرية بعد احتلال الانجليز اياها مناصرة لهم وتواطؤا معهم ، فلا غرو أن عدت عرابى وجيشه المدافعين عن كيان البلاد ضد عدوان الانجليز ومناصرهم ، وهو شعور صادق نبيل يدل على أن الأمة فى فطرتها تكره المعتدين على كيان مصر ومن شيمتها أنها تتعلق بالاستقلال وتمجده وتؤيد حماته المدافعين عنه ، ومن هنا نهم كيف فقد الخديو عطف الأمة ومحبتها وكيف نال عرابى ثققتها وتأييدها ما بقى على عهده فى الدفاع عنها ، وقد أطلق على عرابى فى ذلك الحين لقب - حامى حى الديار المصرية) .

(وقد استمر القتال بين الانجليز والجيش المصرى قصمد هذا على قلة استعداده أكثر من شهر فى كفر الدوار ، وجاء المدد الى الجيش الانجليزى غير مرة من قبرص ومالطة وجبل طارق ، وعلم

(٩) أورد الرافعى أسماء الحضور وهم جلة أعيان البلاد وحكام المديريات وقد نشرت الوقائع المصرية فى عددها الصادر فى ٢١ يوليه نص محضر الجلسة وأسماء الموقعين عليه .

الانجليز أن - النزهة - التي تخيلوها ، حرب عوان لا يأمنون عقباها ، فاستعانوا بالرشوة والخيانة وأشاعوا في مصر منشورا من الباب العالي يرمى العرابيين بالعصيان والمروق من طاعة السلطان (١٠) .

ومما جاء على لسان الشيخ رشيد رضا في كتابه عن الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده ، أن الأستاذ الأمام سأل أحد الاميرالايات الذين في معية الخديو : مامصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز ؟ فأجاب الخديو وهو يهز كتفيه - ستين سنة - فقال الضابط : لكن السكان سيحرقونها ، فأرجو أن تتوسط لدى الأمير ، فالوقت لايزال يسمح بذلك . . . استدع - ذو الفقار - وأعطه الأوامر بالمحافظة على المدينة فعنده من الرجال الكفاية .

فأجاب الخديو : فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة . . . حرب بحرب كل ذلك يقع على رأس - عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين . . . وسيذوق الأوربيون الملاعيق عاقبة هروبهم مثل الأرانب ! . . .

الا أن - الفرد بلنت - في كتابه - التاريخ السرى لاحتلال بريطانيا مصر يشير الى موقف الخديو توفيق ، نقلا عن لورد تشارلز برسفورد وكان قائدا للبارجة - كندور - التي شاركت في ضرب الاسكندرية وعين حاكما للاسكندرية بعد القتال ، فيقول : أن الخديو توفيق لم يظفر منه بغير الاحتقار ، بينما ظفر عرابي بعطفه وتقديره الى جانب أولئك الفلاحين الذين قاموا بدورهم الحربى المجيد الى جانب عرابي رغم خيانة أميرهم توفيق (١١) . ولانرى في التاريخ

(١٠) العقاد - المصدر السابق ص ١٦٢ .

The Secret History of the English Occupation P. 266. (١١)

رجلا لقي من اكبار قاهريه - أو بتعبير أدق - محاربيه من ناحية ،
ومناصريه ممن أخذوا على الانجليز حربهم له سواء كانوا من
الانجليز أو غير الانجليز ، ولا نعجب أن يتطوع منهم للدفاع عنه
اثناء محاكمته ، وأن يعارضوا جميعا طلب الخديو توفيق بإعدامه
وأن يتبرءوا بأموالهم من أجل الدفاع عن عرابى من الانجليز
أنفسهم .

وقد ترك الانجليز لتوفيق اجراءات محاكمة العرابيين وعلى
رأسهم الزعيم عرابى ، ولكنهم حالوا بينه وبين البطش بهم وإعدامهم
كما كان يبغي ، وأن كانوا قد أيدوا نفيه بعيدا عن مصر ، فلمصلحتهم
لا لمصلحة توفيق ، لينفردوا به ، (ولعله - كما يقول الدكتور
ميكل (١٢)) فى سيرته - لم يخطر بباله أن انتصار انجلترا فى القل
الكبير ، ودخول الجيوش الانجليزية الى عاصمة ملكه قد قدر له أن
يكون معناه القضاء على سلطته ، بنقلها من يده الى يد هؤلاء الذين
تبقوه على عرشه ، ولعله لم يخطر بباله أن عوده الى مقر سلطانه
محاطا بالأمير وبالقائد وبقنصل انجلترا سينتهى لاريب الى أن تكون
الحوادث العرابية آخر ماخبأ القدر لتوفيق من نشاط ، ولئن كان
عرابى سيحاكم وسينفى الى سيلان فان ولى عرش مصر لن يكون
أعظم من عرابى سلطانا برغم مقامه فى قصوره وسط عاصمة ملكه .
وقد رأت حكومة جلاله الملكة عقب انتصارها على الثوار ، أن يكون
مصير الثوار بيدها لا بيد حكومة الخديو . . وإذا كان الخديو
وأنصاره يرون طبيعيا أن يقضى على عرابى وكل من معه بالإعدام
فان انجلترا تنظر للأمر نظرة أخرى . . ولذلك أبلغ القنصل
الانجليزى الخديو أن لا يتصرف فى أمر الثائرين قبل حضور اللورد
دوغرين الى مصر . . وكان أول ما طلبه اللورد دوغرين الافراج عن

(١٢) المصدر السابق : ص ٩٦ .

المئات الذين اكتظت بهم السجون باعتبارهم ثائرين عدا خمسة هم :
عرايى ، وطلبة ، ومحمود سامى ، ومحمود فهمى وعلى فهمى .
وجاء محاميان انجليزيان هما مستر نابير ومستر برودلى . وبعد
صدور الحكم بالاعدام استبدله الخديو عملا بنصيحة قنصل انجلترا
- ونصيحته عند توفيق أمر محترم - بالنفى المؤبد .

ولم تكن ثمة معركة فى التل الكبير لنقول أن عرايى هزم فيها ،
ولم يلق عرايى بالالمن أشار عليه بردم قناة السويس ، وكان أول
من أشار عليه بذلك صفيه وصديقه محمود سامى البارودى ، وما
عابه فيه الراقعى فى كتابه - الثورة العرابية ، وما أخذه عليه أيضا
- جون نينيه - أصدق المتشيعين له فى كتابه عنه .

وكان عباس محمود العقاد (١٣) أصدقهم حسا وإدراكا للواقع
فى تحليله لموقف عرايى من ردم قناة السويس ، فما أن يشير الى
أسباب هزيمة عرايى : فيقول :

(لا حاجة الى الاسهاب فى سرد أسباب الهزيمة
التي منيت بها الجيوش المصرية فى التل الكبير ، فليس
من العسير أن نفهم كيف ينهزم جيش يحيط به الجواسيس
وينقلون أخباره الى الأعداء ويتسابق الى خذلانه أقرب
الناس اليه) .

وينقد العقاد ماذهب اليه المؤرخون آن - (علقوا
بعض أسباب الهزيمة على موقف الجيش من قناة
السويس ، وحسب كثير منهم أن ردم القناة كان خليقا

(١٣) المصدر السابق : ص ١٦٣ .

أن يعطل حركات الانجليز فى الجبهة الشرقية ، وهو كلام يلقى على عواهنه ، لأن عرابيا لم يكتف بما أخذه - دلسبس - على نفسه من العهود المؤكدة ، وأمر بإرسال قوة الى القناة لمواجهة الحال بما تقتضيه) .

ويستشهد العقاد فى ذلك بما قاله الأستاذ الأمام فى تعليقاته على الثورة العرابية :

قال الأستاذ الأمام :

(وقبل أن يتحرك عسكرى الى ناحية القنال كان الجيش الانجليزى قد احتله وذلك لتأخير الجيش ١٥ ساعة فى مخابرة - دلسبس - ويظهر أنه كان فى الحاضرين خونة حملوا الاخبار) .

(أما وجهة نظر عرابى فهى تقديره أن الانجليز يعملون منفردين بين الدول ، وإن ردم القناة يجنح بالدول الى تأييدهم) .

ويمضى العقاد فى رؤياه ، ليقرر :

(ان الهزيمة كانت - ضربة لازب - بين عوامل الخذلان التى أحاطت بالجيش المصرى فى حالته تلك ، وهى حالة النقص فى العدد والعدة على الرغم من تكرار المطالبة بزيادته وتسليحه ، ولو كان فى مصر عدد كاف من الجنود المدربين لأمكن رصد - المخافر - اللازمة منهم لحماية قناة السويس من غير حاجة الى ردمها ، ونسليم المحتلين بذلك حجة يسوغون بها هجومهم ، ويمثلونه للدول فى صورة - المهمة الدولية - ويأتون بالشهود من مصر وغيرها على سبق المصريين الى العمل الذى أوجب الهجوم لحماية القناة فى حينها) .

وكان من أسباب الهزيمة ، أن كثرة ممن وقفوا الى جانب
عرايى يساندونه كما رأيناهم فى اجتماع الجمعية العمومية الأخير
(وقفت ترقب الأحداث عن كثب ، وانضمت قلة منهم الى الخديو
متنكرة لعرايى كأحمد بك عبد الغفار والسيد أفندى الفقى من نواب
المنوفية ، ومحمد بك الشواربى من نواب القليوبية ممن أشار اليهم
عرايى فى مذكراته . وكان على رأس هذه القلة محمد باشا سلطان
صاحب الحظوة لدى الانجليزى والخديو بعد خيانتة للثورة .

وبقى فريق على ولائه للثورة كأحمد باشا المنشاوى زعيم طنطا
الوطنى كما دعاه - جون نينيه - فى كتابه - عرايى باشا .

(ومن هذا الفريق الذى لفحته الثورة بغيرانها أحمد بك أباطه
وأمين بك الشمسى من نواب الشريعة ، وأحمد أفندى محمود ،
وابراهيم أفندى الوكيل ، ومحمد أفندى دبوس من نواب البحيرة ،
والشيخ أحمد الصباحى من نواب الغربية ومراد أفندى السعودى
من نواب الجيزة ، ومحمد أفندى جلال من نواب المنيا ، ومهنى
أفندى أبو عمر من نواب أسيوط ، وابراهيم باشا الشريعى وبدينى
بك الشريعى من نواب المنيا على عهد اسماعيل ، وقد تناولتهم الاحكام
العسكرية بالتجريد من الرتب والامتيازات ، والتحفظ عليهم فى بلادهم
لمدة مختلفة مع دفع تأمين مالى يتراوح بين ألف وخمسة آلاف جنيه،
فى الوقت الذى أنعم فيه الخديو على سلطان باشا بالنيشان المجيدى
من الدرجة الأولى وعشرة آلاف جنيه تعويضا له عما أصابه من
أضرار) (١٤) .

(وكان سلطان باشا حفيا بالاحتلال البريطانى فقدم الهدايا

(١٤) المؤلف : أحمد لطفى السيد : أستاذ الجيل - أعلام العرب ٣٩ -
الطبعة الأولى ص ٣٤ - ٤١ .

الى - قواده - شكرا لهم على انقضاء البلاد من غوائل الفئة العاصية (١٥) على حد تعبيرهم ، وتلقى الشكر على هداياه التي قدمها بأسمه واسم من شاركه فيها خطابا من الجنرال واسلى خصه فيه بالذكر ، كما خص به محمد بك الشواربى - باشا - ومحمود بك سلمان (باشا) - وأحمد بك السيوفى (باشا) على خطابهم الذى قدموا به هداياهم (١٦) .

(والغريب اننا لانجد من أعضاء مجلس شورى النواب ، أو حتى المجلس الأخير ممن اشتركوا فى الجمعية العمومية التى دعا اليها عرابى ، غير مصطفى أفندى علام من نواب القليوبية ، ومحمد أفندى دبوس من نواب البحيرة ، والشيخ الصباحى من نواب الغربية ، وبدينى أفندى الشريعى من نواب المنيا فى المجلس السابق مما يدل على مزيد من الحذر ان لم يدل على الفتور والتقاعس وايتثار السلامة وقد نالهم جميعا مانال العرابيين من سوء الجزاء) .

وكانت هزيمة عرابى - كما يقول العقاد - ضربة لازب - لا لعجز القيادة - كما يرى الرافعى - فلم يكن الرافعى غير راوية لا يملك من الثقافة العسكرية مايمكنه من الحكم على مجرى العمليات العسكرية ، بل نراه يقع فيما نسبته الانجليز الى عرابى ، وهو مايرويه - أحمد شفيق باشا ، بقوله :

وتفيد التفاصيل التى وردت على السراى فى صباح اليوم القالى ، أن الانجليز علموا فى مساء ١٢

(١٥) الوقائع المصرية عدد ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، والمؤلف - المصدر السابق ص ٤١ .

(١٦) انظر الرافعى : الثورة العرابية ص ٣٩٤ ، والمؤلف المصدر السابق ص ٤٢ .

سبتمبر بواسطة عيونهم ، أن العرابيين متصرفون الى
اقامة الأذكار فأوا بعد طول الانتظار أن الفرصة
سائحة لداهمتهم تحت جناح الظلام ، فتربصوا حتى
منتصف الليل ثم زحفوا لقتالهم بأحد عشر ألفا من
البيادة والفين من السوارى ، وستين مدفعا ، وكان فى
مقدمة جيشهم بعض ضباط أركان حرب من المصريين ،
وكذا جماعة من عرب الهنادى (٠٠)

(وبدأ الزحف من القصاصين فسار الانجليز دون
أن يشعر بهم محمود باشا سامى البارودى قائد فرقة
الصالحية فلم يلقوا مقاومة من جانبه ولا من جانب
مقدمة العرابيين التى يقودها على بك يوسف خنفس ،
وكان عرابى كلفه أن يواقيه بالأخبار يوما فيوما عن
حركات الانجليز ، فبعث اليه فى ١٢ سبتمبر يقول ،
ان السكون سائد فى معسكرات العدو ، فاغتر عرابى
بذلك وأصدر أمره الى الجيش بالتزام الراحة ، فصرف
الجنود ليلتهم فى الأذكار تحت اشرف الشيخ
عبد الجواد الذى كان مشهورا بالورع والتقوى) .

ومع ما فى هذه القصة من سذاجة ، نرى الرافعى يهتم
بروايتها ، فاذا كان شقيق باشا ، قد جاء على ذكرها ، فانه لايعرض
لناقشتها ولم يكن غير راوية لما كان ، فلا يعلق عليها ، وان اهتمت
تلك الرواية الخديو ولعله قد صدقها ، وبنى عليها ما يحلم به من
هزيمة عرابى ، ولا تعدو أن تكون من قبيل الرياء أو الملق أو القربى
من الخديو من اللائذين به وأولهم سلطان باشا ، ولا نرى فى رواية
الرافعى لها الا نوعا من السذاجة أو مشايعة الخديو ، ولم يكن
ممن يذكر عرابى بخير فيما يراه ، فلا ينكر عليه موقفه ، وان

اقتنص له ما يعييه وينفى عنه ما يزكيه ، الا ما كان من واقع مسلم
يه .

وما كان للرافعى أن يقع فى مثل هذا الخطأ ، فيسلم بتلك
الخرافة ، لو عرف انه حتى لو كان العساكر قد شغلوا بالذكر ، أو
بغيره من وسائل التسلية فان ذلك لا يغنى عن الحراسة والمراقبة من
- النوبتجيات - المكلفة بذلك فضلا عن نوبات الجمع ، والصحيان
يعلنها البروجى - لسمعها الجميع وتيقظ النائم من غفوته ، ثم
أن مثل هذه الخرافات مما يشيع على لسان الأوربيين عن المسلمين
والاسلام .

١٦ / ١ - الافتراء والحقيقة

نم يلق بطل من الافتراء مالمقى عرابى ، ولعل هذا مما حمله على كتابة مذكراته - كما يقول :

(فأنى قد اطلعت على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والأجنبية الموضوعة فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فلم أجد فيها مايقرب من الحقيقة ، أو يشفى غليل روادها من أبناء الأمة . لذلك رأيت أن أكتب للناس كتابا يهتدون به الى تلك الحقيقة المرموقة تمحيصا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة ، وسميته - كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فى عامى ١٢٩٨ و ١٢٩٩ الهجريين وفى ١٨٨١ و ١٨٨٢ الميلاديتين - قياما بالواجب لأبناء وطنى الأعزاء ، وتصحيحا للتاريخ ، وخدمة عامة للانسانية وبنيتها ، وصدورته بنسبى وبتاريخ حياتى ليعلم أنى عربى شريف الأرومة ، مصرى الموطن والنشأة والتربية وهاك نشأتى ونسبى الشريف المتصل بسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم) .

ومع ما كتب عنه من المنصفين أمثال بلنت وبيرودى فان هناك من الاسرار - كما يقول - (لا يعرفها أحد من الناس غيرى ، فأحببت

أن أظهرها للناس قبل موتى قياما بالواجب على لأبناء وطنى المحبوبين ولقد تحملت مدة ولاية اسماعيل الجائرة بكل صبر وثبات تحت ضغط الظلم والاستبداد ، ومكثت برتبة القائمقام مدة تسع عشرة سنة أنظر الى صغار الضباط الذين كانوا تحت ادارتى فى عهدى سعيد باشا واسماعيل باشا وهم يترقون دونى ، فترقى بعضهم الى رتبة الأميرالاي وبعضهم الى رتبة أمير اللواء ، وبعضهم الى رتبة الفريق ، لا بعلم علموه من دونى ، ولا بفهم خارق للعادة ولا بشجاعة أبرزها فى ميادين القتال ، ولكن لكونهم من مماليك أو أبناء مماليك العائلة الخديوية ، فاصطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجوارى الحسان والأراضى الواسعة الخصبة والبيوت الرحبة وحباهم بالأموال الكثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين المساكين وعرق جبينهم ٠٠ ١٩) ٠

فإذا جئنا الى معركة القل الكبير وما نسب اليه فيها مما أشرنا اليه من قبل ، وما قيل من أنه لم يرض بردم القناة — كما أشير عليه بذلك وكان على رأس المشيرين محمود سامى البارودى ، فأنا نرى أنه كان على حق فى ذلك ، وهو ما يتفق مع ماذهب اليه عباس محمود العقاد ، كما سبق القول ٠

وكانت معركة القل الكبير يوم الأربعاء الموافق ٢٥ شوال سنة ١٢٩٩ و ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، كنت فى صلاة الفجر ، إذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة ، ولم يكن ثمة قتال — كما يذكر عرابى — (فقد أخذ الرعب من قلوبهم كل مأخذ ، فتفرقوا فرارا ٠٠ فذهبت الى القنطرة التى على التربة هناك لأمنع العساكر من الفرار ، وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو وأنكرهم بالشرف الاسلامى والعرض والوطن ولم تغادر كلمة من شأنها تنشيط الأجسام الميتة ، وبث الشجاعة فى قلب كل رعديد

جبان ، فما كان من سميع ولا بصير ، بل ألقوا بأنفسهم فى التربة
وسبحوا الى البر الغربى) .

ويمضى عرابى فى روايته ، فيقول : (ذهبت الى بلبيس لجمع
المنهزمين هناك ، واتخذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول الى
القاهرة . . فلما وصلت بلبيس وجدت على باشا الروبى سسبقتنى
اليها ، فسألته عما دهاهم فلم يزد على قوله - أنه الخذلان - وكانت
على اثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا فأرخينا للخيل أعنتها
حتى وصلنا محطة انشاص فوجدنا هناك قطارا فركبناه ، وأسرعنا
الى القاهرة ، لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الأعداء قبل
وصولهم اليها) .

وفى القاهرة ، رأى عرابى ألا جدوى من المقاومة على غير
ما ذهب اليه البارودى من (وجوب استمرار الدفاع مع اخلاء
القاهرة والانسحاب بالجيش الى الصعيد ثم الى السودان اذا
أعجزهم الدفاع ، وأرسل الى عرابى تلغرافا من المنصورة يطلب
منه اغراق مديرتى القليوبية والشـرقية لتعطيل زحف الجيش
الانجليزى ثم الاستيلاء على جميع المراكب فى النيل وشحنها بالذخيرة
وتوجيهها الى الصعيد مع الجيش ولكن عرابى رفض العمل بهذا
الرأى وأصر على التسليم ، وسجن البارودى بالقاهرة ضمن من
سجن من العرابيين) (١) .

وكان عرابى على حق فيما ذهب اليه ، فلم يكن يملك القوة
العسكرية القادرة على الدفاع ، ولم يشأ أن يعرض القاهرة لما
تعرضت له الاسكندرية من دمار وتخريب . .

(١) الرافعى : الثورة العرابية ص ٤٦٤ .

وإذا كانت الهزيمة -- ضرب لازب -- كما يقول العقاد -- لنقص
المراد ومعدات القتال ، والقصور البادى فى القوات المسلحة ان
كان أكثرهم من الخفراء الذين جندهم يعقوب باشا سامى ولم تكن
نهم دربة على القتال ، وكان فرارهم من المعركة من أسباب الهزيمة
ان لم يجد عرابى منهم سنداً (وألقوا بأنفسهم فى التربة وسبّحوا
الى البر الغربى) .

وحين رأى ألا جدوى من المقاومة دفاعاً عن القاهرة ، وأن
(الانجليز يحاربوننا الآن باسم الخديو لانحيازه اليهم ، ففى امكانه
توقيف هذه الحرب وعدم خراب القاهرة وغيرها ، وليصنع بنا بعد
ذلك ما هو أهله من الغدر والخيانة . فلم يجد أرباب المجلس المذكور
أفضل من رفع عريضة الى الخديو نعترف فيها بإيقاف الحرب ،
ونلتمس منه الوساطة لدى الانجليز بعدم دخولهم القاهرة حفاظاً
لها من الخراب بعد تقديم الطاعة له والخضوع) (٢) .

ويحمل الرافعى ، على موقف عرابى ويعيبه ، ويتخذ من
التاريخ شاهداً على بسالة الجيش المصرى فى (رد الانجليز أنفسهم
حين حاولوا احتلال مصر سنة ١٨٠٧ ان هزمهم فى معارك رشيد .
أو البطولة التى عرف بها فى معارك المورة سنة ١٨٢٥ ، وفتح عكا
سنة ١٨٢٣ . الخ) .

(فهذه المفاخر التى يزدان بها تاريخ الجيش المصرى تشهد
بأن المعركة التى لحقت سمعته فى معركة -- التل الكبير -- انما ترجع
الى خيانة الضباط الموالين للخديو ، وجبن الضباط الموالين لعرابى ،
وعلى رأسهم عرابى ذاته فىأليته استشهد فى تلك الواقعة ان لمات
بطلاً وكان جديراً بأن تمجد الأمة ذكره) .

(٢) عرابى : مذكرات الجزء الثانى ص ٢٨ .

(ونو ان عرابى لم يستشهد فى واقعة التل الكبير وتراجع منها مصرا على الاستمرار فى المقاومة لعد عمله بطولة تذكر له بالخير ، ولكنه نكص على عقبيه ٠٠٠ لكى ينجو بنفسه اذ سلم سلاحه وألقى بنفسه بين أحضان الانجليز ولو كان مجاهدا حقا لظل يجاهد حتى آخر نسمة من حياته ، ولم تكن هزيمة التل الكبير بمانعة له من الاستمرار فى الجهاد والاعتصام بالمقاومة لو أراد ذلك) (٣) .

ولم يلق الخديو من نقد الرافعى مالمقى عرابى من تعامله ، ولم يكن الرافعى وحده من المتحاملين على عرابى ، فان عرابى لم يلق أنصافا طوال حكم الأسرة العلوية ، حتى اذ انتهى حكمها وزالت ولايتها على مصر أخذ المؤرخون يذوّهون بها ويذكرون فضل عرابى وجهاده فى أن تكون - مصر للمصريين -

وان استثنينا منهم قلة كالدكتور هيكل ، والمفكر العملاق عباس محمود العقاد فى قوله الحق وأنصاف عرابى ، قبل أن ينصفه مؤرخ آخر ، فى ظل الاحتلال البريطانى .

ولا ننسى لعرابى أنه أنقذ القاهرة ، بل ومصر من الدمار ، حين أنكر على البارودى رأيه ، ورأى أن (ليس لدينا جيش يقوى على الدفاع ، فلما شاهدنا ذلك علمنا أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الحرب والدمار) كما يقول فى مذكراته .

ولعل الرافعى قد نسى أو تناسى - حين أشاد بانتصارات المصريين على عهد محمد على أن محمد على نفسه هو الذى ألقى البذرة الأولى فى انكار حق 'المصريين فى بلادهم ولم يذكر عنهم الا

(٣) الرافعى : المصدر السابق ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

أنهم - لا يصلحون الا لحمل الأثقال وسوق الحمر - وهى عبارة نقلها عنه المؤرخ الانجليزى - هنرى دودول - فى تاريخه له (محمد على منشئ مصر الحديثة) (٤) -

وان عزاها الى غضب محمد على من الأثرياء الذين كانوا يتحايلون عليه عندما كان يريد ايفاد أبنائهم فى بعثات الى فرنسا ، فيرسلون اليه أبناء خدمهم بدلا منهم - الأمر العالى الصادر فى ١٤ صفر سنة ١٢٧٣ هـ .

فاذا رأينا فى حديث دودول ، تبريرا لقولة محمد على هذه ، فأننا لا ننكر ما قاله الإمام الشيخ محمد عبده - (هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول : هذا جيشى وأسطولى ، أو جيش بلدى أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شئ من ذلك : فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه ، فهى قوة خصمه . . فما أثر ذلك فى حياة مصر والمصريين الا أسوأ الأثر ، أثر كله شر فى شر ، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت) وهو نفس ما جاء على لسان عمر طوسون فى هذا الصدد .

(٤) Mohammad Ali : The Founder of Modern Egypt :

(If these fellows will neither understand the advantages of education nor of commerce, they are only fit to carry loads on their backs, life parters or dankeys).

ولعلنا نتساءل : ماجدوى أن يستشهد عرابى فى المعركة ؟
- كما يرى الرافعى - أن ماثرة عرابى الخالدة ، دعوته أن تكون
- مصر للمصريين - وقد بقيت هذه العبارة تهز كيان المصريين ،
حتى انبعثت قوية فائرة جياشة فى ثورة ١٩١٩ ، وكان سعد زغلول
- داعيتها ، فى مواجهة الاحتلال البريطانى وقد أصبح فى ظل
الحماية التى فرضها على مصر بعد الغاء السيادة العثمانية ،
صاحب السلطان الأعلى على مصر .

وقد كان سعد زغلول أحد أبناء الثورة العرابية وتنسم فى
شبابه عبقها الفواح ، وناله بعض ما نال العرابيين من وقدها
اللاسعة وكان لثورة عرابى صداها البعيد فى أنحاء العالم الاسلامى ،
وفى المستعمرات البريطانية حتى خشى الانجليز مغبتها فى
استعمارهم للهند ، وكان من أثر ذلك حرصهم أن يعلن السلطان
عصيان عرابى ، وهو ما وقع فيه السلطان العثمانى بغبائه ، ان يقول
فى بعض ما جاء فيه :

(وما أجراه عرابى باشا وتجاسر عليه من اجراء
تلك الحركات مغاير للرضى العالى ، فبغيه وعصيانه
هما نتيجة أفعاله وأعماله ، أما الحضرة الخديوية
فننقوذها مؤيد وامتيازها مقرر من الدولة العلية) (٥) -

وكانت الدولة العثمانية حينذاك تترنح وتعانى أضرار الفساد

(٥) الحاج احمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن الجزء الأول ص

والرشوة ، وان راحت تنشد من العالم الاسلامى السند والمعونة ، وهو ما يقرره شفيق باشا فى مذكراته بقوله (٦) :

« وقد ذاعت أنباء الثورة العرابية فى كل قطر ، وشغلت أذهان الشرقيين قاطبة ، ولاسيما الشعب الهندى ، حتى علمنا أن السفارة الانجليزية فى الأستانة ، ابتاعت من صاحب جريدة - الجوائب - التى كانت تصدر يومئذ باللغة العربية ، مليون نسخة من العدد الذى نشرت فيه ترجمة الارادة السلطانية ، التى أعلن فيها عصيان عرابى ، لكى توزعها فى الهند ، وتستعين بالأثر الذى تحدثه على اخفاء حركة التشيع للعرابيين ، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر انجلترا بشر العواقب) .

ويمضى شفيق باشا فى روايته فيقول : (ومما ساعد على نجاح الانجليز أن الجناب الخديوى عين محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب مندوباً خديوياً وبمعيته بعض ياوران سموه لدى الجنرال ولسلى وناط به نشر الدعوة ، وخصوصا بين العرب لمساعدة الجيش الانجليزى الذى يحارب العرابيين باسم الخديو أضف الى ذلك الهبات المالية التى كان الانجليز يقدقونها على العربان ، وخصوصا الذين قيدوا منهم بقلم الاستعلامات الانجليزى)

(ونذكر أن جريدة فرنسية محلية نشرت فيما بعد صورة رمزية فيها يد ضابط انجليزى تلوح بين أصابعها بجنيه من الذهب ، وتحتها يد أحد العربان مبسوطة لالتقاطه . . ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام ، انه لما يئست انجلترا من الحصول على تفويض من الدول

(٦) المصدر السابق ص ١٨٥ .

التي اشتركت في مؤتمر الأستانة لقمع الثورة العراقية ، وعجزت عن الاتفاق مع فرنسا أيضاً على ذلك ، أعلنت أنها تحارب العراقيين باسم الخديو لردهم الى طاعته ، وأن الجيش الانجليزى الزاحف على مصر ، انما هو جيش خديو مصر ، كما يفهم من التصريحات الواردة فى المنشورات التي أصدرها الخديو والأميرال سيمور والجنرال ولسلى (٧) .

ولا نرى أبغ من تلك خيانة للخديو توفيق ، والغريب أنه لم يجد من الانجليز بعد ذلك الا شرا واحتقارا ، وكان موقف الانجليز من محاكمة العراقيين على غير ما كان يأمل الخديو ، فقد أعلنت الحكومة المصرية أن مسألة الدفاع عن عرابى وزملائه بواسطة محامين من الانجليز لا يمكن الموافقة عليها ، حتى كان انذار اللورد جرانفل الى الحكومة المصرية بأن - ليس هذا أو ان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة ، وان استمرارها على الالباء يعرضها للفشل والخطر ، ولاتكون هذه النتيجة مقتصرة على النظارة وحدها بل تتناول مركز الخديو نفسه ، واذا لم تقبل الحكومة المصرية طلب الحكومة الانجليزية فلا يسعها أن تتحمل تبعه ما يترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء ثمانية أيام على هذا الانذار (٨) .

وبدأت اجراءات المحاكمة ، كما أراد الانجليز ، وكانت الحكومة الخديوية قد ألقت القبض على كل من حامت حوله شبهة الانتماء للعراقيين حتى بلغ عدد المقبوض عليهم نيفا وتسعة وعشرين ألف نفس ، وقد وضعت الحكومة الخديوية يدها على جميع زعماء الثورة العراقية ماعدا - السيد عبد الله النديم - فقد اختفى عن

(٧) المصدر السابق ص ١٨٧ .

(٨) المصدر السابق ص ٢٠١ .

الأنظار وعدت قصة اختفائه كما كانت قصة كفاحه الى جانب الثورة
العرابية أسطورة من الأساطير .

ويبدى الرافعى - ما يثير الدهشة والريبة - لعطف الانجليز
على عرابى ومعظم زملائه أثناء محاكمتهم ، واختصوا عرابى بأكبر
قسط من العطف والرعاية ، مع ما فى ذلك من تناقض ، فهم الذين
كانوا بالأمس يملأون الدنيا ضجيجا بوجوب القضاء عليه . .
باعتباره خارجا على الخديو . . وبعد أن انتهت الحرب بهزيمته
وشرع الخديو فى محاكمته اذ بالانجليز يتصمدون للدفاع عنه
وتخليصه من حكم الاعداء ، وقد نجحوا فى ذلك .

ولعل الرافعى فى حكمه هذا يبدو عاطفيا أكثر منه واقعيا ،
فقد أدرك عرابى أن رسالته لم تكتمل ، وأن كل مايتسنى له من
الحفاظ عليها ليصل بها الى الأجيال اللاحقة ، أن يبقى على قيد
الحياة ليصل بها الى الأجيال اللاحقة من أبناء مصر ، ولاشك فى
أن ثورته وشعارها - مصر للمصريين - قد بقيت حية ، لتسفر
عن نفسها فى ثورة ١٩١٩ على يد أحد رواده - سعد زغلول - ومن
قبله الامام محمد عبده ، ولطفى السيد ، بل الزعيم مصطفى كامل ،
لتكون - مصر للمصريين - وهو مانوه به عرابى فى مذكراته ،
وما حمله على أن يكتب مذكراته ويكون عنوانها - كشف الستار
عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية . .
ومما ينسب الى عرابى ، وهو مما نشك فى صحته ما قيل على لسان
عرابى من أنه حين اختار الانجليز جزيرة - سيلان - منفى له (أنه
اغتبط بهذا الاختيار وقال ، أن هذا المنفى يسرنى لأن سيدنا آدم
لما هبط من الجنة نزل فيها) (٩) ولم نسمع فيما جاء فى القرآن
الكريم وفى الكتب المقدسة مثل هذا القول .

(٩) الرافعى : المصدر السابق - تنفيذ الحكم فى الزعماء السبعة ص

وكم نسب الى عرابى من الافتراء والكذب ما يفوق كل ذلك ،
ومن قبيل ذلك ما يرويه شفيق باشا * وان وصفها بأنها من المضحكات
المبكيات ، وان كانت صورة لما نسب الى عرابى من انه قضى ليلة
المعركة - كما يروى الرافعى بقوله (وقد فوجيء المصريون بالهجوم
اذ كانوا نائمين بعد أن سهرُوا في سماع ذكر أرباب الطرق) (١٠) .

يقول شفيق باشا (١١) :

(ان صديقى المرحوم البمباشى حسن رضوان
قومندان الطوبجية فى استحکامات التل الكبير ، أخبرنى
أنه فى مساء ١٢ سبتمبر دخل عليه فى الطابية أحد
أرباب الطرق الصوفية وبيده ثلاثة أعلام ، وتقدم الى
أحد المدافع فرفع عليه أحدها ، وقال : هذا مدفع السيد
البدوى ، ثم انتقل الى مدفع آخر فوضع عليه علما
ثانيا ، وقال - أنه لسيدى ابراهيم الدسوقى ، ثم الى
مدفع ثالث ، وقال : انه مدفع سيدى عبد العال ، قال
صديقى - ولكن لم يمر على ذلك بضع ساعات حتى
صارت هذه المدافع لولسلى !!)

ولنا نتساءل : كيف خلت المعارك الأخرى التى خاضها عرابى
فى الجبهة الغربية ، والجبهة من هذه القرايات وقصرت على معركة
التل الكبير فحسب ؟!

وكل ما ينسب الى عرابى فى موقعة التل الكبير أنه لم يكن
يتوقع هجوما من هذا الجانب ، وحين فوجيء بالهجوم كان يصلى

(١٠) الرافعى : المصدر السابق ص ٤٥٠ .

(١١) المصدر السابق : الجزء الاول ص ١٩٥ .

الفجر مبكرا وكانت الخيانة والتضليل ، وعجز امكانيات المعركة من المعدات والجند المدربين سبب الهزيمة .

أما موقف عرابي في المحاكمة ، فدليل على نفاذ البصيرة وإدراك الواقع ، حين حال الانجليز دون اعدامه ، كما يقول بلنت في روايته عن محاكمته .

وكان من تدخل الانجليز ما يعلق عليه أحمد حسين في موسوعته بقوله (١٢) : (واستفاق الخديو على هذه اللطمة ، ولعله أدرك لأول مرة أنه قد أضاع استقلاله واستقلال بلاده ، وأن ما كان يتخيله من أن الانجليز قد جاءوا ليثبتوا سلطانه ليس الا محض خرافات وأوهام) .

وكان ما كان لتبدأ صفحة جديدة لعرابي ورفاقه في المنفى المختار .

(١٢) المصدر السابق ص ١١١٩ .

١٧/١ - الله ينصرك يا عرابي

وشاء القدر أن يكون منفي الزعيمين عرابي وصاحبه وسعد زغلول ورفاقه الى جزر المحيط الهندي من مستعمرات بريطانيا ، العرابيون في سيلان ، وأقطاب الوفد في سيشل ، وبقي سعد في سيشل حتى نقل بعد ثمانية شهور الى جبل طارق مراعاة لصحته .
وكانما كانوا جميعا على ميعاد ، فسعد زغلول صاحب عبارة - مصر للمصريين - كما كانت عبارة عرابي من قبل .

واذا قلنا أن ثورة ١٩١٩ كانت امتدادا لثورة عرابي فاذنا نبصدق القول في رواية التاريخ . وكان سعد زغلول من الملك فؤاد ، ومن لاذ به من المشايخين للترك من جماعة عدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ماكان عرابي ممن لاذوا بتوفيق وجماعته من الجركس ، ومن لاذ بهم من المصريين ، ومن الفريقين من كانت مصر بغيته رغم أجبوله التركية .

وقد نرى من سياسة سعد زغلول ، ما كان من سياسة عرابي ، فان ما عيب على عرابي -- كما يرى الرافعي -- من أنه لم يستمر في المقاومة (ولم يستشهد في موقعة التل الكبير وتراجع عنها مصرا على الاستمرار في المقاومة لعد عمله بطولة تذكر بالخير) وتناسى

الرافعى أن ما كان يتشده من عرابى ، سيؤدى الى تخريب مصر -
مما سبقت الاششارة اليه ، وكان فى هذا على غير ما ذهب
البارودى ، انقاذا لمصر من كارثة مخربة ، وكان فى انقاذ الانجليز
له من الاعدام والابقاء على حياته والاكتفاء بنفسه ، ما صان حياته
ليقول كلمته للتاريخ ، ولتصبح ثورة ١٩١٩ امتدادا لثورته . وتغدو
كلمته - مصر للمصريين شعارا لمصر والمصريين من بعد .

وكان فى سعد زغلول بعض الشبه من عرابى ، فلم تكن (قدرة
سعد زغلول على التحدى من قبيل الجمود الذى يقود الى الدمار
أو الخسارة ، ولم تكن قابليته للاستجابة من قبيل الاستسلام ، أو
السكون الذى يؤدى الى الشلل ، ولكنه كان يعرف متى يتحدى ،
ومتى يستجيب ، فهو بين التحدى والاستجابة يستلهم الواقع ويذكر
ما يمكن أن يسفر عنه هذا الواقع من نتائج قبل أن تظهر ، وكان لديه
نوع من الشفافية لم تكن لدى معاصريه ، فبينما تراه فى جانب
والآخرون فى جانب آخر فأنهم يرون ما يراه فى النهاية هو الأصح
وهو الأسلم ، وتلك موهبة اذا استندت الى الذكاء والقدرة على
الادراك ، تفرد صاحبها بين أقرانه بالموعى السليم وقد كان سعد
زغلول فى قدرته على التكيف مع ما هو واقع وما يواجهه من أحداث ،
من غير أن يتخلى عن عقيدته وما يعتبره الصواب أو الحق متفردا
بهذه القدرة (١) .

ولا نبالغ اذا قلنا ، أن الساحة الدولية ، وما عجت به من
صراع وتنافس استعمارى - وأعنى بالساحة الدولية - الساحة
الأوربية التى غدت ولها السيادة العالمية والتفوق الحضارى ، لم
تتغير كثيرا لا فى وسائلها ولا فى مراميها عندما فزعت مصر الى

(١) المؤلف : سعد زغلول . الرعاة والزعيم ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

ثورتها عام ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول ، عما كانت عليه عندما فزع بها عرابي الى غايتها ومرماها في ندائه - مصر للمصريين - فقد بقي النداء أغنية شجية في صوت مصطفى كامل ، وغدا نشيدا جياشا على لسان سعد زغلول .

'' فاذا كانت القوى الدولية التي تمسك بأعنة السياسة العالمية قد اقترحتها عناصر جديدة لها طموحها ومطامعها ، فان الدوايق والغايات لم تتغير ، وان انقلبت الموازين فيما بينها مع الغايات والمطامع التي تنشدها كل دولة ، وتتطلع الى تحقيقها وان أدى الأمر الى امتشاق الحسام ولعلعة المدافع . وهو مايشير اليه - برودلى - في كتابه الموسوعى الضخم - كيف دافعنا عن عرابي(٢) - بقوله :

(كان العقد الأخير من القرن التاسع عشر أشد مامر بالشمال الأفريقي من أى عقد آخر فى تاريخها ، فقد احتلت فرنسا تونس ، وكان ذلك من العوامل التى دفعت انجلترا الى احتلال مصر ، وما كان من صراع دولى حفل به الشمال الأفريقي ، ولم يعد الاحتلال البريطانى لمصر موقوتا بل مقيما) .

وقد اتصلت المراسلات بين برودلى - والعرابين طويلا يأتى برودلى على تفصيلها بنصوصها الانجليزية .

ولم يكن غريبا - كما يقول - أن يقف - بلنت - الى جانب عرابي ، فقد كان جلا دستون متعاطفا مع العرابيين ، ويرى المصريين

(٢) بدأت فرنسا احتلالها تونس سنة ١٨٨١ عندما عبرت حدود تونس من الغرب وارغمت الباي محمد الصادق على توقيع معاهدة بارو ، فى ١٢ مايو ١٨٨٢ بفرض الحماية الفرنسية عليها : المؤلف .

على حق فيما ينشرونه لأنفسهم من حياة دستورية سليمة ، ومما يرويه - برودلى - فى هذا الصدد (أن بلنت - وهو صاحب الفضل الأكبر فى الدفاع عن عرابى - وكان فخورا بأن يدعو عرابى - صديقى - فى جولته مع زوجته فى بواكير حركة عرابى - حركة مصر القومية - فى بوايدى سوريا والجزيرة العربية وخيام البادية . وكان من أثر جولته هذه - أن عرف كيف يوقر العرب ويحمل لهم كل تقدير - كما يقول - فأحب عرابى فقد رأى وزوجه فيه - زعيما أميناً لشعب ينشد العدل والحرية والتحرر من الاستعباد ، مما حملهم على تبني قضيته والدفاع عنه ، وكان فخورا بأن يدعو - صديقى عرابى - وكان هذا مما لسه فى جولته تلك فى بوايدى الشام وجزيرة العرب ما حرك مشاعر أحرار الانجليز فوقفوا الى جانبه فى دفاعه عن عرابى ، ولم يكن ينشد الا أن تكون محاكمة عرابى محاكمة عادلة - ولنفترض أنه أخطأ ، فإن من حقه أن نستمع الى دفاعه قبل أن يقضى فى أمره - وقبل أن يتبنى - بلنت - الدفاع عن عرابى ، لا نرى فى موقف عرابى ، الا كل شموخ ، وأباء ، ويكفيه فخرا ما كان من تسليمه وهو يعلم مصيره على يد الخديو - الخديو الخائن وجماعته - على غير ما ذهب اليه البارود ، انقاذاً لمصر من دمار محقق ، ولم يكن ثمة ما يشير بعد الى تبني - بلنت - قضية الدفاع عنه ، وكان حرصه أن يكتب فى سجنه وصيته للتاريخ - وان قيل - كما جاء على لسان شفيق باشا - ان (برودلى هو الذى أملاها عليه) - كما أشار الى أن الحكم (الصادر على عرابى وزملائه وقع وقعاً سيئاً فى النفوس ، ولم تتمالك جريدة - اجبشيان غازيت - نفسها وهى لسان حال الانكليز فى مصر من المجاهرة بأن نتيجة محاكمة زعماء العرابيين ، جاءت مخالفة لمجرى العدالة ، وقد اعتبرها الناس جميعاً ضربة قاضية للرأى العام) .

وان كنا لا نجد فيما قاله شفيق باشا سنداً من الواقع - وقد جاء تعليقه في هامش الصفحة التي دون فيها ما قاله مايلي :

(على أن بعض كبار الانجليز قالوا أن الخديوي كان راغباً أشد الرغبة في اعدام عرابي التي كانت محاكمته غاية في السخف لأن جميع المسائل رتبت سرا معه على أنه اذا اعترف أمام المحكمة بأنه مذب فان الحكومة البريطانية تتعهد ألا تسلمه للحكومة المصرية وأن تنفيه مع أسرته الى مستعمرة بريطانية) (٣) .

وان كان من الانصاف أن نقرر أن شفيق باشا قد أورد - وصية عرابي السياسية - نافية لا جاء في تعليقه السابق هذا .

وعلى أية حال فان الاجماع وخاصة من جانب المؤرخين والكتاب الانجليز ينتصف لعرابي تماما ، ولعل انصافهم لعرابي انصاف للعدالة الانجليزية ، أو بمعنى أدق انصاف للقيم الانجليزية التي يحرص الانجليز على ابرازها صورة للرأي العام الانجليزي وأن خالفت اتجاه الحكومة ، وهو ما يحرص عليه الانجليز في تمجيدهم لبلادهم .

وقد جاء كتاب - برودلي - كيف دافعنا عن عرابي - ملحمة رائعة في ابراز العدالة الانجليزية ، لا تخلو من الطرافة ، فقد صدر الكتاب ، وغلافه بلونه الأزرق الرمادي - بديلاً لعنوانه الأصلي في الصفحة الداخلية التالية ، على الصورة التالية وكلماته باللون الأحمر :

الله ينصرك يا عرابي

(٣) المصدر السابق : الجزء الأول ص ٢٠٤ .

والصورة الداخلية التي تلى صفحة العنوان - اسم (أحمد
عرايى المصرى) وفى أدنى الصفحة بعد العنوان واسم المؤلف عبارة
(الله يقصرك يا عرايى)

بخط النسخ يبدو انه كتبه بنفسه .

والكتاب موسوعة فريدة فى تاريخ الثورة العرابية والمجتمع
المصرى الى جانب المجتمع العربى الذى تشيع لعرايى على خلاف
ما ذهبت اليه الدولة العثمانية والسلطان العثمانى - بادانتته
واتهامه بالعصيان .

فاذا جئنا الى عرايى فى مذكراته نراه يقول فى هذا الصدد :
(عين صديقى مستر ولفرد بلنت المستر برودلى
الأفوكاتو الانجليزى للمحاماة عنا ومعه المستر نايبيار
والمستر أيف افوكاثية ، والمستر سنتليان ، وهو عالم
بالعربية والانجليزية استحضر من تونس برفقة المستر
برودلى لهذه المهمة وذلك بمقتضى خطاب هذا نصه :

بسم الله العزيز القدير

(الى صاحب السعادة صديقى العزيز السيد
أحمد عرايى باشا حفظه الله .

بعد السلام التام والسؤال عن خاطركم الكريم أعلم
جنابكم أن حامل هذه الأسطر المستر برودلى وهو من
المتشرعين الماهرين ومشهود له بحب الاستقامة والانصاف
وقد كان من قبل بتونس وهو يحب العرب ، وقد اختارته
ليحضر الى مصر لكى يحامى عنكم وعن بقية الأسرى

أصدقائنا الأعزاء ، وهو (أول متشرع ، ويكون المستر
نابيار مساعدا له فاجعلوا كل ثقتكم فيه واطلعوه على
جميع الحجج والبراهين التي في يديكم وسلموه نسخ
جميع الرسائل التي تقوى دعواكم حتى يترجمها الى
الانجليزية أو يرسلها الى لندن لترجمها ونرسلها له
لئلا يترجمها أناس ذوو أغراض ، فيغيروا معناها
الأصلي بقصد تشويه دعواكم والحاق الضرر بكم ،
ولا حاجة الى تكرار خلوص حبي لكم ، واني في كل حال
صديقكم الأمين) .

(ولا يخفى عليكم بأن جميع مصاصيف الدعوى
والحامين تكون على ذمتي وخدمة بعض أصدقائي من
أصحاب الأفكار الحرة والمحبين للعدالة ، فلا يكون
عندكم أدنى فكر من هذا الخصوص ، اتكلوا على الله
القوى لا يهمل من يتكل عليه ، وادام الله بقاءكم) .

تحريرا في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

المحب المخلص ولفرد بلنت

(وكان قد عمل قائمة اكتاب بانجلترا بتلك المصاصيف البامضة
التي صيرفت في سبيل الدفاع عنا ، دفع منها الجنرال غوردون
٣٠ جنيها ، ولكن أكثر المصاصيف كانت من طرف صديقنا المستر
ولفرد بلنت الا أن حضور المحامين المذكورين كان بعد تمام الاستنطاق
ولم تسأل في شيء بعد . . . وأما المستر نابيار فإنه أفوكاتو انجليزي
عينه صديقنا المستر ولفرد بلنت للمدافعة عنا بمقتضى خطاب من
حضرته بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وهاك نصه :

(الى صديقي العزيز السيد أحمد عرابي باشا صانه المولى
وابقاءه :

بعد السلام التام والسؤال عن خاطركم العزيز أعلموا جنابكم.
أن المستر نابيار حامل هذه الأسطر هو صديقي ، وهو من عائلة
شريفة ومعروف من أكابر الانجليز ، وقد حضر الى مصر لكي يحصل
على أدلة وبراهين للمحاماة عنكم ، وعن باقى أسرى الحرب ، وهو
متشروع ماهر مشهود له بالباع الطويل فيمكنكم أن تثقوا به لأن
حضوره الى مصر هو بناء على طلبى ، كى يناضل عنكم فى المشرع
وقت المحاكمة ، وكذا عن بقية أصدقائى الذين هم الآن اسراء بأمر
الله ، فلا تعتمدوا على كلام أى كان من الذين ربما ينصحونكم أن
تتكلّموا عن رحمة المجلس العسكرى ويجتهدون بأن يقنعوكم بأن
لا تتعبوا أنفسكم فى جمع الأدلة والحجج اللازمة للمحاماة عنكم ،
فان الذين ينصحونكم بمثل هذه النصائح لهم أغراض شخصية
لا تجهلونّها ، وأما أنا فأنصحكم بأن تتجروا وتظهروا كل ما لديكم
من البراهين والأدلة ، ولو أنها لا توافق صالح غيركم ، فتكلّموا
كل الحق ، وأظهروا ما عندكم من الحجج وتوكلوا على الله ، ثم أنى
قد قوضت لصديقى المستر نابيار أمر الاعتناء بعائلتكم المصونة
ومساعدتها فى كل ما تحتاج اليه من مال وغيره على ذمتى مادامت
الأحوال على هذا المنوال ، فلا تتحاشوا من ذكر كل ما تريدون ذكره
وطلب كل ما تريدونه ، فأنى مستعد بكل قلبى ورغبتى لأفعله حبا بكم
ولو صعب فعله وعظم أدره ، هذا وحضرة السيده - أنه - قرينتى
قسلم عايكم وتسأل عن خاطركم ، محبكم المخلص
ولفرد بلنت

.. تحريرا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

(حاشية)

(ولا يخفاكم أن جميع مصاريف الدعوى كلها تكون
على ذمتى وخدمة بعض أصدقائى بلندن من أصحاب
الحرية والمحبين للعدل والانصاف)

ويقول عرابي :

(وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أخذت خطابا من البوسنة واردا من نيويورك بأمريكا تاريخه ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ وهذه ترجمته)

(الى عرابي باشا

سيدي العزيز :

انى حظيت بكتابك الذى يخولنى شرقا عظيما ، فتشجع
ياصاحبى واعلم أن - بعد العواصف تشرق الشمس - وان - مصر
للمصريين - ثم أنى وقفت على أفعالك الوطنية من الاسكندرية الى
مصر ، ورجائى قوى بأذك ستنتصر على الحدثان والمحن المحقة
بك) .

الأكثر اعتبارا لك

جوليا كارتين

ويمضى عرابي ، قائلا :

(أنتهى محضر استجوابى ، أما محضر استجواب
على باشا فهمى وسائر محاضر استجواب زعماء
الثورة العسكريين وهم عبد العال حلمى باشا ومحمود
سبامى باشا ، ومحمود فهمى باشا ، وطلبة باشا ، ففى
كتاب - مصر للمصريين - وجرائد ذلك الحين) .

ومما يشهد به شفيق باشا لعرابى قوله :

(وكان موقف عرابى وهو فى الحبس مملوءا
بالوقار لأنه مهما قيل عن شجاعته المادية كان على
مبلغ كبير من الشجاعة الأدبية ، وكانت هيأته وسلوكه

كذلك عند مقابلتها بسلوك المعتقلين الآخرين يلفتان النظر ، فقد كتب دون أن يتردد تاريخ المسائل السياسية التي (٤) اشترك فيها بأجمعها ، وكانت روايته صريحة مقنعة. ولم تكن صراحته دون ذلك أيضا عندما روى ضروب الاشاعات التي عامله بها أولئك الأوغاد السفلة خدمة الخديو توفيق - خدمة الخديو هما حسين أغا الشماشرجي ، وإبراهيم أغا القوتنجي - الأتراك عندما نقلوه من السجن الانجليزى الى السجن المصرى وطول مدة بقاءه فى هذا السجن)

ويروى عرابى ما كان من محاكمته ، فيقول (٥) :

(وفى ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ التأمت المحكمة العسكرية المذكورة فى جلسة علنية بحضور جم غفير من الذوات والأوربيين ، وكثير من عائلات أكابر الأوربيين حتى اكتظت المحكمة على سعتها ، ثم دعيت لسماع الحكم فأجبت وقمت فى مقام سماع مؤمنا بالتميز والاحترام ، فقام رؤوف باشا رئيس المحكمة المذكورة ، وتلا على الحضور الأمر القاضى بالاعدام ، ثم جلس دقيقة وقام يتلو أمر الخديو القاضى باستبدال القتل بالنفى المؤبد ، فأشرت بالرضى والقبول مع الشكر) *

وكان كل ما ينشده بلنت وتكليفه برودلى ونابيير بالدفاع عن عرابى ، أن ينقذه من القتل ، كما كان ينشد الخديو ويعمل له ، فما أن صدر الحكم - باستبدال القتل بالنفى المؤبد - حتى (قامت السيدات الأوربيات يتسابقن فى نثر الورود والازهار على مهنئات

(٤) الجزء الأول ص ٢٠٨ .

(٥) مذكرات : الجزء الثانى ص ١٤٨ - ١٤٩ .

بشفقة وحنان ، لا أزال أشكرهن وأذكر عطفهن على بالثناء الجميل
... وأما السيدة اللادى نابيير ، فانها بعد أن نثرت على كثيرا
من الورد والياسمين ، قدمت الى بيدها الكريمة باقة ورد عظيمة
فتقبلتها منها شاكرًا لها عطفها وحنانها - ونثر الورد رمز على
الخلاص من الموت) .

ويمضى عرابى فى مذكراته - فى ذكر ما كان من استجوابه
وردوده فيما يهم - (وقد اقتصرنا - كما يقول فى هامش الصفحة -
على المهم من هذه المحاكمات ، ومن أرادها كاملة فليرجع الى جرائد
ذلك الحين ، أو الى كتاب - مصر للمصريين - ويترك للمصنف
من قراء المستقبل الحكم واستنباط الحقيقة) .

والواقع أن عرابى كان حريصا على كلمة التاريخ ، ولا يحب
أن تمضى حركته وجهاده ، ويختفى نداؤه - مصر للمصريين - فى
لغو الباطل ، والكاذب المضللين ، فلم يأت أمرا ادا ، ولم يخرج
حتى فى صلته بالخديو توفيق عماله من توقيير بوصفه حاكما شرعيا
على مصر - هو ما لسناء من سلوكه حياله فى كل مناسبة ، ولم
يكن الخلاف والتنازع من قبل عرابى بل كان من توفيق ، الذى
وصمه التاريخ بالخيانة ليكون جزاؤه من الانجليز بعد احتلالهم
مصر التحقير والانكار .

ويمضى التاريخ لينال عرابى توقيير التاريخ ، وهو ما كان
هدفه وغايته سندا لندائه الخالد - مصر للمصريين - ومن هذا
كان حرصه على تدوين مذكراته التى دونها منسوخة بعنوان
- كشف الستار عن سر الأسرار - الخ - كما سبق القول - لنبقى
مأثرته حية على مدى التاريخ ، بعد أن رأى الهزيمة تحل به ، ولم
يشأ أن تكون النهاية ، فلم يسلم بما ذهب اليه البارودى - كما
سبق القول - وسلم دون البارودى - للانجليز - وقد أشار (عليهم

مسيو نينيه بأن يسلموا أنفسهم كأسرى حرب للقائد البريطانى ،
فعمل عرابى وطلبه بنصيحته ، وتهيأ الاثنان للذهاب الى العباسية
لكي يسلما أنفسهما للجنرال - درورى لو - أما محمود سامى
البارودى ، فلم يقبل هذه النصيحة ، وقال : (انى ذاهب الى
منزلى ، فاذا أرادونى فاتهم يعرفون أين يجدوننى (٦))

ولا فرى الا أن عرابى كان ينظر الى المستقبل - كما قلنا -
ليكمل رسالته . وكل ما يرمى اليه حينذاك أن يبقى على حياته
ليكتب كلمته للأجيال القادمة ، ولتكون وصيته الأخيرة - مصر
للمصريين - وقد تم له ما أمل .

ولا ينسى فى هذا الصدد أن يلقي بكلمته الى التاريخ ، فما أن
صدر عليه الحكم حتى (بعث الى جريدة التيمس بوضيته السياسية
عملاً بما أشار على به المحاميان اللذان توليا الدفاع عنى وهم
المستر برودلى ، والمستر نابيير ، اللذان توليا الدفاع عنى ، ولا
استطيع أن أفيهما حقهما من الشكر لما بذلاه فى قضيتى من الجهد
والإخلاص) .

يقول فيها :

(لست أشكو اليوم مما انتهى اليه أمرى ، ولا من الحكم
الذى صدر على فانه يقرر على كل حال براءتى من تهم المذابح
والحريق التى لم يكن لى يد فيها ولا تتفق مع مبادئ السياسة
والدينية ، وقد صار الأمر كله موكولا الى الحكومة الانجليزية والى
مكارم الشعب الانجليزى ، وأنا أغادر مصر مع الثقة التامة فى
حسن مصيرها ، لأننى أعتقد أن انجلترا صارت لاتستطيع أن تؤجل

(٦) الرافعى - الثورة العرابية ص ٤٦١ .

الاصلاحيات التي قمنا للمطالبة بها ، وكافحنا من أجلها ، ولا بد أن تبدأ بإلغاء المراقبة الثنائية ، ولا تترك حكومة مصر في أيدي الألواف من الموظفين الأجانب ، وتحرم أبناءها من إدارة شئوننا ، ثم تطهر المحاكم الأهلية من أوضاعها وتضع القوانين والمشروعات اللازمة لنظام الإدارة ، وأهم من وضعها مراقبة تنفيذها ، ثم يشكل مجلس للنواب يكون له حق الاشتراك في إدارة شئون الأمة المصرية ، ويمنع المرابون من الانتشار في قرى الفلاحين فإذا أتمت كل هذه الأمور ، وعالت على مصر بالتقدم والعمران وجب على الشعب الانجليزي أن يعترف بأنني كنت محقا بالخروج والعصيان) .

(ولما كنت من أبناء الفلاحين الذين يحبون بلادهم ، فقد بذلت ما في وسعي وامكاني لأجراء هذه الاصلاحات ، ولكن لسوء حظي لم يتح لي أن تتم على يدي ، وأملى عظيم في أن الحكومة الانجليزية ستقوم باتمام ما بدأت به فإذا أدت إنجلترا هذه المهمة واستخلصت مصر للمصريين وضع للعالم جليا ماهو الغرض الجليل الذي كان عرابي العاصي يسعى اليه) .

(ان جميع المصريين كانوا في جانبي ، كما أنني وقفت نفسي على خدمة بلادي التي لن أتحوّل عن حبها الى نهاية حياتي ، فلذلك أرجو ألا تفتأ مصر تذكرني عندما يتسنى لانجلترا أن تتم العمل الذي حاولت الشروع فيه ، واني لا أزال أكرر القول بأنني غير حزين لما بوصل اليه أمري ، بل أراني مغتبطا مسرورا لاعتقادي بأن ما حل بي من سوء العاقبة كان من البواعث لحصول مصر على ما هي أهل له من الحرية ورغد العيش فإذا أتمت إنجلترا هذا العمل الجليل كنت على يقين بأنها لا بد أن تسمح لي بالعودة الى وطني المحبوب لما جبلت عليه من حسن الشعور الانساني وحب الانتصار للعدالة

حتى أرى بعيني رأسى قبل أن ينتضى أجلى نتيجة أعمالها فى خدمة
الإنسانية) .

(هذا وأنى أشكر اليد البيضاء التى أسداها الى المستر
جلادستون واللورد جرانفل بحسن وساطتهما فى أمرى ، بحيث
أنقذانى من حالة الخطر التى كنت فيها ، كما أنى أشكر اللورد دوفرين
والسير ادوارد مالت لما أبدياه من العطف على ، أما صديقى المستر
بلنت فأنا عاجز عن ايفائه حقه من الشكر لما بذله لأجلى من جهاه
وماله ، وما ساعدنى به فى ساعة الشدة والحاجة التى تحول فيها
على أصدقائى المصريون واحدا بعد الآخر) .

(وأنا عاجز أيضا عن ايفاء حق الشكر للمستر - برودلى -
فقد أولانى نعمة الخلاص والنجاة بفضل اجتهاده وصدق عزمته ،
وكذلك المستر - نابيير - وبالجملة أشكر للأمة الانجليزية كلها
عطفها على ، وأشكر لكم ياسيدى المحرر وكبار محررى الصحف
الانجليزية ما تفضلتم به من الاجماع على المطالبة بالعدالة فى
محاكمتى) .

(واختم القول بأنى على ثقة بأن حقنا سسيظهر جليا فيما
تعرضنا له مع مرور الزمن ، وأن انجلترا لا تندم أبدا على ما أبدته
من الكرم والإنسانية مع رجل كانت قد قصصدت فى أول الأمر
محاكمته) .

(من سجن القاهرة ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢)

أحمد عرابى المصرى

١٨/١ - الحقيقة والواقع - كلمة التاريخ

كانت ثورة عرابي أشبه بجذوة من اللهب مالبثت أن أطفأتها ريح عاصفة ، حتى دعاها العامة - هوجة عرابي - والعامة إحيانا في مصر - أصدق احساسا وتعبيرا عن معنى التاريخ من كثير من المؤرخين .

وحين أدير تلك العيارة في عقلي : أتساءل : أهي احساس لاشعوري بما كان أوإنها وصفا حقيقيا لما كان ، وهل كانت حين ألبت بها الخديعة وعجزت عن مواجهة الموقف ، وما أصابها من فرقة حين ذهب البعض يؤيد الخديو الخائن ، والبعض الآخر يقف إلى جوار عرابي علة هذا الوصف ، أو ان ما أصاب الجيش المصري من الغدر والخيانة ، فلم يصمد طويلا أمام الغزو الانجليزي ، أو ان مجزرة القصاصين التي قتل فيها ألفان من الجنود المصريين مقابل سبعة وخمسين جنديا من الانجليز (٩ سبتمبر ١٨٨٢) هو الذي يحرك الشجعور حقيقة ما يخفيه ، وهل كان للفوضى التي ضربت أطنابها على تحركات الجيش المصري ، فغدت أشبه بالهياج منها بتحركات لا تجد سندا لها من الجند المدربين وتكتيك المعارك فلم تصمد طويلا وكانت أشبه بجذوة من اللهب أطفأتها ريح

هائجة ولنا أن نتساءل ، أين كان الناس - كما كان أهل رشيد - حين نزلت عليهم حملة فريزر ، وهو ما اتخذ الرافعي قياسا لحكمه على معركة التل الكبير ، فقضوا عليها قبل أن تأتيهم النجدة من محمد علي - لقد كان الشعب والحاكم حينذاك في صف واحد أمام الغزو الانجليزي لرشيد سنة ١٨٠٧ ، أما في ثورة عرابي فقد كان الشعب والحاكم حينذاك على طرفي نقيض ، فكانت الفرقة بين الحاكم وأعدائه وعرابي وأعدائه ، ولم تكن الجذوة التي أوقدها عرابي قد امتدت بعد الى عامة المصريين من الفلاحين ، ولو أنها امتدت اليهم وجاشت بها أفئدتهم وحركتهم لما استطاع الخديو أو الانجليز التصدي لها والقضاء عليها ، كما كان من بعد في ثورة ١٩١٩ .

ونكاد نقول أن الأرض لم تكن قد استوت بعد لترسل حممها ، وكانت ثورة عرابي ثورة لم يتهيا لها رأى عامة الناس بجهد كان دون طاقتهم وقدرتهم ، والهياج - أو الهوجة - هو الوصف الدقيق لثورة لم تكتمل ، ولم يتهيا لها الظرف المناسب ، فان كان فيه اساءة لعرابي ، فقد وجدت ترحيبا من السلطة الحاكمة ، فانها من ناحية أخرى دلالة صادقة على حس المصريين ، حين يستوحى المصري صدقه مما طوته السنون في أعماقه ومن حنايا اللاشعور في وجدانه ، فيصدق حسه أكثر مما يصدق عقله ، ويكون له من حسه نبراسا لواقعه ووحيا لشاعره .

وهو ما كان - كما سبق القول - منه في ثورة ١٩١٩ حين اكتملت لديه الرؤيا ، وانجابت عن ناظره الغيوم ، فثورة ١٩١٩ هي الامتداد الحقيقي لثورة عرابي ، حين مست أوضاع الانجليز مصالح الفلاحين ، تفصل بينهما فترة من اليقظة العارمة تهيأت فيها الأذهان للصحو الكبرى .

ولعل هذا ما حرص عليه عرابي في نظريته للمستقبل ، حين

نزل على الحكم بنفيه انقانا لحياته ليكمل رسالته ولم يفارقه الأمل
فى عودته الى مصر ، ويبقى فى منفاه ومصر فى وجدانه وخاطره
وكان من مآثره أن بعث الى أصدقائه بمصر من تقاوى الفواكه
- كالمنجة ، والقشطة ، وبذور البن لزراعتها فى مصر فأرسل الى
أحمد باشا المنشاوى - تقاوى البن اليمنى تكفى لزراعة عشرين
فداناً حتى يعمم انتشاره ، كما أرسلنا - كما يقول - لهذا الغرض
أحسن أنواع - المانجة - والموز الأحمر والأصفر المصلى أيضاً وغيره
من الأصناف المتعددة من الفاكهة الزكية الرائحة اللذيذة الطعم التى
رجوت انتشارها فى مصر ، وبعثنا اليه أيضاً بأنواع الحبهان ،
والقرنفل ، والبانليا الطيبة الرائحة ، وأذكر أنه أهدى جدى ثمار
المانجة والقشطة ، فزرع أشجاراً عديدة منها ، وأذكر أن ثمار المانجة
كانت كبيرة الحجم ، ولا أذكر أن ثمار القشطة قد زرعت فى مكان
آخر غير ما زرع على مساحة عشرة أفدنة لجدى . وقد رأيتها فى
طفولتى ، حتى أتت عليها عوادي الزمن ، وكان عرابى بعد عودته
لمصر يزور جدى ويزوره فنحن من أبناء الشرقية وبلدتى - أكراش -
على مقربة من هرية رزنة ، ومن خلال أعيان الشرقية التزاور فى
المناسبات أو فى غيرها ، وكانت الزيارات بين الأعيان عادة اثيرة
من عادات الريف فى مطلع القرن العشرين ، وقد قضى عليها بعد أن
غشيها ماسمى - الاصلاح الزراعى -

وشاء القدر أن تحظى رغبة عرابى بالعودة الى مصر ، فجاءها
عام ١٩٠١ (١٩ سبتمبر) ليرى أن كل شىء قد تغير .

وقبل أن تطلأ قدمه أرضها ، كان قد فرغ من كتابة مذكراته
هذه ، وقدم للجزء الأول منها - كما سبق القول - الرئيس اللواء

محمد نجيب - إما الجزء الثانى - فقد قدم له الأستاذ طاهر
الطناحى (١) ، ويقول فى تقديمه :

(وفى هذا الجزء تفصيل وافٍ لمحاكمة زعماء
الثورة وقادتها من الضباط والعلماء والأعيان وغيرهم
ممن امتلأت بهم السجون المصرية وقد بلغوا ثلاثين
ألفاً ، وقد اقتصرنا فى هذه المحاكمة على محاكمة أحمد
عرابى وبعض زملائه وأنصاره من الضباط والعلماء
والأعيان ، ولم نضن على القارىء بتفصيل محاكمتهم
لأهميتها التاريخية ، ولبيان ما أصاب هؤلاء الوطنيين
الأحرار من تعسف وظلم وتنكيل ثم ما أصابهم فى
سبيل وطنيتهم النبيلة من أحكام قابلوها بالشجاعة
والاطمئنان) .

(وقد كان الخديو توفيق والخونة من رجاله يودون
لأن ينفذ فيهم حكم الإعدام لولا تدخل بعض الدول وثورة
الصحافة الأجنبية الحرة التى كانت تؤيد الأحرار
المصريين فى مطالبهم العادلة ، فاضطر إلى العدول عن
هذا الحكم إلى النفى المؤبد فى جزيرة سيلان) .

(وقد مكث عرابى وصحبه فى هذه الجزيرة تسعة
عشر عاماً وبضعة شهور مات منهم فيها من مات ومرض
من مرض ، ثم عاد الباقون إلى بلادهم فى شيخوخة
مضنية ...)

(١) صدر الجزء الأول من هذه المذكرات فى سلسلة كتاب الهلال العدد
٢٢ (فبراير ١٩٥٣) وصدر الجزء الثانى - العدد ٢٤ - (مارس ١٩٥٣) .

(وكانوا محاطين من أهل الجزيرة الذين عرفوا قدرهم بكل اجلال وتكريم واعجاب) .

ومما يستحق الاشارة اليه ، ما جاء على لسان عرابى فى ختام مذكراته تلك - على غير ما نسب اليه ، على لسان من كتبوا عنه قبل سقوط الحكم الملكى فى مصر . وقد دونها عرابى فى ختام مذكراته - كما يقول - (وكان الفراغ من كتابى هذا فى ١٩ رجب سنة ١٢٢٩ الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩١٠ ، ويوقعها على الصورة التالية - خادم وطنه أحمد العرابى الحسينى المصرى .

فيقول : (ومضى على احتلالهم - اى الانجليز - غير الشرجى ٢٩ عاما ، فما بالهم لا يوفون بوعدهم وينجلون عن البلاد المصرية ، وهى هادئة سبأكة . نعم ان الانكليز (٢) كباقي الأمم لا ينجلون عن بلاد احتلوها برضى أنفسهم أبدا ، ولكنهم سينجلون عن كنانة الله رضوا بذلك ام غضبوا ، قريبا أو بعيدا . . . وقد دخل الانكليز مصر بأسباب غير شريفة وخدعوا المصريين والدولة العثمانية وأوروبا وحاربوا المصريين بدعوى تأييد الخديو ، ورشوا رجال الدولة العلية ، ولكن الله يدافع عن عباده المؤمنين) .

(فعلى الناشئة المصرية أن تجد وتجتهد وتعمل ليلا ونهارا على استرداد مجدها واستقلالها وحزبتها السلوية منها ومطالبة الانكليز بالجلاء حتى ينكشف عنها هذا البلاء . . ثم أناشدهم أن يشدوا أواصر الأخاء بين أبناء وطنهم ، ويطهروا قلوبهم من الغل والضغينة ويعملوا يدا واحدة ورجلا واحدا لرفع شأن بلادهم واعزاز كلمة دينهم ، فاذا فعلتم كل ما ذكرت ، وأرسلتم أذانكم للسمع ،

(٢) هكذا كانت تكتب فى تلك الايام وألى عهد قريب . المؤلف .

وأصختم الى نصائح من حنكته التجارب ، فعرف من تقلب الحدثان
الطريقة المثلى والدواء الناجع ، هناك يخرج الله أعداءكم ويولى
عليكم خياركم ، والله على كل شيء قدير) .

وقد يبدو هذا نقيضاً لما كان من دفاع الانجليز عنه وانقاذهم
له من عسف الخديو توفيق التوافق لاعدامه ، ولكن الرد عليه ، كما
سبق ذكره ، كان من جانب احرار الانجليز أمثال - بلنت - وهو الذى
تبني قضيته ويسر لها المحامين فى الدفاع عنه ، وفرق بين دعاة
الاستعمار البريطانى والأحرار من الانجليز ، وقد رأى دعاة
الاستعمار فى نفى عرابى أبعادا له عن الساحة المصرية ، كما رأى
الدافعون عنه ، انقاذاً له من الاعدام ، بل كان من أبناء الأسرة
الحاكمة من أخذوا جانبه ، (وكان فرح المصريين الأحرار لانقاذه
من مخالب الموت - كما يقول - فرحاً عظيماً ، خصوصاً أحرار
العائلة الخديوية ، وكتبت صاحبة الدولة ومثال الكمال - انجى هانم
حرم المرحوم محمد سعيد باشا والى مصر الأسبق ، الى جانب المستر
برودلى المحامى عنا تشكره للدفاع عن قضيتنا بما يأتى :

(جناب المستر برودلى المحامى

بعد اهدائك تسليماتى وتشكراتى لشخصك الكريم ،
انتبهز هذه الفرصة لأن أصرح لكم بأن بلاد مصر تشرفت
بمجيئكم اليها وأنا وجميع أهلها مسرورون من أعمالكم
لأنكم دافعتم عن مبدأ الانسانية والعدل

ونحن المصريين نبتهل الى الله فى كل أيام حياتنا
أن يهنئكم وينجح مقاصدكم ونرجو أن العدل والشفقة
يحكما هذه البلاد)

(هذا وبذفاعكم غن أبناء مصر - الذين سعوا
لخيرها ، ودافعوا عنها قد جعلتم انجلترا محبوبة عندنا
لأن الانجليز عطفوا علينا في حزننا ومصيبتنا .

وانى أشكر جناب المستر بلنت بقلب خالص لطيبته
وانعطافه نحونا ، وجميع المصريين مسرورون من
الأخبار التى دلت على أعمالكم ولا يجرؤ أحد على تأييد
العكس مع تبليج نور الحقيقة ، وانى لعاجزة حقيقة
عن توضيح تشكراتى) .

مصر فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢

(انجى)

أما والدة الخديو - كما يقول عرابى - (فكانت فى عربتها
خارج قصر النيل لتشمت بنا)

والفرق بين الحالتين ، أن عرابى كان أثيرا على سعيد باشا
أما الخديو توفيق فكان عدوا له ينشد قتله .

وكان الرحيل الى المنفى ليلة الاربعاء (الواقع فى ١٧ صفر
سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ . وبعد قيامنا ولينا
وجوهنا شطر مصر فنظر الى جمالها وحسن منظرها ، وفودعها
بقولنا :

(يا كنانة الله صبرا على الأذى ، حتى يأتى الله لك
بالنصر) .

وفى المنفى ، وقد ألفت الباخرة التى تقلهم مراسيها فى ٩ يناير
سنة ١٨٨٣ فى ثغر كولبو ، وكان استقبالهم حافلا ، حين (خرجنا
الى البر صباح الخميس غرة ربيع الأول سنة ١٣٠٠ و ١٠ يناير

سنة ١٨٨٢ ، فوجدنا رصيف الميناء مژنحما أيما ازدحام باخواننا المسلمين من أهل الجزيرة المذكورة وأهل الجاوة والهند والملايو وأعيان طائفتي التمل والشنكليز أهل البلاد من عباد الأوثان على - مذهب البوذا - وكلهم يشيرون إلينا بالسلام وزيادة الاحترام) .

وترجع تلك الظاهرة من الاستقبال الحافل لعرايى ورفاقه ، التي يرم الأهلين بالاستعمار الأوربي ، والانجليزى بنوع أخص لتلك البلاد ، وهو ما حمل السفارة الإنجليزية بالآستانة - كما سبق القول ، الى طبع مليون نسخة تعلن عصيان عرايى للارادة السلطانية بالآستانة لتزويجها على مسلمى الهند ومسلمى الشرق الأقصى للقضاء على حركة التشيع للعراييين .

وفي ٢٠ اكتوبر من نفس السنة (حضر صديقنا المستر بلنت من أنجلترا لزيارتنا ، وتهنئتنا على نجاتنا من أيدي خصومنا) وكان استقباله حافلا وكان بصحبته (السيدة الفاضلة - للآدى !نا بلنت - وبمعينتهما القس لويسن الصابونجى) .

(ولما وصلنا الى البر تكاثرت علينا جموع المحتفلين بقدوم المستر ولفرد سكافن بلنت) .

وفي الطريق الى مقر الضيافة (كان الناس مصطفين على جانبي الطريق الموصل الى السراي وهم يحيون المستر بلنت ونحن معه فى المركبة بوجوه باشه وأسارير مبتهجة حتى وصلنا مقر الضيافة - وقد ازدان بالألوار الكهربائية وأقواس النصر . . ولما رأى سرور الناس بمقدمه وعظيم احتفائهم به حمد الله على ذلك بقوله - الحمد لله على نعمائه فقد جنينا ثمرة أتعابنا بما شاهدناه من الأحسان الشريف عند عناصر الشعب السيلائي وجميع المسلمين) .

وقد منع بلنت في عودته - بعد الاحتفال بتتويج حيدر آباد
الدكن بعد بلوغه سن الرشد - من دخول مصر بأمر المستر يارنج -
لورد كرومر فيما بعد ، فذهب إلى الآستانة حيث (قوبل بكل احترام
بأمر الحضرة السلطانية ثم قفل راجعا إلى إنجلترا) . .

وشاء القدر لعرايى أن يكون انصافه على يد هؤلاء الأحرار
من الإنجليز ، وأن يكون ما كتبوه خير مرجع لتاريخ مصر الحديث
سواء على يد كارهيه أو محبيه ، ومع ما بذله الراقى من جهد أثير
في تدوينه لتاريخ مصر الحديث ، إلا أن مآكبه - كان كثيرا ما يطغى
عليه الهوى والأيتار في انتمائه إلى الحزب الوطنى ، وتشيعه له ،
ومجاملته للأسرة الحاكمة .

ويشير عرايى إلى ما كان من زيارة - الدوق أف كنوت ثالث
أنجال ملكة الإنجليز (وقت تقدم وصوله - كما يقول - حضور
صديقنا السيد ولیم جريجورى كاتم أسرار الملكة ، فقدمنا إلى الدوق
عند وصوله إلى رصيف الميناء فلاطفنا سموه ودعانا نحن المصريين
إلى وليمة فى سرادق الحكومة وقد ازدهت السمرات بالألوان
والأضواء ، فكان الليل كأنه صحوه النهار ، وجاء صديقنا السيد
ولیم جريجورى المذكور مرة ثانية إلى سيلان فى شهر مايو سنة
١٨٨٢ . وقد أشار علينا أن نحرر عريضة إلى الحكومة الإنجليزية
نطلب إليها العودة إلى بلادنا لما رآه من انحلال قوانا بالنسبة لرداءة
الطقس ووعدنا بالمساعدة . . إلا أن الحكومة المصرية رفضت أجابة
طلبنا حيث كان رياض باشا رئيس الحكومة آنذاك لسوء الحظ ،
وأشارت بارسالنا إلى بلاد الكاب أو زيلع .

وكان عرايى - كما يقول - قد طلب العودة إلى مكان قريب
واقترح أن تكون قبرص ، وهو يدرك تماما أن الخديو توفيق عدوه

الكاره مازال حيا ، ولم ينل عرابى الأذن بالعودة الى مصر إلا بعد وفاة توفيق بسنوات ، عندما اعتلى الخديو عباس حلمى الثانى اريكة الخديوية خلفا لأبيه توفيق بعد وفاته فى سنة ١٨٩٢ فأصدر عفو عن عرابى واذن له بالعودة الى مصر فى ١١ يونيه ١٩٠١ أى بعد ولايته بتسع سنوات .

وفى المنفى كانت وفاة عبد العال باشا حلمى يوم ١١ مارس ١٨٩١ بكولبو ودفن بها ، كما أدركت الوفاة محمود باشا فهمى بكندى عاصمة الجزيرة ليلة ١٧ يوليه ١٨٩٤ ودفن بها ، ورخصت الحكومة المصرية لطلبة باشا عصمت بالعودة الى مصر بعد أن ساءت صحته فعاد الى مصر حيث توفي بعد خمسة شهور من عودته ودفن بقرافة الامام الشافى ، وفى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٠ توفي يعقوب باشا سامى ، ودفن بجوار قبر محمود باشا فهمى بكندى ، وكان قد صَدَرَ العفو عنه وشاء قدره أن تكون وفاته قبل عودته ، ونال محمود باشا سامى البارودى الأذن بالعودة لعلاج عينيه ، ولم يعد اليه بصره وتوفى فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤ .

وكان عرابى وعلى فهمى آخر من نال العفو الخديوى وصدر لهما الأذن بالعودة ، وكانت عودة على باشا فهمى الى القاهرة أول سبتمبر ١٩٠١ وبعد شهر لحق به عرابى أول الشهر التالى - أول اكتوبر ١٩٠١ - وكان آخر العائدين ممن لحق بهم الأبعاد بعد تسعة عشر عاما من مرارة الأبعاد والشوق الى مصر .

وشاء القدر لعرابى - كما كان آخر العائدين - أن يكون آخر من لحق بهم الأجل . حيث أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته ليكتب كلمته للتاريخ - فيما دعاه (كشف الستار عن سر الأسرار

فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فى عامى ١٢٩٨ و ١٢٩٩ الهجريين وفى ١٨٨١ و ١٨٨٢ الميلاديين) .

وكانت وفاته - ليلة القدر - (٢٧ رمضان سنة ١٣٢٩ - ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١١) . وكان قد انتهى من كتابة مذكراته - كما يقول - (وكان الفراغ من كتابى هذا فى ١٨ رجب سنة ١٣٢٩ الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩١٠) أى قبل وفاته بحوالى ثلاثة أشهر . وكانت نهاية حقبة من تاريخ مصر الحافل .

دكتور حسين فوزى النجار

الزمالك - السبت ٢٤ ذى الحجة ١٣١١

الموافق ٦ يوليو ١٩٩١

الفهرس

صفحة

٥	مقدمة
١١	١/١ - من عهد الى عهد
١٩	١/٢ - البداية
٣٣	١/٣ - عود على بدء
٤١	١/٤ - بلبله وبلبلال
٥٥	١/٥ - اسماعيل والثورة العرابية
٦٩	١/٦ - مصر للمصريين
٧٧	١/٧ - بين المهادنة والمغامرة
٨٥	١/٨ - اللعبة الكبرى
٩٥	١/٩ - الصمصوة الكبرى
١٠٧	١/١٠ - مصر الخالدة
١١٥	١/١١ - الجيش والشعب
١٢٥	١/١٢ - بين عهدين

صفحة

١٣٩	• • • •	١/١٣ - الخيانة والمؤامرة
١٥٣	• • • •	١/١٤ - العدوان الباغى
١٦٥	• • • • •	١/١٥ - بين ثورتين
١٨٣	• • • • •	١/١٦ - الافتراء والحقيقة
١٩٥	• • • •	١/١٧ - الله ينصرك يا عربى
٢٠٩	• •	١/١٨ - الحقيقة والواقع - كلمة التاريخ

رقم الايداع ١٩٩٢/٣٠٦٢

الترقيم الدولى 5 — 3009 — 01 — I.S.B.N. 977

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إن الثورة العرابية كانت دفاعا عن الحق ودفاعا عن الحياة .. ولا جدال في أن ظهور أحمد عرابي كان في مقدمة الأسباب المباشرة للثورة ، فهو الذي بث في نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الأمور ، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة ، ولو لم يظهر عرابي ، ولم تكن له تلك الشخصية التي اجتذبت إليه صفوف الضباط وبثت فيهم روح التضامن والاقبال ، لكان محتملا أن لا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت في زمن آخر ، وفي ظروف وملابسات أخرى غير التي ظهرت فيها .